الميزان في تفسير القرآن

لمؤلفه
الأستاذ العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر
الشيخ محمد الآخوندي
مدير
دار الكتب الإسلامية
طهران بسوق السلطان

2273
.9444
v.18

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 019483260

al-Ṭabāṭabāʾī, Muḥammad Ḥusayn.

الجزء الثامن عشر

من كتاب

الميزان في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الآخوندي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٩٠ ه‍ ق

مطبعة الحيدري بطهران

2273
.9444
V.18

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الشورى مكية و هي ثلاث و خمسون آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) .

﴿بيان﴾

تتكلّم السورة حول الوحي الّذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله كما يدلّ عليه ما في مفتتحها من قوله : « كذلك يوحي إليك و إلى الّذين من قبلك الله » الآية ، و ما في مختتمها من قوله : « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيا الخ » الآيات ، ورجوع الكلام إليه مرّة بعد اُخرى في قوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيّاً » الآية ، وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا » الآية ، وقوله :«الله

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 019483260

الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الآية و ما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ماسيجيء .

فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين في معادهم و رجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام .

والسورة مكية وقد استثني قوله : « و الذين استجابوا لربهم » إلى تمام ثلاث آيات ، وقوله : « قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » إلى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « حم عسق » من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل عدة من السور القرآنية ، و ذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية .

وقداختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين في تفسيرها وقدنقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحدعشر قولافي معناها :

أحدها أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لايعلم تأويلها إلا هو.

الثاني أن كلا منها اسم للسورة التي وقعت في مفتتحها .

الثالث أنها أسماء القرآن أي لمجموعه .

الرابع أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله : « الم » معناه أنا الله أعلم ، وقوله: «المر» معناه أناالله أعلموأرى ، وقوله : « المص» معناه أنا الله أعلموأفصل وقوله : «كهيعص» الكاف من الكافي ، والهاء من الهادي ، والياء من الحكيم ، والعين من العليم ، و الصاد من الصادق ، و هو مروي عن ابن عباس ، و الحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذها فمنها ماهو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي ، و منها ماهو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم ، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمة كالميم من أعلم .

الخامس أنها أسماء لله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله

الأعظم تقول: الر وحم ون يكون الرحمن وكذلك سائرها إلّا أنّا لا نقدر على تأليفها وهو مروي عن سعيد بن جبير .

السادس أنّها أقسام أقسم الله بها فكأنّه هو أقسم بهذه الحروف على أنّ القرآن كلامه ، وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة ، وأسمائه الحسنى و صفاته العليا ، و اُصول لغات الاُمم على اختلافها .

السابع أنّها إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدّة الأقوام وأعمارهم وآجالهم .

الثامن أنّ المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الاُمّة على ما يدلّ عليه حساب الجمل .

التاسع أنّ المراد بها حروف المعجم و قد استغني بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال : اب ويراد به جميع الحروف .

العاشر أنّها تسكيت للكفّار لأنّ المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن و أن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » الآية فربّما صفروا وربّما صفّقوا و ربما لغطوا فيه ليغلّطوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في تلاوته ، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها وتفكّروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الحاديعشر أنّها من قبيل تعداد حروف التهجّي و المراد بها أنّ هذا القرآن الّذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف الّتي تتحاورون بها في خطبكم و كلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من عند الله تعالى ، و إنّما كرّرت الحروف في مواضع استظهارا في الحجّة ، وهو مرويّ عن قطرب و اختاره أبومسلم الإصبهانيّ وإليه يميل جمع من المتأخّرين .

فهذه أحد عشر قولا و فيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولا آخر كما نقل عن ابن عبّاس في « الم » أنّ الألف إشارة إلى الله واللّام إلى جبريل والميم إلى محمّد صلّى الله عليه وآله ، و ما عن بعضهم أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السور المفتتحة بها إشارة إلى الغرض المبيّن فيها كأن يقال : إنّ « ن » إشارة إلى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود

للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و «ق» إشارة إلى القرآن أو القهر الإلهيّ المذكور في السورة ، وماعن بعضهم أنّ هذه الحروف للإيقاظ .

و الحقّ أنّ شيئاً من هذه الأقوال لاتطمئنّ إليه النفس :

أمّا القول الأوّل فقد تقدّم في بحث المحكم و المتشابه في أوائل الجزءالثالث من الكتاب أنّه أحد الأقوال في معنى المتشابه ، و عرفت أنّ الإحكام و التشابه من صفات الآيات الّتي لها دلالة لفظيّة على مداليلها ، و أنّ التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظيّة بل التأويلات حقائق واقعيّة تنبعث منها مضامين البيانات القرآنيّة أعمّ من محكماتها و متشابهاتها ، و على هذا فلاهذه الحروف المقطّعة متشابهات و لا معانيها المراد بها تأويلات لها .

و أمّا الأقوال العشرة الأُخر فإنّما هي تصويرات لا تتعدّى حدّ الاحتمال و لا دليل يدلّ على شيء منها .

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سيأتي نقلها و الكلام في مفادها في البحث الروائيّ الآتي إن شاءالله تعالى .

و الّذي لا ينبغي أن يغفل عنه أنّ هذه الحروف تكرّرت في سور شتّى وهي تسع و عشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص و ق و ن ، و بعضها بحرفين و هي سور طه و طس و يس وحم . و بعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي « الم » و « الر » و طسم و بعضها بأربعة أحرف كما في سورتي « المص » و« المر » و بعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «كهيعص » و «حمعسق » .

و تختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إنّ بعضها لم يقع إلّا في موضع واحد مثل « ن » و بعضها واقعة في مفتتح عدّة من السور مثل « الم » و « الر » و « طس » و « حم » .

ثمّ إنّك إن تدبّرت بعض التدبّر في هذه السور الّتي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات و الرآت و الطواسين و الحواميم ، وجدت في السور المشتركة في

الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور .

و يؤكّد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله : « تنزيل الكتاب من الله » أوما هو في معناه ، و ما في مفتتح الرآات من قوله : « تلك آيات الكتاب » أوما هو في معناه ، ونظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين، وما في مفتتح المآيمات من نفي الريب عن الكتاب أوما هو في معناه .

و يمكن أن يحدس من ذلك أنّ بين هذه الحروف المقطّعة و بين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطا خاصّا ، و يؤيّد ذلك مانجد أنّ سورة الأعراف المصدّرة بالمصٓ في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين المآيمات وصٓ ، وكذا سورة الرعد المصدّرة بالمرٓ في مضمونها كأنّها جامعة بين المآيمات والرآات .

و يستفاد من ذلك أنّ هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم خفيّة عنّا لاسبيل لأفهامنا العاديّة إليها إلّا بمقدار أن نستشعر أنّ بينها و بين المضامين المودعة في السور ارتباطا خاصّا .

و لعلّ المتدبّر لو تدبّر في مشتركات هذه الحروف وقايس مضامين السور الّتي وقعت فيها بعضها إلى بعض تبيّن له الأمر أزيد من ذلك .

و لعلّ هذا معنى ماروته أهل السنّة عن عليّ عليه السلام - على ما في المجمع - أنّ لكلّ كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي .

قوله تعالى : « كذلك يوحي إليك و إلى الّذين من قبلك الله العزيز الحكيم - إلى قوله - العليّ العظيم » مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته و الإشارة إلى غايته و آثاره أن تكون الإشارة بقوله : « كذلك » إلى شخص الوحي بإلقاء هذه السورة إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فيكون تعريفا لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلا هوكزيد .

وعليه يكون قوله : « إليك وإلى الّذين من قبلك » في معنى إليكم جميعاً، وإنّما عبّر بما عبّر للدلالة على أنّ الوحي سنّة إلهيّة جارية غير مبتدعة ، و المعنى أنّ الوحي الّذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء - نبيّا بعد نبيّ - سنّة جارية - هوكهذا الّذي

تجده و تشاهده في تلقّي هذه السورة .

وقد أخذ جمهور المفسّرين قوله : « كذلك» إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف الّتي تشتمل عليها السورة و تتضمّنها و استنتجوا من ذلك أنّ مضمون السورة ممّا أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه ، وقد عرفت أنّه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها .

وقوله : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العليّ العظيم» خمسة من أسمائه الحسنى ، و قوله : « له ما في السماوات و ما في الأرض » في معنى المالك ، وهي واقعة موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنّة إلهيّة جارية فالّذي يعطيه الوحي شرع إلهيّ فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة و ليس لمانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنّه عزيز غير مغلوب فيما يريد ، و لا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنّه حكيم متقن في أفعاله و من إتقان الفعل أن يساق إلى غايته .

و من حقّه تعالى أن يتصرّف فيهم و في اُمورهم كيف يشاء ، لأنّه مالكهم و له أن يعبّدهم و يستعبدهم بالأمر و النهي لأنّه عليّ عظيم فلكلّ من الأسماء الخمسة حظّه من التعليل ، وينتج مجموعها أنّه وليّهم من كلّ جهة لا وليّ غيره .

قوله تعالى : « تكاد السماوات يتفطّرن من فوقهنّ » الخ التفطّر التشقّق من الفطر بمعنى الشقّ .

الّذي يهدي إليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطّر السماوات من فوقهنّ تفطّرها بسبب الوحي النازل من عند الله العليّ العظيم المارّ بهنّ سماء سماء حتّى ينزل على الأرض فإنّ مبدء الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ماكنّا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

و الوجه في تقييد « يتفطّرن » بقوله : « من فوقهنّ» ظاهر فإنّ الوحي ينزل

عليهن» من فوقهن» من عند من له العلوّ المطلق و العظمة المطلقة فلو تفطّرن كان ذلك من فوقهن».

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنّه كلام العليّ العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفطّرن بنزوله و لكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلوّ المطلق يتفطّرن من فوقهنّ لو تفطّرن.

فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيرة قوله: « حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ و هو العليّ الكبير » سبأ : ٢٣ في إعظامه من حيث تلقّي ملائكة السماوات إيّاه ، و نظيرة قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعاً من خشية الله » الحشر : ٢١ في إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيرة قوله : « إنّا سنلقي عليك قولا ثقيلا » المزّمّل : ٥ في استثقاله و استصعاب حمله . هذا ما يعطيه السياق .

وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين :

أحدهما أنّ المراد تفطّرهنّ من عظمة الله وجلاله جلّ جلاله كما يؤيّده توصيفه تعالى قبله بالعليّ العظيم .

و ثانيهما أنّ المراد تفطّرهنّ من شرك المشركين من أهل الأرض و قولهم : « اتّخذ الرحمان ولدا » فقد قال تعالى فيه : « تكاد السماوات يتفطّرن منه » مريم: ٩٠ فأدّى ذلك إلى التكلّف في توجيه تقييد التفطّر بقوله : « من فوقهنّ » و خاصّة على المعنى الثاني ، و كذا في توجيه اتّصال قوله : « والملائكة يستغفرون لمن في الأرض » الخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم .

و قوله : « و الملائكة يسبّحون بحمد ربّهم و يستغفرون لمن في الأرض » أي ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق بساحة قدسه ويثنون عليه بجميل فعله ، وممّا لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي و هو منه فعل جميل ، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض ، و حصول المغفرة إنّما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديّة بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى

سؤال أن يشرع لهم دينا يغفر لمن تديّن به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي دينا يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي و كذا تعلّق الاستغفار بمن في الأرض إذ لامعنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتّى لمن قال: « اتّخذالله ولدا » وقد حكى الله تعالى عنهم: « و يستغفرون للّذين آمنوا » الاية المؤمن: ٧. فالمتعيّن حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تديّن به.

و قوله: « ألا إنّ الله هو الغفور الرحيم » أي إنّ الله سبحانه لا تّصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميتّه باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ماينالون به المغفرة و الرحمة من عنده و هو أن يشرع لهم دينا يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي و التكليم.

قيل: و في قوله: « ألا إنّ الله » الخ إشارة إلى قبول استغفار الملائكة، و أنّه سبحانه يزيدهم على ماطلبوه من المغفرة رحمة.

قوله تعالى: « و الّذين اتّخذوا من دونه أولياءالله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » لمّا استفيد من الآيات السابقة أنّ الله تعالى هو الوليّ لعباده لا وليّ غيره و هو يتولّى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى و صفاته العليا، و لازم ذلك أن لا يتّخذ عباده أولياء من دونه، أشار في هذه الآية إلى حال من اتّخذ من دونه أولياء باتّخاذهم شركاء له في الربوبيّة و الاُلوهيّة فذكر أنّه ليس بغافل عمّا يعملون و أنّ أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، وليس على النبيّ صلّى الله عليه وآله إلاّ البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسؤلا عن أعمالهم.

فقوله: « الله حفيظ عليهم » أي يحفظ عليهم شركهم وما يتفرّع عليه من الأعمال السيّئة.

و قوله: « و ما أنت عليهم بوكيل » أي مفوّضا إليك أعمالهم حتّى تصلحها لهم

بهدايتهم إلى الحقّ ، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن إسحاق و البخاريّ في تاريخه و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عبّاس عن جابر بن عبدالله بن رباب قال : مرّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « الم ذلك الكتاب » فأتاه أخوه حييّ بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون ؟ و الله لقد سمعت محمّداً يتلو فيما اُنزل عليه « الم ذلك الكتاب » فقالوا : أنت سمعته ؟ قال: نعم .

فمشى اُولئك النفر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالوا : يا محمّد ألم تذكر أنّك تتلوفيما اُنزل عليك « الم ذلك الكتاب» ؟ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عندالله؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء مانعلمه بيّن لنبيّ لهم مامدّة ملكه ؟ وما أجل اُمّته ؟ غيرك .

فقال حييّ بن أخطب و أقبل على من كان معه : الألف واحدة و اللاّم ثلاثون و الميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبيّ إنّما مدّة ملكه وأجل اُمّته إحدى و سبعون سنة .

ثمّ أقبل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يا محمّد هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم. قال: ماذا ؟ قال : المص قال : هذه أثقل وأطول الألف واحدة ، و اللاّم ثلاثون و الميم أربعون و الصادتسعون فهذه مائة و إحدى و ستّون سنة هل مع هذا يا محمّد غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : الر . قال : هذه أثقل و أطول الألف واحدة و اللاّم ثلاثون و الراء مائتان فهذه إحدى و ثلاثون و مائتا سنة فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم المر قال : فهذه أثقل و أطول الألف واحدة و اللاّم ثلاثون والميم أربعون و الراء مائتان فهذه إحدى و سبعون سنة ومائتان .

ثمّ قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمّد حتّى ماندري أقليلا اُعطيت أم كثيرا ؟ ثمّ قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حييّ و من معه من الأحبار : مايدريكم ؟ لعلّه قد جمع

هذا لمحمّد كلّه إحدى و سبعون و إحدى و ستّون و مائة و إحدى و ثلاثون ومائتان و إحدى و سبعون و مائتان فذلك سبعمائة وأربع و ثلاثون فقالوا : لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أنّ هذه الآيات نزلت فيهم : « هوالّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب واُخر متشابهات » .

اقول : وروى قريبا منه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وروى مثله أيضاً القمّي في تفسيره عن أبيه عن ابن رئاب عن محمّد بن قيس عن أبي جعفر عليه‌السلام ، وليس في الرواية ما يدلّ على إمضاء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لدعواهم ولاكانت لهم على ما ادّعوه حجّة ، وقدتقدّم أنّ الآيات المتشابهة غير الحروف المقطّعة في فواتح السور .

و في المعاني باسناده عن جويرية عن سفيان الثوريّ قال : قلت لجعفر بن محمّد ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم‌السلام : يابن رسول الله ما معنى قول الله عزّ و جلّ : الم و المص و الر و المر وكهيعص وطه وطس وطسم ويس وص وحم وحمعسق وق ون ؟

قال عليه‌السلام : أمّا الم في أوّل البقرة فمعناه أنا الله الملك ، و أمّا الم في أوّل آل عمران فمعناه أنا الله المجيد ، و المص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق ، والر فمعناه أنا الله الرؤف ، والمر فمعناه أنا الله المحيي المميت الرازق ، وكهيعص معناه أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد ، فأمّا طه فاسم من أسماء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و معناه ياطالب الحقّ الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعدبه .

و أمّا طس فمعناه أنا الطالب السميع ، و أمّا طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدىء المعيد ، و أمّا يس فاسم من أسماء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومعناه يا أيّها السامع للوحي و القرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم .

وأمّا ص فعين تنبع من تحت العرش وهي الّتي توضّأ منها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا عرج به و يدخلها جبرئيل كلّ يوم دخلة فيغتمس فيها ثم يخرج منها فينفض أجنحته فليس من قطرة تقطر من أجنحته إلّا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكا يسبّح الله و يقدّسه و يكبّره ويحمده إلى يوم القيامة .

و أمّا حمٓ فمعناه الحميد المجيد ، و أمّا حمعسق فمعناه الحليم المثيب العالم السميع القادر القويّ ، و أمّا قٓ فهو الجبل المحيط بالأرض و خضرة السماء منه و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها ، و أمّا نٓ فهو نهر في الجنّة قال الله عزّ و جلّ اجمد فجمد فصار مدادا ثمّ قال عزّ وجلّ للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ماكان و ما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور و القلم قلم من نور و اللّوح لوح من نور .

قال سفيان : فقلت له : يابن رسول الله بيّن لي أمر اللّوح و القلم و المداد فضل بيان وعلّمني ممّا علّمك الله فقال : يابن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك ، و اللّوح يؤدّي إلى إسرافيل ، و إسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل ، و ميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . قال : ثمّ قال لي : قم ياسفيان فلا آمن عليك .

اقول : ظاهر ما في الرواية من تفسير غالب الحروف المقطّعة بأسماء الله الحسنى أنّها حروف مأخوذة من الأسماء إمّا من أوّلها كالميم من الملك و المجيد و المقتدر ، و إمّا من بين سائر حروفها كاللاّم من الله و الياء من الوليّ فتكون الحروف المقطّعة إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى ، و قد روي هذا المعنى من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس والربيع بن أنس وغيرهما لكن لايخفى عليك أنّ الرمز في الكلام إنمّا يصار إليه في الإفصاح عن الاُمور الّتي لايريد المتكلّم أن يطّلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه بما لايتعدّاه ومخاطبه ولايقف عليه غيرهما وهذه الأسماء الحسنى قد اُوردت وبيّنت في مواضع كثيرة من كلامه تعالى تصريحا وتلويحا و إجمالا و تفصيلا ولايبقى مع ذلك فائدة في الإشارة إلى كلّ منها بحرف مأخوذ منه رمزاً إليه .

فالوجه - على تقدير صحّة الرواية - أن يحمل على كون هذه الأحرف دالّة على هذه المعاني دلالة غير وضعيّة فتكون رموزا إليها مستورة عنّا مجهولة لنا دالّة على مراتب من هذه المعاني هي أدقّ و أرقى و أرفع من أفهامنا ، و يؤيّد ذلك بعض

التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم في المواضع المختلفة بمعان مختلفة ، و كذا ما ورد أنّها من حروف اسم الله الأعظم .

و قوله : « و أمّا ق فهو الجبل المحيط بالأرض و خضرة السماء منه » الخ روى قريبا منه القمّي في تفسيره ، و هو مرويّ بعدّة من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس و غيره ، و لفظ بعضها جبل من زمرّد محيط بالدنيا عليه كنفا [١] السماء ، و في بعضها أنّه جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض و السماء الدنيا مترفرفة عليها و أنّ هناك سبع أرضين وسبعة أبحروسبعة أجبل و سبع سماوات .

و في بعض ما عن ابن عبّاس : خلق الله جبلا يقال له : ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة الّتي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك العرق الّذي يلي تلك القرية فيزلزلها و يحرّكها فمن ثمّ تحرّك القرية دون القرية .

والروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليّات ، ولولا قوله : « وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها » لأمكن حمل قوله : « وأمّا ق فهو الجبل المحيط بالدنيا وخضرة السماء منه » على إرادة الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل .

و أمّا قوله : إنّ طه و يس من أسماء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمعنى الّذي فسّرا به فينبغي أن يحمل أيضاً على ما قدّمناه و به يفسّر الروايات الكثيرة الواردة من طرق العامّة و الخاصّة في أنّ طه و يس من أسماء النبيّ صلّى الله عليه وآله .

و أمّا قوله في ن أنّه نهر صيّره الله مداداً كتب به القلم بأمره على اللّوح ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة ، و أنّ المداد و القلم و اللّوح من النور ثمّ قوله : إنّ المداد ملك والقلم ملك واللّوح ملك فهو نعم الشاهد على أنّ ماورد في كلامه تعالى من العرش و الكرسيّ و اللّوح والقلم ونظائر ذلك وفسّر بما فسّر به في كلام النبيّ صلّى الله عليه وآله و أئمّة أهل البيت عليهم السلام من باب التمثيل اُريدبه تقريب معارف حقيقيّة هي أعلى و أرفع من سطح الأفهام العامّة بتنزيلها منزلة المحسوس .

وفي المعاني أيضاً بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « الم هوحرف

(١) الكنف بفتحتين الجانب وكنفا السماء جانباه .

من حروف اسم الله الأعظم المقطّع في القرآن الّذي يؤلّفه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والامام فاذا دعا به اُجيب . الحديث.

اقول : كون هذه الحروف المقطّعة من حروف اسم الله الأعظم المقطّع في القرآن مرويّ بعدّة من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس و غيره ، وقد تبيّن في البحث عن الأسماء الحسنى في سورة الأعراف أنّ الاسم الأعظم الّذي له أثره الخاصّ به ليس من قبيل الألفاظ ، و أنّ ماورد ممّا ظاهره أنّه اسم مؤلّف من حروف ملفوظة مصروفٌ عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له .

و فيه باسناده عن محمّد بن زياد و محمّد بن سيّار عن العسكريّ عليه السلام أنّه قال : كذّبت قريش و اليهود بالقرآن وقالوا : سحر مبين تقوّله فقال الله : « الم ذلك الكتاب» أي يا محمّد هذا الكتاب الّذي أنزلناه عليك هو الحروف المقطّعة الّتي منها الف لام ميم وهو بلغتكم و حروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين و استعينوا على ذلك بسائر شهدائكم . الحديث .

اقول : و الحديث من تفسير العسكريّ وهو ضعيف .

و في تفسير القمّي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يتفطّرن من فوقهن » أي يتصدّعن .

و عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « و يستغفرون لمن في الأرض » قال الصادق عليه السّلام : لمن في الأرض من المؤمنين .

اقول : و روى ما في معناه في المجمع عنه عليه السلام ورواه القمّي مضمرا .

☆ ☆ ☆

وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا
وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ
فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذٰلِكُمُ اللهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) .

﴿بيان﴾

فصل ثان من الآيات يعرّف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرّفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفسه .

فبيّن في هذا الفصل أنّ الغرض من الوحي إنذار الناس وخاصّة الإنذار المتعلّق بيوم الجمع الّذي يتفرّق فيه الناس فريقين فريق في الجنّة و فريق في السعير إذ لولا الإنذار بيوم الجمع الّذي فيه الحساب و الجزاء لم تنجح دعوة دينيّة ولم ينفع تبليغ.

ثمّ بيّن أنّ تفرّقهم فريقين هو الّذي شاءه الله سبحانه فعقّبه بتشريع الدين و إنذار الناس يوم الجمع من طريق الوحي لأنّه وليّهم الّذي يحييهم بعدموتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

ثمّ ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبيّة و أنّه تعالى هو الربّ لارب غيره لاختصاصه بصفات الربوبيّة من غير شريك يشاركه في شيء منها .

قوله تعالى : « و كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيّاً لتنذر اُمّ القرى و من حولها » الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق ، و اُمّ القرى هي مكّة المشرّفة والمراد بإنذار اُمّ القرى إنذار أهلها ، و المراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممّن هو خارج مكّة كما يؤيّده توصيف القرآن بالعربيّة .

وذلك أنّ الدعوة النبويّة كانت ذات مراتب في توسّعها فابتدأت الدعوة العلنيّة بدعوة العشيرة الأقربين كما قال : « و أنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء : ٢١٤ ثمّ توسّعت فتعلّقت بالعرب عامّة كما قال : « قرآنا عربيّاً لقوم يعلمون » حم السجدة : ٣ ثمّ بجميع الناس كما قال : « واُنزل إليّ هذا القرآن لاُنذركم به و من بلغ » .

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسّع تدريجا قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر - إلى أن قال - إن هو إلّا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ فإنّ الخطاب على مايعطيه سياق السورة لكفّار قريش يقول سبحانه إنّه ذكر للعالمين لا يختصّ ببعض دون بعض ، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم - كالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم - بعضا عليه أجرا .

على أنّ تعلّق الدعوة بأهل الكتاب و خاصّة باليهود والنصارى من ضروريّات القرآن ، و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسيّ و بلال الحبشيّ وصهيب الروميّ من ضروريّات التاريخ .

وقيل المراد بقوله : «من حولها» سائر الناس من أهل قرى الأرض كلّها ويؤيّده التعبير عن مكّة باُمّ القرى .

و الآية - كما ترى - تعرّف الوحي بغايته الّتي هي إنذار الناس من طريق

الإلقاء الإلهيّ و هو النبوّة فالوحي إلقاء إلهيّ لغرض النبوّة و الإنذار .

قوله تعالى : « و تنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنّة و فريق في السعير» عطف على «تنذر» السابق وهو من عطف الخاصّ على العامّ لأهمّيّته كأنّه قيل : لتنذر الناس و تخوّفهم من الله وخاصّة من سخطه يوم الجمع .

وقوله : « يوم الجمع » مفعول ثان لقوله : « تنذر » وليس بظرف له وهو ظاهر، و يوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس ـ إلى أن قال ـ فريق في الجنّة و فريق في السعير » هود : ١٠٥ .

و قوله : « فريق في الجنّة و فريق في السعير » في مقام التعليل و دفع الدخل كأنّه قيل : لما ذا ينذرهم يوم الجمع ؟ فقيل : « فريق في الجنّة و فريق في السعير » أي إنّهم يتفرّقون فريقين : سعيد مثاب و شقيّ معذّب فلينذروا حتّى يحترزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة .

قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم اُمّة واحدة » إلى آخر الآية لمّا كانت الآيات مسوقة لبيان لزوم الإنذار و النبوّة من جهة تفرّق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم اُمّة واحدة مطلق رفع التفرّق و التميّز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفة واحدة من غير فرق وميز، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوّة والإنذار .

و قوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير» استدراك يبيّن فيه أنّ سنّته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم اُمّة واحدة يدلّ على ذلك قوله : « يدخل من يشاء » الدالّ على الاستمرار ، ولم يقل : و لكن أدخل و نحوه .

و قد قوبل في الآية قوله : « من يشاء » بقوله : « والظالمون» فالمراد بمن يشاء غير الظالمين و قد فسّر الظالمين يوم القيامة بقوله : « فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الّذين يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ فهم المعاندون المنكرون للمعاد .

و قوبل أيضا بين الإدخال في الرحمة و بين نفي الولي والنصير فالمدخلون في رحمته هم الّذين وليّهم الله ، والّذين مالهم من ولي ولانصيرهم الّذين لايدخلهم الله في رحمته ، وأيضا الرحمة هي الجنّة و انتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير .

فمحصّل معنى الآية أنّ الله سبحانه إنّما قدّر النبوّة والانذار المتفرّع على الوحي لمكان ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرّق فريقين ، ليتحرّزوا من الدخول في فريق السعير .

ولو أراد الله لجعلهم اُمّة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرّقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما يقتضي النبوّة والانذار فلم يكن وحي لكنّه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنّته على أن يتولّى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنّة و في رحمته، ولا يتولّى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا لاوليّ لهم ولا نصير و يصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار .

فقد تحصّل ممّا تقدّم أنّ المراد بجعلهم اُمّة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنّة أو إدخال الجميع في السعير أي إنّه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنّة والأشقياء في النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرّق بين الفريقين وجرت سنّته على ذلك و وعد بذلك وهو لايخلف الميعاد و مع ذلك فقدرته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغيّر فقوله : « وتنذر يوم الجمع لاريب فيه» إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود : « إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس » إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبّر .

و قيل : المراد بجعلهم اُمّة واحدة جعلهم مؤمنين جميعا داخلين في الجنّة قال في الكشاف : والمعنى ولو شاء ربّك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الايمان و لكنّه شاء مشيئة حكمة فكلّفهم و بنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته و هم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ، و يترك الظالمين بغير وليّ ولا نصير في عذابه .

و استدلّ على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كلّ نفس

هداها » آلم السجدة : ١٣ و قوله : « ولوشاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعا » يونس : ٩٩ والدليل على أنّ المعنى هو الالجاء إلى الايمان قوله : « أفأنت تكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين » .

و فيه أنّ الآيات ـ كما عرفت ـ مسوقة لتعريف الوحي من حيث غايته و أنّ تفرّق الناس يوم الجمع فريقين سبب يستدعي وجود النبوّة والانذار من طريق الوحي، و قوله : « ولوشاء الله لجعلهم اُمّة واحدة» مسوق لبيان أنّه تعالى ليس بمجبر على ذلك ولا ملزم به بل له أن لا يفعل ، و هذا المعنى يتمّ بمجرّد أن لا يجعلهم متفرّقين فريقين بل اُمّة واحدة كيفما كانوا ، و أمّا كونهم فرقة واحدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضي له هناك .

و أمّا ما استدلّ به من الآيتين فسياقهما غير سياق الآية المبحوث عنها ، والمراد بهما غير الايمان القسري الّذي ذكره و قد تقدّم البحث عنهما في الكتاب .

و قيل : إنّ الأنسب للسياق هو اتّحادهم في الكفر بأن يراد جعلهم اُمّة واحدة كافرة كما في قوله : « كان الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين » البقرة : ٢١٣ فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم اُمّة واحدة متّفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا ينذرهم فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل إلى الكلّ من ينذرهم فيتأثّر به من تأثّر فيوفّقهم الله للايمان و الطاعات في الدنيا ويدخلهم في رحمته في الآخرة ، ولا يتأثّر به الآخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا كافرين و يصيرون في الآخرة إلى السعير من غير وليّ ولا نصير .

و فيه أوّلا أنّ المراد من كون الناس اُمّة واحدة في الآية المقيس عليها ليس هو اتّفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الاُمور الراجعة إلى المعاش كما تقدّم في تفسير الآية ، ولو سلّم ذلك أدّى إلى التنافي البيّن بين المقيسة و المقيس عليها لدلالة المقيسة على التفرّق و عدم الاتّحاد و دلالة المقيس عليها على ثبوت الاتّحاد و عدم التفرّق .

ولو اُجيب عنه بأنّ المقيس عليها تدلّ على كون الناس اُمّة واحدة بحسب

الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الآيتين . ردّ بمنافاته لما دلّ من الآيات على كون الإنسان مؤمنا بحسب الفطرة الأصلية كقوله تعالى « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها» الشمس : ٨ .

و ثانيا أنّ فيه إخراجا لقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته » عن المقابلة مع قوله : « والظالمون » الخ من غير دليل ، ثمّ تكلّف تقدير ما يفيد معناه ليحفظ به ما يفيده الكلام من المقابلة .

قوله تعالى : «أم اتّخذوا من دونه أولياء فالله هو الوليّ - إلى قوله - فحكمه إلى الله» « أم » تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري . لمّا أفاد في الآية السابقة أنّ الله سبحانه يتولّى أمر المؤمنين خاصّة فيدخلهم في رحمته و أنّ الظالمين و هم الكافرون المعاندون لا وليّ لهم تعرّض في هذه الآية لاتّخاذهم أولياء يدينون لهم و يعبدونهم من دونه و كان يجب أن يتّخذوا الله وليّا يدينون له و يعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتجّ على وجوب اتّخاذه وليّا بالحجّة بعد الحجّة و ذلك قوله : « فالله هو الوليّ » الخ .

فقوله : « فالله هو الوليّ » تعليل للإنكار السابق لاتّخاذهم من دونه أولياء فيكون حجّة لوجوب اتّخاذه وليّا ، و الجملة - فالله هو الوليّ - تفيد حصر الولاية في الله وقد تبيّنت الحجّة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة: « العزيز الحكيم له ما في السماوات و ما في الأرض وهو العليّ العظيم » كما أشرنا إليه في تفسير الآيات .

و المعنى أنّه تعالى وليّ ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتّخذ وليّا أن يتّخذه وليّاً ولا يتعدّاه إلى غيره إذ لا وليّ غيره .

وقوله : « وهو يحيي الموتى » حجّة ثانية على وجوب اتّخاذه تعالى وحده وليّا، و محصّله أنّ عمدة الغرض في اتّخاذ الوليّ والتديّن له بعبوديّته التخلّص من عذاب السعير و الفوز بالجنّة يوم القيامة و المثيب و المعاقب يوم القيامة هو الله الّذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الّذي يجب أن يتّخذ وليّا دون أوليائهم الّذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيّان يبعثون .

و قوله : « و هو على كلّ شيء قدير » حجّة ثالثة على وجوب اتّخاذه تعالى وليّاً دون غيره ، و محصّله أنّ من الواجب في باب الولاية أن يكون للوليّ قدرة على مايتولاّه من شؤن من يتولاّه و اُموره ، والله سبحانه على كلّ شيء قدير ولاقدرة لغيره إلّا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لماملّكه والقادر على ماعليه أقدره فهو الوليّ لا وليّ غيره تعالى و تقدّس .

و قوله : « و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » حجّة رابعة على كونه تعالى وليّاً لاوليّ غيره ، و حكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه و تثبيته الحقّ المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالا ثبات و النفي ، و الاختلاف ربّما كان في عقيدة كالاختلاف في أنّ الاله واحد أوكثير ، وربّما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في اُمور المعيشة و شؤن الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً و إن اختلفا مفهوماً .

ثمّ الحكم و القضاء إنّما يتمّ إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولاية و إن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتّخذاه حكماً ليحكم بينهما ويتسلّما مايحكم به فقد ملّكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسهما القبول والتسليم فهو وليّهما في ذلك .

والله سبحانه هو المالك لكلّ شيء لامالك سواه لكون كلّ شيء بوجوده وآثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم والقضاء بالحقّ قال تعالى : «كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم و إليه ترجعون » القصص : ٨٨ ، وقال : «إنّ الله يحكم مايريد » المائدة :٢ و قال : « الحقّ من ربّك » آل عمران : ١٤٧ .

وحكمه تعالى إمّا تكوينيّ وهو تحقيقه وتثبيته المسبّبات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم مانسمّيه سبباً تامّاً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب عليه السلام : « إن الحكم إلّا لله عليه توكّلت » يوسف : ٦٧ و إمّا تشريعيّ كالتكاليف الموضوعة في الدين الا لهيّ الراجعة إلى الاعتقاد و العمل قال تعالى : « إن الحكم إلّا لله أمر أن لاتعبدوا إلّا إيّاه ذلك الدين القيّم » يوسف : ٤٠ .

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعدّ من كلّ من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه و إظهاره الحقّ يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان و إيقان فيسعد به و بآثاره من كان مع الحقّ ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة ١١٣ .

ثمّ إنّ اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعيّ لا يرفعه إلّا الأحكام و القوانين التشريعيّة و لولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى « كان الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الّذين اُوتوه من بعد ماجاءتهم البيّنات بغيا بينهم فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه » البقرة : ٢١٣ ، وقد تبيّن أنّ الحكم التشريعيّ لله سبحانه فهو الوليّ في ذلك فيجب أن يتّخذ وحده وليّاً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين .

وهذا معنى قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » ومحصّل الحجّة أنّ الوليّ الّذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولّونه مصلحاً لمافسد من شؤن مجتمعهم سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم و هو الدين ، و الحكم في ذلك إلى الله سبحانه ، فهو الوليّ الّذي يجب أن يتّخذ وليّاً لا غير .

و للقوم في تفسير الآية أعني قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله» تفاسير اُخر فقيل : هو حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين أي ماخالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من اُمور الدين فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى الله وهو إثابة المحقّين فيه من المؤمنين و معاقبة المبطلين ذكره صاحب الكشاف .

و قيل : معناه ما اختلفتم فيه و تنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولاتؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى : «فان تنازعتم

في شيء فردّوه إلى الله والرسول ».

و قيل : المعنى وما اختلفتم فيه من تأويل آية و اشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

و قيل : المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم ممّا لا يتّصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي » . والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبيّ صلى الله عليه وآله إمّا بنحو الحكاية وإما بتقدير « قل » في أوّلها .

وأنت بالتدبّر في سياق الآيات ثمّ الرجوع إلى ما تقدّم لا ترتاب في سقوط هذه الأقوال .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربّي عليه توكّلت وإليه اُنيب » كلام محكيّ للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، و الإشارة بذلكم إلى من اُقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتّخاذه وليّاً وهو الله سبحانه ، ولازم ولايته ربوبيّته .

لمّا اُقيمت الحجج على أنّه تعالى هو الوليّ لا وليّ غيره اُمر صلى الله عليه وآله بإعلام أنّه الله و أنّه اتّخذه وليّاً بالاعتراف له بالربوبيّة الّتي هي ملك التدبير ثمّ عقّب ذلك بالتصريح بما للاتّخاذ المذكور من الآثار وهو قوله : « عليه توكّلت وإليه اُنيب » .

وذلك أنّ ولاية الربوبيّة تتعلّق بنظام التكوين بتدبير الاُمور وتنظيم الأسباب والمسبّبات بحيث يتعيّن بها للمخلوق المدبّر كالإنسان مثلا ما قدّر له من الوجود و البقاء ، و تتعلّق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين و أحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته .

ولازم اتّخاذه تعالى ربّاً وليّاً من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهريّة و الركون إليه من حيث إنّه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كلّ سبب و هذا هو التوكّل ، ومن جهة التشريع الرجوع إلى حكمه في كلّ واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإنابة فقوله : « عليه توكّلت وإليه اُنيب » أي أرجع في جميع اُموري ، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويناً و تشريعاً .

قوله تعالى : « فاطر السماوات والأرض » إلى آخر الآية لمّا صرّح بأنّه تعالى هو ربّه لقيام الحجج على أنّه هو الوليّ وحده عقّب ذلك بإقامة الحجّة في هذه الآية والّتي بعدها على ربوبيّته تعالى وحده .

ومحصّل الحجّة أنّه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجا فكثّركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثّرها بذلك لتنتفعوا بها ، وهذا خلق وتدبير ، وهو سميع لما يسأله خلقه من الحوائج فيقضي لكلّ ما يستحقّه من الحاجة بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الّذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض الّتي ادّخر فيها مالها من خواصّ وجودها وآثاره ممّا يتألّف منها بظهورها النظام المشهود و هو الّذي يرزق المرزوقين فيوسّع في رزقهم و يضيّق عن علم منه بذلك . وهذا كلّه من التدبير فهو الربّ المدبّر للأمور .

فقوله : « فاطر السماوات و الأرض » أي موجدها من كتم العدم على سبيل الإبداع .

و قوله : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » وذلك بخلق الذكر والأنثى اللّذين يتمّ بتزاوجهما أمر التوالد و التناسل و تكثّر الأفراد « ومن الأنعام أزواجاً » أي و جعل من الأنعام أزواجاً « يذرؤكم فيه » أي يكثّركم في هذا الجعل ، و الخطاب في « يذرؤكم » للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشريّ .

و قوله : « ليس كمثله شيء » أي ليس مثله شيء ، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب .

و قوله : « وهو السميع البصير » أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض » الرحمان : ٢٩ ، و قال : « و آتاكم من كلّ ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ ، و قال « و الله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ .

قوله تعالى : « له مقاليد السماوات والأرض » إلى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات و الأرض دلالة على أنّها خزائن لما يظهر في الكون من

الحوادث والآثار الوجوديّة .

وقوله : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » بسط الرزق توسعته و قدره تضييقه والرزق كلّ ما يمدّ به البقاء و يرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره .

و تذييل الكلام بقوله : « إنّه بكلّ شيء عليم » للإشارة إلى أنّ الرزق و اختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلا بل عن علم منه تعالى بكلّ شيء فرزق كلّ مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق بحسب حاله و ما يحفّ بهما من الأوضاع والأحوال الخارجيّة ، و هذا هو الحكمة فهو يبسط و يقدر بالحكمة .

☆ ☆ ☆

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات يعرّف الوحي الإلهي بأثره الّذي هو مفاده و ما احتوى عليه من المضمون و هو الدين الإلهي الواحد الّذي يجب على الناس أن يتّخذوه سنّة في الحياة و طريقة مسلوكة إلى سعادتهم .

وقد بيّن فيها بحسب مناسبة المقام أنّ الشريعة المحمّديّة أجمع الشرائع المنزلة وأنّ الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي وإنّما هي من بغي الناس بعد علمهم ، و في الآيات فوائد اُخر اُشير إليها في خلالها .

قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا و ما أوحينا إليك و ما وصّينا به إبراهيم و موسى وعيسى » يقال : شرع الطريق شرعا أي سوّاه طريقا واضحا بيّنا . قال الراغب : الوصيّة التقدّم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم:أرض واصية متّصلة النبات و يقال : أوصاه و وصّاه انتهى و في معناه إشعار بالأهميّة فما كلّ أمر يوصى به و إنّما يختار لذلك ما يهتمّ به الموصي و يعتني بشأنه .

فقوله : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا » أي بيّن و أوضح لكم من الدين و هو سنّة الحياة ما قدّم و عهد إلى نوح مهتمّا به ، و اللّائح من السياق أنّ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله و اُمّته ، وأنّ المراد ممّا وصّى به نوحا شريعة نوح عليه السّلام .

و قوله : « و ما أوحينا إليك » ظاهر المقابلة بينه و بين نوح عليهما السلام أنّ المراد بما أوحى إليه ما اختصّت به شريعته من المعارف والأحكام ، و إنّما عبّر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأنّ التوصية كما تقدّم إنّما تتعلّق من الاُمور بما يهتمّ به و يعتنى بشأنه خاصّة و هو أهمّ العقائد والأعمال ، و شريعته صلى الله عليه وآله جامعة لكلّ ماجلّ ودقّ محتوية على الأهمّ و غيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهمّ المناسب لحال اُممهم والموافق لمبلغ استعدادهم .

والالتفات في قوله : « و ما أوحينا » من الغيبة إلى التكلّم مع الغير للدلالة على العظمة فإنّ العظماء يتكلّمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم .

وقوله : « وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى » عطف على قوله : « و ماوصّى به » والمراد به ما شرع لكلّ واحد منهم عليهم السلام .

والترتيب الّذي بينهم عليهم السلام في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى عليه السلام ، و إنّما قدّم ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى : « و إذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى بن مريم» الأحزاب :٧ و إنّما قدّم نوحاوبدء به للدلالة على قدم هذه الشريعة و طول عهدها .

و يستفاد من الآية اُمور :

أحدها أنّ السياق بما أنّه يفيد الامتنان وخاصّة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أنّ الشريعة المحمّديّة جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى : « لكلّ جعلنا منكم شرعة و منهاجا » المائدة : ٤٨ لأنّ كون الشريعة شريعة خاصّة لا ينافي جامعيّتها .

الثاني أنّ الشرائع الإلهيّة المنتسبة إلى الوحي إنّما هي شريعة نوح وإبراهيم و موسى و عيسى و محمّد عليهم السلام إذ لو كان هناك لذكر قضاء لحقّ الجامعيّة المذكورة .

ولازم ذلك أوّلا أن لاشريعة قبل نوح عليه السلام بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الإنسانيّ الرافعة للاختلافات الاجتماعيّة و قد تقدّم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « كان الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين » الآية البقرة : ٢١٣ .

و ثانياً أنّ الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى و هكذا .

الثالث أنّ الأنبياء أصحاب الشرائع واُولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لوكان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدلّ على تقدّمهم أيضا قوله: « و إذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك و من نوح و إبراهيم و موسى وعيسى بن مريم » الأحزاب : ٧ .

و قوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا » أن تفسيريّة ، وإقامة الدين حفظه بالاتّباع والعمل ، واللّام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم ، و عدم التفرّق فيه حفظ وحدته بالاتّفاق عليه وعدم الاختلاف فيه .

لمّا كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعا باتّباعه والعمل به من غير اختلاف فسّره بالأمر بإقامة الدين و عدم التفرّق فيه فكان محصّله أنّ عليهم جميعا إقامة الدين جميعا و عدم التفرّق والتشتّت فيه بإقامة بعض و ترك بعض ، و إقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به .

فجميع الشرائع الّتي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرّق

فيه فأمّا الأحكام السماويّة المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأمّا الأحكام المشرّعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنّه حكم ذو أمد خاصّ بطائفة من الناس في زمن خاصّ و معنى نسخه تبيّن انتهاء أمده لاظهور بطلانه قال تعالى: «والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل» الأحزاب: ٤ فالحكم المنسوخ حقّ دائما غير أنّه خاصّ بطائفة خاصّة في زمن خاصّ يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرّق فيه .

فتبيّن أنّ الأمر بإقامة الدين وعدم التفرّق فيه في قوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان .

و بذلك يظهر فساد قول جمع إنّ الأمر بالإقامة و عدم التفرّق إنّما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصّة فإنّها أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الاُمم من حيث أحوالها و مصالحها .

و ذلك أنّه لاموجب لتقييد إطلاق قوله : « أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصّاً باُصول الدين الثلاثة : التوحيد والنبوّة والمعاد ، و أمّا غيرها من الأحكام الفرعيّة فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصيّاته بين جميع الشرائع وهذا ممّا يأباه قطعاً سياق قوله : « شرع لكم من الدين ما وصّى به » الخ ، ومثل قوله : « وإنّ هذه اُمّتكم اُمّة واحدة و أنا ربّكم فاتّقون فتقطّعوا أمرهم بينهم زبرا » المؤمنون : ٥٣ ، و قوله : « إنّ الدين عند الله الإسلام و ما اختلف الذين اُوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » آل عمران : ١٩ .

و قوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » المراد بقوله : « تدعوهم إليه » دين التوحيد الّذي كان يدعوا إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لا أصل التوحيد فحسب على ماتشهد به الآية التالية ، والمراد بكبره على المشركين تحرّجهم من قبوله .

و قوله : « الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب » الاجتباء هو الجمع

والاجتلاب ، و مقتضى اتّساق الضمائر أن يكون ضمير « إليه » الثاني والثالث راجعاً إلى مايرجع إليه الأوّل والمعنى الله يجمع ويجتلب إلى دين التوحيد ـ و هو ما تدعوهم إليه ـ من يشاء من عباده و يهدي إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء » في معنى قوله : هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم » الحج : ٧٨ .

و قيل : الضميران لله تعالى ، ولا بأس به لكن ما تقدّم هوالأنسب ، و على أيّ حال قوله : «الله يجتبي إليه » إلى آخر الآية موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى : « فإن استكبروا فالّذين عند ربّك يسبّحون له باللّيل والنهار و هم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

و قيل : المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به و هو الرسالة أيّ إنّ رسالتك كبرت عليهم ، وقوله : « الله يجتبي » الخ في معنى قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » الانعام : ١٢٤ ، و هو خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « و ما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » إلى آخر الآية ضمير « تفرّقوا » للناس المفهوم من السياق ، والبغي الظلم أو الحسد ، و تقييده بقوله« بينهم » للدلالة على تداوله ، والمعنى وما تفرّق الناس الّذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم و تركهم الاتّفاق إلّا حال كون تفرّقهم آخذاً ـ أو ناشئاً ـ من بعد ماجاءهم العلم بما هو الحقّ ظلماً أوحسداً تداولوه بينهم .

و هذا هو الاختلاف في الدين المؤدّي إلى الانشعابات والتحزّبات الّذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي ، وأمّا الاختلاف المؤدّي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤن الحياة والتفرّق في اُمور المعاش فهوأمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم و هو الذريعة إلى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير إليه قوله : « كان الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين » البقرة : ٢١٣ كما تقدّم في تفسير الآية .

و قوله : « و لو لا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم » المراد

بالكلمة مثل قوله حين إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض : « و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

والمعنى و لو لا أنّ الله قضى فيهم الاستقرار والتمتّع في الأرض إلى أجل سمّاه و عيّنه لقضى بينهم إثر تفرّقهم في دينه و انحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم .

و قول القائل : إنّ الله قد قضى و أهلك كما يقصّه في قصص نوح و هود وصالح عليهم السّلام وقد قال تعالى : « و لكلّ اُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط » يونس : ٤٧ .

مدفوع بأنّ ما قصّه تعالى من القضاء والإهلاك إنّما هو في اُمم الأنبياء في زمانهم من المكذّبين الرادّين عليهم و ما نحن فيه من قوله : « ولو لا كلمة سبقت من ربّك » الآية في اُممهم بعدهم وهو واضح من السياق .

و قوله : « و إنّ الّذين اُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكّ منه مريب » ضمير « من بعدهم » لاُولئك الّذين تفرّقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف ، و الّذين اُورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أنّ البادئين بالاختلاف المؤسّسين للتفرقة كانوا على علم من الحقّ و إنّما أبدعوا ما أبدعوا ، بغيا بينهم ، وأخلافهم الّذين اُورثوا الكتاب من بعدهم في شكّ مريب ـ موقع في الريب ـ منه .

و ما أوردناه في معنى الآية هو الّذي يعطيه السياق ، و لهم في تفسيرها أقاويل كثيرة لاجدوى في استقصائها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم .

قوله تعالى : « فلذلك فادع و استقم كما اُمرت ولا تتّبع أهواءهم » إلى آخر الآية . تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و اُممهم ثمّ انقسام اُممهم إلى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغيا ، و إلى أخلاف شاكّين مرتابين فيما اُورثوه من الكتاب أي فلأجل أنّه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لأجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين فاستقم كما اُمرت ولاتتّبع أهواءهم .

و اللاّم في قوله : « فلذلك » للتعليل وقيل : اللاّم بمعنى إلى أي إلى ما شرع

لكم من الدين فادع واستقم كما اُمرت ، والاستقامة ـ كما ذكره الراغب ـ لزوم المنهاج المستقيم ، وقوله : « ولا تتّبع أهواءهم » كالمفسّر له .

و قوله : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب السماويّة من حيث تصديقها و الايمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع .

و قوله : « و اُمرت لأعدل بينكم » قيل : اللاّم زائدة للتأكيد نظير قوله : « و اُمرنا لنسلم لربّ العالمين » الأنعام: ٧١ و المعنى و اُمرت أن أعدل بينكم أي اُسوّي بينكم فلا اُقدّم قويّاً على ضعيف ولا غنيّاً على فقير ولا كبيراً على صغير ، ولا اُفضّل أبيض على أسود ولا عربيّاً على عجميّ ولا هاشميّاً أو قرشيّاً على غيره فالدعوة متوجّهة إلى الجميع ، والنّاس قبال الشرع الالهي سواء .

فقوله : « آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الايمان بها ، و قوله : « واُمرت لأعدل بينكم » تسوية بين الناس من حيث الدعوة و توجّه ما جاء به من الشرع .

و قيل : اللاّم في « لأعدل بينكم » للتعليل والمعنى واُمرت بما اُمرت لأجل أن أعدل بينكم ، وكذا قيل : المراد بالعدل العدل في الحكم ، و قيل : العدل في القضاء بينكم ، وقيل غير ذلك ؛ وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق .

وقوله : « الله ربّنا وربّكم » الخ في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الايمان بها و بين الناس في دعوتهم و شمول الأحكام لهم ، و لذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف .

فقوله : « الله ربّنا و ربّكم » يشير إلى أنّ ربّ الكلّ هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتّى يلحق كلّ بربّه ويتفاضلوا بالأرباب و يقتصر كلّ منهم بالايمان بشريعة ربّه بل الله هو ربّ الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبّرون بأمره و الشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للايمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمّد صلّى الله عليه وآله بل الواجب الايمان بكلّ كتاب نازل من عنده لأنّها جميعاً من عنده .

و قوله : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » يشير إلى أنّ الأعمال و إن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيّئة ومن حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلّا أنّها لا تتعدّى عاملها فلكلّ امرء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرّر بعمل غيره فليس له أن يقدّم امرء للانتفاع بعمله أو يؤخّر امرء للتضرّر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكنّ ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس ـ النبيّ فمن دونه ـ الّذين هم جميعا عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيأ ، و هذا هو الّذي ذكره تعالى في محاورة نوح عليه السلام قومه : « قالوا أنومن لك واتّبعك الأرذلون قال و ماعلمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون » الشعراء : ١١٣ ، و كذا قوله يخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله : « ما عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء » الأنعام : ٥٢ .

و قوله : « لا حجّة بيننا و بينكم » لعلّ المراد أنّه لا حجّة تدلّ على تقدّم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض علي بعض يثبت بها تقدّمه عليه .

ويمكن أن يكون نفي الحجّة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لاخصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأنّ ربّنا واحد و نحن في أنّنا جميعا عباده واحد ولكلّ نفس ما عملت فلا حجّة في البين أي لا خصومة حتّى تتّخذ لها حجّة .

و من هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة : أي لا احتجاج ولا خصومة لأنّ الحقّ قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد انتهى إذ الكلام مسوق لبيان ما اُمر به النبيّ صلى الله عليه و آله في نفسه و في اُمّته من سنّة التسوية لا لإثبات شيء من اُصول المعارف حتّى تحمل الحجّة على ما حملها عليه .

و قوله : « الله يجمع بيننا » المراد بضمير التكلّم فيه مجموع المتكلّم و المخاطب في الجمل السابقة ، و المراد بالجمع جمعه تعالى إيّاهم يوم القيامة للحساب و الجزاء على ما قيل .

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبيّة فهورب الجميع والجميع عباده فيكون قوله : « الله يجمع بيننا » تأكيداً لقوله السابق : « الله ربّنا و ربّكم » و توطئة و تمهيدا لقوله : « وإليه المصير » ويكون مفاد الجملتين أنّ الله هومبدؤنالأنّه ربّنا جميعاً و إليه منتهانا لأنّه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلّا هو عزّ اسمه .

و كان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال : الله ربّي و ربّكم لي عملي و لكم أعمالكم لاحجّة بيني و بينكم على محاذاة قوله : « آمنت » « و اُمرت لأعدل » لكن عدل عن المتكلّم وحده إلى المتكلّم مع الغير لدلالة قوله السابق : «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا » الخ و قوله : « الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب » أنّ هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبيّ صلى الله عليه و آله ويلبّون دعوته ويتّبعون شريعته .

فالمراد بالمتكلّم مع الغير في « ربّنا » و « لنا أعمالنا » و « بيننا » هو صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنون به ، و بالمخاطبين في قوله : « وربّكم » و «أعمالكم » و« بينكم » سائرالناس من أهل الكتاب والمشركين ، والآية على وزان قوله تعالى : « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » آل عمران : ٦٤ .

قوله تعالى : « و الّذين يحاجّون في الله من بعد مااستجيب له حجّتهم داحضة عند ربّهم و عليهم غضب ولهم عذاب شديد » الحجّة هي القول الّذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحجّ بمعنى القصد ، والدحض البطلان والزوال .

والمعنى - على ما قيل - والّذين يحاجّون في الله أي يحتجّون على نفي ربوبيّته أو على إبطال دينه من بعدما استجاب النّاس له ودخلوا في دينه لظهور الحجّة و وضوح الحجّة حجّتهم باطلة زائلة عند ربّهم و عليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد .

والظاهر أنّ المراد بالاستجابة له ما هو حقّ الاستجابة و هو التلقّي بالقبول عن علم لايداخله شكّ تضطرّ إليه الفطرة الإنسانيّة السليمة فإنّ الدين بما فيه من المعارف فطريّ تصدّقه وتستجيب له الفطرة الحيّة قال تعالى : « إنّما يستجيب الذين

يسمعون والموتى يبعثهم الله » الأنعام :٣٦ ، وقال : « ونفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ ، و قال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » الروم : ٣٠ .

و محصّل الآية على هذا أنّ الّذين يحاجّون فيه تعالى أوفي دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجّتهم باطلة زائلة عند ربّهم و عليهم غضب منه و لهم عذاب شديد لا يقادر قدره .

و يؤيّد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أنّ الله شرع دينا و وصّى به أنبياءه واجتبى إليه من شاء من عباده فالمحاجّة في أنّ لله دينا يستعبد به عباده داحضة و من الممكن حينئذ أن يكون قوله : «الله الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان » في مقام التعليل و حجّة مدحضة لحجّتهم فتدبّر فيه .

و قيل : ضمير « له » للرسول صلّى الله عليه وآله ، والمستجيب أهل الكتاب ، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه و نعوته في كتبهم والمراد أنّ محاجّتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجّتهم باطلة عند ربّهم .

وقيل : الضمير له صلّى الله عليه وآله والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صناديد قريش فقتلهم يوم بدر ، و دعاءه على أهل مكّة فابتلاهم بالقحط والسنة ، ودعاءه على المستضعفين حتّى خلّصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته ، والمعنيان بعيدان من السياق .

﴿ بحث روائى ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى : « والّذين يحاجّون في الله » الآية عن ابن عبّاس و مجاهد : نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت بردّ الناس عن الإسلام و إضلالهم فقالوا : كتابنا قبل كتابكم و نبيّنا قبل نبيّكم فديننا أفضل من دينكم وفي رواية بدل « فديننا » الخ فنحن أولى بالله منكم .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لمّا نزلت إذا جاء نصرالله والفتح قال المشركون بمكّة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت : « والّذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له » الآية .

اقول : مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا محاجّة في القصّة ، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله : « من بعد ما استجيب له » .

☆ ☆ ☆

الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان و ما يدريك لعل الساعة
قريب (١٧) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون
منها و يعلمون أنها الحق الا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال
بعيد (١٨) الله لطيف بعباده يرزق من يشاء و هو القوى العزيز(١٩)
من كان يريد حرث الاخرة نزد له فى حرثه و من كان يريد حرث الدنيا
نؤته منها و ماله فى الآخرة من نصيب (٢٠) أم لهم شركؤا شرعوا
لهم من الدين ما لم يأذن به الله و لولا كلمة الفصل لقضى بينهم و ان
الظالمين لهم عذاب أليم (٢١) ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو
واقع بهم والذين آمنوا و عملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم
ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير (٢٢) ذلك الذى يبشر الله
عباده الذين آمنوا و عملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً الا
المودة فى القربى و من يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ان الله غفور
شكور (٢٣) أم يقولون افترى على الله كذباً فان يشا الله يختم على
قلبك و يمح الله الباطل و يحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور
(٢٤) و هو الذى يقبل التوبة عن عباده و يعفوا عن السيئات و يعلم
ما تفعلون (٢٥) و يستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم
من فضله والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦).

﴿بيان﴾

فصل رابع من الآيات يعرّف الوحي الإلهي بأنّ الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس وميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بذلك يوم القيامة ، والجزاء الحسن من الرزق ثمّ يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب والعقاب ، وفيها آية المودّة في القربي و ما يلحق بذلك .

قوله تعالى : « الله الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان » الخ كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه وآثاره « كذلك يوحي إليك» « وكذلك أوحينا إليك » « شرع لكم من الدين » وقد غيّر السياق في مفتتح هذا الفصل فجيىء بالجملة الاسميّة المتضمّنة لتوصيفه تعالى با نزال الكتاب والميزان « الله الّذي أنزل الكتاب » الخ و لازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به .

و لعلّ الوجه فيه ما تقدّم في الآية السابقة من ذكر المحاجّة في الله « والّذين يحاجّون في الله » فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجّين فيه بأنّه الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان ، و لازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت .

و كيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشريّ ، و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس اُمّة واحدة » الآية البقرة : ٢١٣ أنّ هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب ، و كون إنزاله بالحقّ نزوله مصاحبا للحقّ لا يخالطه اختلاف شيطانيّ ولا نفسانيّ .

والميزان ما يوزن و يقدّر به الأشياء ، و المراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه و يجزى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين باُصوله وفروعه ، و يؤيّده قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان » الحديد : ٢٥، على ماهو ظاهر قوله : « معهم » .

وقيل : المراد به العدل وسمّي العدل ميزانا لأنّ الميزان آلة الا نصاف والتسوية

بين الناس والعدل كذلك وا ُيّد بسبق ذكر العدل في قوله : « و اُمرت لأعدل بينكم » .
و فيه أنّه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ ، و قد تقدّم أنّ المراد بالعدل في « لأعدل » هو التسوية بين الناس في التبليغ و في جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي .

و قيل : المراد به الميزان المعروف المقدّر للأثقال . و هو كما ترى .

و قيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وآله ويمكن إرجاعه إلى ما قدّمناه من الوجه لأنّ النبيّ مصداق كامل و مثل أعلى للدين بأُصوله و فروعه ولكلّ فرد من اُمّته من الزنة الدينية قدر ما يشابهه و يماثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدّم نقله آنفا من آية سورة الحديد كثير ملاءمة .

و قوله : « و ما يدريك لعلّ الساعة قريب » لمّا كان الميزان المشعر بالحساب و الجزاء يومي إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه و إنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال والتبشير بما اُعدّ فيه للصالحين .

والإدراء الإعلام ، والمراد بالساعة ـ على ما قيل ـ إتيانها ولذاجيىء بالخبر مذكّراً، والمعنى ما الّذي يعلمك لعلّ إتيان الساعة قريب والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعنوان أنّه سامع فيشمل كلّ من له أن يسمع و يعمّ الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : « يستعجل بها الّذين لا يؤمنون بها والّذين آمنوا مشفقون منها » الخ المراد استعجالهم استعجال سخريّة و استهزاء و قد تكرّر في القرآن نقل قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والإشفاق نوع من الخوف قال الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى : « و هم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، و إذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى : « إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » « مشفقون منها » انتهى .

و قوله : « ألا إنّ الّذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » المماراة الإصرار على الجدال ، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال ، وإنّما كانوا في ضلال بعيد لأنّهم أخطؤا طريق الحياة الّتي إصابتها أهمّ ما يتصوّر للإنسان فتوهّموها حياة مقطوعة فانية

انكبّوا فيها على شهوات الدنيا وإنّما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزوّدوا من دنياهم لاُخراهم لكنّهم ضلّوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغيّ.

قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء و هو القويّ العزيز » في معنى اللطف شيء من الرفق و سهولة الفعل و شيء من الدقّة في ما يقع عليه الفعل فإذا تمّ الرفق والدقّة و كان الفاعل يفعل برفق و سهولة و يقع فعله على الاُمور الدقيقة كان لطيفا كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق و سهولة المماسّ لدقائق أجزائها الباطنة. و إذا اُلقيت الخصوصيات المادّية عن هذا المعنى صحّ أن يتّصف به الله سبحانه فإنّه تعالى ينال دقائق الاُمور بإحاطته و علمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

و قد رتّب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفا بعباده قويّاً عزيزا دلالة على أنّه تعالى بلطفه لايغيب عنه أحد ممّن يشاء أن يرزق ولا يعصيه و بقوّته عليه لا يعجز عنه و بعزّته لا يمنعه مانع عنه.

والمراد بالرزق ما يعمّ موهبة الدين الّذي يتلبّس بها من يشاء من عباده على مايشهد به الآية التالية ، ولذا اُلحق القول فيه بقوله : « الله الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان ».

قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » الخ الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال الّتي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كأنّ الأعمال الصالحة بذور و ما تنتجه في الآخرة حرث.

والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقال : « والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١.

و قوله : « و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ماله في الآخرة من نصيب» أي و من كان يريد النتائج الدنيويّة بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا و ماله في الآخرة نصيب و في التعبير بإرادة الحرث إشاره إلى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « و أن ليس للإنسان إلّا ماسعى » النجم : ٣٩.

و قد اُبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال : « نؤته منها » إشارة إلى أنّ الأمر إلى المشيّة الإلهيّة فربّما بسطت الرزق و ربّما قدرت كما قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد» أسرى : ١٨ .

والالتفات من الغيبة إلى التكلّم بالغير في قوله : « نزدله » و« نؤته منها » للدلالة على العظمة الّتي يشعر بها قوله : « و هو القويّ العزيز » .

والمحصّل من معنى الآيتين أنّ الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوّة مطلقة و عزّة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيّته و قد شاء في من أراد الآخرة و عمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه ، و فيمن أراد الدنيا وعمل لها فحسب أن يؤتيه منها و ماله في الآخرة من نصيب .

و يظهر من ذلك أنّ الآية الاُولى عامّة تشمل الفريقين ، والمراد بالعباد ما يعمّ أهل الدنيا والآخرة ، وكذا الرزق وأنّ الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله : « يرزق من يشاء » من الإجمال .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » إلى آخر الآية لمّا بيّن أنّ الله سبحانه هو الّذي أنزل الكتاب بالحقّ و شرع لهم الدين الّذي هو ميزان أعمالهم وأنّه بلطفه وقوّته وعزّته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ماأراده منها و يزيد ، و أنّ من أراد الدنيا و نسي الآخرة لا نصيب له فيها سجّل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لادين غير ماشرعه الله يدين به هؤلاء حتّى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لاشريك لله حتّى يشرع ديناغير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلّا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلّا من آمن بها و عمل لها .

فقوله : « أم لهم شركاء » الخ في مقام الإنكار ، و قوله : « و لو لا كلمة الفصل لقضي بينهم » إشارة إلى الكلمة الّتي سبقت منه تعالى أنّهم يعيشون في الأرض إلى أجل مسمّى ، و فيه إكبار لجرمهم و معصيتهم .

و قوله : « و إنّ الظالمين لهم عذاب أليم » وعيد لهم على ظلمهم ، و إشارة إلى

أنّهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعذّبهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم .

قوله تعالى : « ترى الظالمين مشفقين ممّا كسبوا و هو واقع بهم » الخ الخطاب للنبيّ ﷺ بعنوان أنّه سامع فيشمل كلّ مَن مِن شأنه أن يرى ، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الّذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة ، والمعنى يرى الراؤن هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين ممّا كسبوا من السيّئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه .

والآية من الآيات الظاهرة في تجسّم الأعمال، وقيل: في الكلام مضاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ماكسبوا . ولا حاجة إليه .

و قوله : « والّذين آمنوا و عملوا الصالحات في روضات الجنّات » في المجمع : إنّ الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنّة الأرض الّتي تحفّها الشجر فروضات الجنّات الحدائق المشجّرة المخضرّة متونها .

و قوله : « لهم فيها ما يشاؤن عند ربّهم » أي إنّ نظام الأسباب مطويّ فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاؤن ذلك هو الفضل الكبير .

و قوله : « ذلك الّذي يبشّر الله عباده الّذين آمنوا و عملوا الصالحات » تبشير للمؤمنين الصالحين ، وإضافة العباد تشريفيّة .

قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » الّذي نفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينيّة ، و قد حكى الله ذلك عن عدّة ممّن قبله ﷺ من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكي ممّا يخاطب كلّ منهم اُمّته : « و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربّ العالمين » الشعراء و غيرها .

و قد حكى عن النبيّ ﷺ ذلك إذ قال : و ما تسألهم عليه من أجر » يوسف : ١٠٤ و قد أمره النبيّ ﷺ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال : «قل ما أسألكم عليه من أجر » صٓ : ٨٦ وقال : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري

إلّا على الله » سبأ : ٤٧ ، و قال : « قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلّا ذكرى للعالمين» الأنعام : ٩٠ فأشار إلى وجه النفي وهو أنّه ذكرى للعالمين لا يختصّ ببعض دون بعض حتّى يتّخذ عليه الأجر .

و قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا » الفرقان : ٥٧ و معناه على ما مرّ في تفسير الآية إلّا أن يشاء أحد منكم أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي لا أجر .

و قال تعالى في هذه السورة : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » فجعل أجر رسالته المودّة في القربى ، و من المتيقّن من مضامين سائر الآيات الّتي في هذا المعنى أنّ هذه المودّة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إمّا استجابة كلّها و إمّا استجابة بعضها الّذي يهتمّ به و ظاهر الاستثناء على أيّ حال أنّه متّصل بدعوى كون المودّة من الأجر ولا حاجة إلى ما تمحّله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه .

و أمّا معنى المودّة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم :

فقيل ـ و نسب إلى الجمهور ـ أنّ الخطاب لقريش والأجر المسؤل هو مودّتهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لقرابته منهم و ذلك لأنّهم كانوا يكذّبونه و يبغضونه لتعرّضه لآلهتهم على ما في بعض الأخبار فأمر صلّى الله عليه وآله أن يسألهم : إن لم يؤمنوا به فليودّوه لمكان قرابته منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة ، و في للسببيّة .

و فيه أنّ معنى الأجر إنّما يتمّ إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذّبين له كافرين بدعوته إنّما كان يصحّ على تقدير إيمانهم به صلّى الله عليه وآله لأنّهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيأ حتّى يقابلوه بالأجر ، و على تقدير الإيمان به ـ والنبوّة أحد الاُصول الثلاث في الدّين ـ لا يتصوّر بغض حتّى تجعل المودّة أجراً للرسالة و يسأل .

وبالجملة لا تحقّق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤلين و لا تحقّق لمعنى البغض

على تقدير إيمانهم حتّى يسألوا المودّة .

و هذا الإشكال وارد حتّى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعا فإنّ سؤال الأجر منهم على أيّ حال إنّما يتصوّر على تقدير إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنّما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمّل فيه .

و قيل : المراد بالمودّة في القربى ما تقدّم والخطاب للأنصار فقد قيل : إنّهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردّه ، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجاريّة و من جهة أخوال اُمّه آمنة على ما قيل .

و فيه أنّ أمر الأنصار في حبّهم للنبيّ صلى الله عليه وآله أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الّذين سألوه أن يهاجر إليهم ، وبوّؤا له الدار ، وفدوه بالأنفس والأموال والبنين و بذلوا كلّ جهدهم في نصرته وحتّى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به ، و قد مدحهم الله تعالى بمثل قوله : « والّذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة » الحشر: ٩ و هذا مبلغ حبّهم للمهاجرين إليهم لأجل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فما هو الظنّ في حبّهم له ؟

وإذا كان هذا مبلغ حبّهم فما معنى أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يتوسّل إلى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة ؟

على أنّ العرب ما كانت تعتني بالقرابة من جهة النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا   بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

والقائل :

و إنّما اُمّهات الناس أوعية   مستودعات و للأنساب آباء

وإنّما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وساوى بين أولاد البنين و أولاد البنات و قد تقدّم الكلام في ذلك .

و قيل : الخطاب لقريش والمودّة في القربى هي المودّة بسبب القرابة غير أنّ المراد بها مودّة النبيّ صلى الله عليه وآله لا مودّة قريش كما في الوجه الأوّل ، والاستثناء منقطع ،

و محصّل المعنى أنّي لا أسألكم أجرا على ما أدعوكم إليه من الهدى الّذي ينتهي بكم إلى روضات الجنّات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبّي لكم بسبب قرابتكم منّي دفعني إلى أن أهديكم إليه و أدلّكم عليه .

و فيه أنّه لا يلائم ما يخدّه الله سبحانه له صلى الله عليه وآله في طريق الدعوة والهداية فإنّه تعالى يسجّل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أنّ الأمر في هداية الناس إلى الله وليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردّهم دعوته و إنّما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع إلى هداية أحد لحبّ قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة و مع ذلك كلّه كيف يتصوّر أن يأمره الله بقوله : « قل لا أسألكم » الآية أن يخبر كفّار قريش أنّه إنّما اندفع إلى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبّه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه .

و قيل : المراد بالمودّة في القربى مودّة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى لا أسألكم على دعائي أجرا إلّا أن تودّوا أقرباءكم .

وفيه أنّ مودّة الأقرباء على إطلاقهم ليست ممّا يندب إليه في الإسلام قال تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادّون من حادّ الله و رسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اُولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، وسياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصّصة أو مقيّدة لعموم قوله : « إلّا المودّة في القربى » أو إطلاقه حتّى تكون المودّة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة ـ على أنّ هذه المودّة الخاصّة لا تلائم خطاب قريش أو عامه الناس .

بل الّذي يفيده سياق الآية أنّ الّذي يندب إليه الإسلام هو الحبّ في الله من غير أن يكون للقرابة خصوصيّة في ذلك ، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم لكنّه بعنوان صلة الرحم و إيتاء المال على حبّه ذوي القربى لا بعنوان مودّة القربى فلا حبّ إلّا لله عزّ اسمه .

ولا مساغ للقول بأنّ المودّة في القربى في الآية كناية عن صلتهم والإحسان إليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقيّ غير الملائم لما

ندب إليه الاسلام من الحبّ في الله .

و قيل : معنى القربى هو التقرّب إلى الله ، والمودّة في القربى هي التودّد إليه تعالى بالطاعة والتقرّب فالمعنى لاأسألكم عليه أجرا إلّا أن تودّدوا إليه تعالى بالتقرّب إليه .

و فيه أنّ في قوله : « إلّا المودّة في القربى » على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإنّ حاقّ مدلوله التودّد إليه - أو ودّه تعالى - بالتقرّب إليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودّداً إليه بالتقرّب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم : « ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى » الزمر : ٣ « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

فسؤال التودّد إلى الله بالتقرّب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده ، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممّن يرى شركه نوع تودّد إلى الله بالتقرّب إليه ، و خطابهم بذلك على ما فيه من الابهام - والمقام مقام تمحيضه صلّى الله عليه وآله نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيأ قطّ - ممّا لا يرتضيه الذوق السليم .

على أنّ المستعمل في الآية هو المودّة دون التودّد فالمراد بالمودّة حبّهم لله في التقرّب إليه و لم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودّة على حبّ العباد لله سبحانه و إن ورد العكس كما في قوله : « إنّ ربّي رحيم ودود » هود : ٩٠ ، و قوله : « وهو الغفور الودود » البروج : ١٤ و لعلّ ذلك لما في لفظ المودّة من الاشعار بمراعاة حال المودود و تعاهده و تفقّده ، حتّى قال بعضهم - على ما حكاه الراغب - إنّ مودّة الله لعباده مراعاته لهم .

و الاشكال السابق على حاله و لو فسّرت المودّة في القربى بموادّة الناس بعضهم بعضا و محابّتهم في التقرّب إلى الله بأن تكون القربات أسبابا للمودّة والحبّ فيما بينهم فإنّ للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون .

و قيل : المراد بالمودّة في القربى ، مودّة قرابة النبيّ صلّى الله عليه وآله وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام و قد وردت به روايات من طرق أهل السنّة وتكاثرت الأخبار من طرق الشيعة

على تفسير الآية بمودّتهم و موالاتهم ، و يؤيّده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت عليهم السلام و محبّتهم .

ثمّ التأمل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم المتضمّنة لارجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من اُصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين و حديث السفينة و غيرهما لا يدع ريبا في أنّ إيجاب مودّتهم و جعلها أجراً للرسالة إنّما كان ذريعة إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعيّة العلميّة .

فالمودّة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينيّة من حيث بقائها و دوامها فالآية في مؤدّاها لا تغاير مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر .

و يؤل معناها إلى أنّي لا أسألكم عليه أجراً إلّا أنّ الله لمّا أوجب عليكم مودّة عامّة المؤمنين و من جملتهم قرابتي فانّي أحتسب مودّتكم لقرابتي وأعدّها أجراً لرسالتي قال تعالى : « إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » مريم : ٩٦ و قال : « والمؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض » التوبة : ٧١ .

و بذلك يظهر فساد ما اُورد على هذا الوجه أنّه لا يناسب شأن النبوّة لما فيه من التهمة فإنّ أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيأ و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم .

و أيضاً فيه منافاة لقوله تعالى « و ما تسألهم عليه من أجر » يوسف : ١٠٤ .

وجه الفساد أنّ إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنّما هو بحسب الدعوى و أمّا بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يدلّ عليه الآيات الاُخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت و ما في ذلك من النفع عائد إليهم فلا مورد للتهمة .

على أنّ الآية على هذا مدنيّة خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتّهموا نبيّهم المصون بعصمة إلهيّة ـ بعد الايمان به و تصديق عصمته ـ فيما يأتيهم به من ربّهم و لو جاز اتّهامهم له في ذلك و كان بذلك غير مناسب لشأن النبوّة لا يصلح لأن يخاطب

به ، لاطّرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنيّة كالآيات الدالّة على فرض طاعته المطلقة و الدالّة على كون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله ، و الدالّة على خمس ذوي القربى ، و ما اُبيح له في أمر النساء وغير ذلك .

على أنّه تعالى تعرّض لهذه التهمة و دفعها في قوله الآتي : « أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك » الآية على ما سيأتي .

وهب أنّا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعاً لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار الّتي لاتحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في أبحاث مودّة أهل البيت عنه صلى الله عليه وآله .

و أمّا منافاة هذا الوجه لقوله تعالى : « و ما تسألهم عليه من أجر » فقد اتّضح بطلانه ممّا ذكرناه ، و الآية بقياس مدلولها إلى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا » الفرقان : ٥٧ .

قال في الكشّاف بعد اختياره هذا الوجه : فإن قلت : هلا قيل : إلّا مودّة القربى أو إلّا المودّة للقربى ، و ما معنى قوله : إلّا المودّة في القربى ؟

قلت : جعلوا مكانا للمودّة و مقرّاً لها كقولك : لي في آل فلان مودّة ، ولي فيهم هوى و حبّ شديد ، تريد اُحبّهم وهم مكان حبّي و محلّه .

قال : و ليست في بصلة للمودّة كاللام إذا قلت : إلّا المودّة للقربى . إنّما هي متعلّقة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك : المال في الكيس ، و تقديره إلّا المودّة ثابتة في القربى و متمكّنة فيها . انتهى .

قوله تعالى : « و من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إنّ الله غفور شكور » الاقتراف الاكتساب ، و الحسنة الفعلة الّتي يرتضيها الله سبحانه و يثيب عليها ، و حسن العمل ملاءمته لسعادة الإنسان و الغاية الّتي يقصدها كما أنّ مساءته و قبحه خلاف ذلك ، و زيادة حسنها إتمام ما نقص من جهاتها و إكماله و من ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعالى : « و لنجزينّهم أحسن الّذي كانوا يعملون » العنكبوت : ٧ ، و قال :

ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله » النور : ٣٨ .

و المعنى و من يكتسب حسنة نزدله في تلك الحسنة حسناً ـ برفع نقائصها و زيادة أجرها ـ إنّ الله غفور يمحو السيّئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله .

و قيل : المراد بالحسنة مودّة قربى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و يؤيّده ما في روايات أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام أنّ قوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً » إلى تمام أربع آيات نزلت في مودّة قربى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، و لازم ذلك كون الآيات مدنيّة و أنّها ذات سياق واحد و أنّ المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودّة ، و على هذا فالإشارة بقوله : « أم يقولون افترى » الخ إلى بعض ما تفوّه به المنافقون تثاقلاً عن قبوله و في المؤمنين سمّاعون لهم ، و بقوله : « وهو الّذي يقبل التوبة» إلى آخر الآيتين إلى توبة الراجعين منهم و قبولها .

و في قوله : « إنّ الله غفور شكور » التفات من التكلّم إلى الغيبة و الوجه فيه الإشارة إلى علّة الاتّصاف بالمغفرة و الشكر فإنّ المعنى إنّ الله غفور شكور لأنّه الله عزّ اسمه .

قوله تعالى : « أم يقولون افترى على الله كذبا » إلى آخر الآية أم منقطعة ، و الكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه صلى‌الله‌عليه‌وآله مفترياً على الله كذبا .

و قوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » معناه على ما يعطيه السياق أنّك لست مفترياً على الله كذبا فإنّه ليس لك من الأمر شيء حتّى تشاء الفرية فتأتي بها وإنّما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر إلى مشيّته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسدّ باب الوحي إليك لكنّه شاء أن يوحي إليك و يبيّن الحقّ و قد جرت سنّته أن يمحو الباطل و يحقّ الحقّ بكلماته .

فقوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيّة الله و تنزيه لساحة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يأتي بشيء من عنده .

و هذا المعنى ـ كما ترى ـ أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة

النبيّ صلى الله عليه وآله و التوبيخ متوجّهاً إلى المنافقين و مرضى القلوب .

و قد ذكروا في معنى الجملة وجوها اُخر :

منها ما ذكره الزمخشريّ في الكشّاف حيث فسّر قوله : « فإن يشإ الله يختم على قلبك» بقوله فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتّى تفتري عليه الكذب فإنّه لايفتري على الله الكذب إلا من كان في مثل حالهم .

و هذا الاُسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله و أنّه في البعد مثل الشرك بالله و الدخول في جملة المختوم على قلوبهم ، و مثال هذا أن يخوّن بعض الاُمناء فيقول : لعلّ الله خذلني لعلّ الله أعمى قلبي و هو لا يريد إثبات الخذلان و عمى القلب و إنّما يريد استبعاد أن يخوّن مثله و التنبيه على أنّه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

و منها ما قيل : إنّ المعنى لو حدّثت نفسك بأن تفتري على الله الكذب لطبع الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تفتري على الله ، وهذا كقوله : «لئن أشركت ليحبطنّ عملك » .

و منها ما قيل : إنّ معناه فإن يشإ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتّى لايشقّ عليك قولهم : إنّه مفتر و ساحر ، وهي وجوه لاتخلو من ضعف .

و منها ما قيل : إنّ المعنى فإن يشإ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم وهو تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله ليشكر ربّه على ما آتاه من النعمة .

و منها ما قيل : إنّ المعنى فإن يشإ الله يختم على قلوب الكفّار و على ألسنتهم و يعاجلهم بالعذاب ، و عدل عن الغيبة إلى الخطاب و عن الجمع إلى الإفراد ، والمراد يختم على قلبك أيّها القائل : إنّه افترى على الله كذبا .

و قوله : « و يمح الله الباطل ويحقّ الحقّ بكلماته » : الإتيان بالمضارع - يمحو و يحقّ - للدلالة على الاستمرار فمحو الباطل و إحقاق الحقّ بالكلمات سنّة جارية له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهيّ و التكليم

الربوبي و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنّها مفصحة عن الضمير الغيبي .

و قوله : « إنّه عليم بذات الصدور » تعليل لقوله : « و يمح الله الباطل الخ » أي إنّه يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته لأنّه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي و توجيه الدعوة .

قيل : و في الآية إشعار بوعد النبي صلى الله عليه وآله بالنصر و لا يخلو من وجه .

قوله تعالى : « و هو الّذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيّآت و يعلم ما تفعلون » يقال : قبل منه و قبل عنه قال في الكشّاف : يقال : قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدء قبولي و منشأه ، و معنى قبلته عنه عزلته و أبنته عنه . انتهى .

و في قوله : « و يعلم ما تفعلون » تحضيض على التوبة وتحذير عن اقتراف السيّآت و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و يستجيب الّذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم من فضله و الكافرون لهم عذاب شديد » فاعل « يستجيب » ضمير راجع إليه تعالى و « الّذين آمنوا » الخ في موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للّذين آمنوا ـ على ما قيل ـ وقيل : فاعل « يستجيب » هو « الّذين » و هو بعيد من السياق .

و الاستجابة إجابة الدعاء و لمّا كانت العبادة دعوة له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم ، و الدليل على هذا المعنى قوله : « ويزيدهم من فضله » فإنّ ظاهره زيادة الثواب و كذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله : « و الكافرون لهم عذاب شديد » .

و قيل : المراد أنّه يستجيب لهم إذا دعوه و أعطاهم ما سألوه و زادهم على ما طلبوه و هو بعيد من السياق . على أنّ استجابة الدعاء لا يختصّ بالمؤمن .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع روى زادان عن عليّ عليه السلام قال : فينا في آل حم آية لايحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن . ثمّ قرء « قل لاأسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » .

قال الطبرسيّ : و إلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية   تأوّلها منّا تقيّ و معرب

و فيه و صحّ عن الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه خطب الناس فقال في خطبته : إنّا من أهل البيت الّذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم فقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » .

و في الكافي بإسناده عن عبدالله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « قل لاأسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » قال : هم الأئمّة .

أقول : و الأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جدّا مرويّة عنهم .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاريّ و مسلم و الترمذيّ و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عبّاس أنّه سئل عن قوله : « إلّا المودّة في القربى » فقال سعيد بن جبير : هم قربى آل محمّد فقال ابن عبّاس : عجّلت إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن بطن من قريش إلّا كان له فيهم قرابة فقال : إلّا أن تصلحوا ما بيني وبينكم من القرابة .

أقول : و رواه أيضاً عن ابن عبّاس بطرق اُخرى غير هذا الطريق ، و قد تقدّم في بيان الآية أنّ هذا المعنى غير مستقيم و لا منطبق على سياق الآية ، و من العجيب ما في بعض هذه الطرق أنّ الاية منسوخة بقوله تعالى : « قل ماسألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلّا على الله » .

و فيه أخرج أبو نعيم و الديلميّ من طريق مجاهد عن ابن عبّاس قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وآله : لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي و تودّوهم لي .

و فيه أخرج ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم و الطبرانيّ و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت هذه الآية « قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الّذين وجبت مودّتهم قال : عليّ و فاطمة و ولداها .

أقول : و رواها الطبرسيّ في المجمع و فيها « وولدها » مكان «وولداها» .

و فيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لمّا جيء بعليّ بن الحسين أسيراً فاُقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الّذي قتلكم واستأصلكم فقال له عليّ بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : نعم قال : أما قرأت « قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » ؟ قال : فإنّكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس « و من يقترف حسنة » قال : المودّة لآل محمّد .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي باسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام .

و في تفسير القمّي حدّثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمّد بن مسلم قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : في قول الله عزّ وجلّ : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » يعني في أهل بيته .

قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إنّا قد آوينا و نصرنا فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عزّ وجلّ « قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » أي في أهل بيته .

ثمّ قال : ألا ترى أنّ الرجل يكون له صديق و في نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عزّ وجلّ أن لا يكون في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله شيء على اُمّته ففرض الله عليهم المودّة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضا ، و إن تركوا

تركوا مفروضا .

قال : فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقال : لا . قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي ، و قال طائفة : ماقال هذا رسول الله وجحدوه و قالوا كماحكى الله عزّ وجلّ : «أم يقولون افترى على الله كذبا» فقال عزّ وجلّ : « فإن يشإ الله يختم على قلبك » قال : لو افتريت «ويمح الله الباطل» يعني يبطله « و يحقّ الحقّ بكلماته» يعني بالأئمّة و القائم من آل محمّد عليهم السلام « إنّه عليم بذات الصدور » ،

أقول و روى قصّة الأنصار السيوطيّ في الدرّ المنثور عن الطبرانيّ وابن مردويه من طريق ابن جبير وضعّفه .

☆ ☆ ☆

وَ لَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْاَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَا يَشَاءُ اِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ
مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّموَاتِ وَ الْاَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ اِذَا يَشَاءُ
قَدِيرٌ (٢٩) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ
كَثِيرٍ (٣٠) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْاَرْضِ وَ مَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ
وَلِىٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٣١) وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْاَعْلَامِ (٣٢)
اِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ
يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا اُوتِيتُمْ مِنْ
شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ
عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْاِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ
وَ اِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا
الصَّلٰوةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ
اِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزٰؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ

عفا و أصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤٠) و لمن انتصر
بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل (٤١) انما السبيل على الذين
يظلمون الناس و يبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب
اليم (٤٢) و لمن صبر و غفر ان ذلك لمن عزم الامور (٤٣) و من
يضلل الله فما له من ولي من بعده و ترى الظالمين لما رأوا العذاب
يقولون هل الى مرد من سبيل (٤٤) و تريهم يعرضون عليها خاشعين
من الذل ينظرون من طرف خفي و قال الذين آمنوا ان الخاسرين
الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيمة ألا ان الظالمين فى عذاب
مقيم (٤٥) و ما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله و من
يضلل الله فماله من سبيل (٤٦) استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي
يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجاء يومئذ و مالكم من نكير (٤٧)
فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ و انا
اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها و ان تصبهم سيئة بما قدمت
أيديهم فان الانسان كفور (٤٨) لله ملك السموات و الارض يخلق ما
يشاء يهب لمن يشاء اناثا و يهب لمن يشاء الذكور (٤٩) أو يزوجهم
ذكرانا و اناثا و يجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير (٥٠) .

﴿ بيان ﴾

صدر الآيات متّصل بحديث الرزق المذكور في قوله : « و الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » وقد سبقه قوله « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين و بهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الّذي سيقت لبيانه آيات السورة و انعطف عليه انعطافا بعد انعطاف .

ثمّ يذكر بعض آيات التوحيد المتعلّقة بالرزق كخلق السماوات والأرض وبثّ الدوابّ فيهما والسفائن الجواري في البحر وإيتاء الأولاد الذكور والإناث أوإحداهما لمن يشاء وجعل من يشاء عقيما .

ثمّ يذكر أنّ من الرزق ما آتاهموه في الدنيا و هو متاعها الفاني بفنائها و منه ما يخصّ المؤمنين في الآخرة و هو خير و أبقى ، و ينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين و حسن عاقبتهم و إلى وصف ما يلقاه الظالمون و هم غيرهم في عقباهم من أهوال القيامة و عذاب الآخرة .

ووراء ذلك في خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام والإنذار والتخويف والدعوة إلى الحقّ و حقائق المعارف شيء كثير .

قوله تعالى : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزّل بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير » القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » والقدر بفتح الدال وسكونها كمّيّة الشيء وهندسته و منه قوله : « و لكن ينزّل بقدر ما يشاء » أو جعل الشيء على كمّيّة معيّنة و منه قوله : « فقدرنا فنعم القادرون » المرسلات : ٢٣ .

والبغي الظلم ، و قوله : « بعباده » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم و ذلك أنّهم عباده المخلوقون له القائمون به

فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له ، و كذا قوله السابق : « بعباده » لا يخلو من إشارة إلى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنّهم عباده ورزق العبد على مولاه .

و معنى الآية ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض ـ لما أنّ من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى « إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق : ٧ ـ و لكن ينزّل ما يشاء من الرزق بقدر و كمّيّة معيّنة إنّه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقّه كلّ عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك .

ففي قوله : « و لكن ينزّل بقدر ما يشاء » بيان للسنّة الإلهيّة في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إنّ لصلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم ، ولا ينافي ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإنّ هناك سنّة اُخرى حاكمة على هذه السنّة و هي سنّة الابتلاء والامتحان قال تعالى : « إنّما أموالكم و أولادكم فتنة » التغابن : ١٥ و سنّة اُخرى هي سنّة المكر والاستدراج قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يشعرون و اُملي لهم إنّ كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .

فسنّة الإصلاح بتقدير الرزق سنّة ابتدائيّة يصلح بها حال الإنسان إلّا أن يمتحنه الله كما قال : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم » آل عمران : ١٥٤ أو يغيّر النعمة و يكفر بها فيغيّر الله في حقّه سنّته فيعطيه ما يطغيه قال تعالى : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ .

و كما أنّ إيتاء المال والبنين و سائر النعم الصوريّة من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقّة والشرائع السماويّة المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها والتلبّس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة ـ على مالها من الإحاطة والشمول لجميع شؤن الحياة الإنسانيّة ـ لشقّت على الناس و لم يؤمن بها إلّا الأوحديّ منهم لكنّ الله سبحانه أنزلها على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم تدريجاً وعلى مكث وهيّأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض قال تعالى : « و قرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس

على مكث » أسرى : ١٠٦ .

و كذا المعارف العالية الّتي هي في بطون المعارف الساذجة الدينيّة لو لم يضرب عليها بالحجاب و بيّنت لعامّة الناس على حدّ الظواهر المبيّنة لهم لم يتحمّلو ها و دفعته أفهامهم إلّا الأوحديّ منهم لكنّ الله سبحانه كلّمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كلّ على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك : « أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها » الرعد : ١٧ .

و كذلك الأحكام والتكاليف الشرعيّة لو كلّف بجميعها جميع الناس لتحرّجوا منها ولم يتحمّلوها لكنّه سبحانه قسّمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجّه التكاليف المتنوّعة بينهم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أيّ جهة فرض كالرزق الصوريّ مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم .

قوله تعالى : « و هو الّذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته و هو الوليّ الحميد » القنوط اليأس ، والغيث المطر قال في مجمع البيان : الغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً و قد يكون ضارّاً في وقته و غير وقته . انتهى ، و نشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بانبات النبات وإخراج الثمار الّتي يكون سببها المطر .

و في الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد الّتي لها تعلّق مّا بالأرزاق ، و يتلوها في هذا المعنى آيات ، و تذييل الآية بالاسمين : الوليّ الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل .

قوله تعالى : « و من آياته خلق السماوات والأرض و ما بثّ فيهما من دابّة » إلخ البثّ التفريق و يقال : بثّ الريح التراب إذا أثاره ، والدابّة كلّ ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعا ، والمعنى ظاهر .

و ظاهر الآية أنّ في السموات خلقا من الدوابّ كالأرض ، وقول بعضهم : إنّ ما في السموات من دابّة هي الملائكة يدفعه أنّ إطلاق الدوابّ على الملائكة غير معهود.

وقوله : « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » إشارة إلى حشر ما بثّ فيهما من دابّة

و قد عبّر بالجمع لمقابلته البثّ الّذي هو التفريق ، ولا دلالة في قوله : « على جمعهم » حيث أتى بضمير اُولي العقل على كون ما في السموات من الدوابّ اُولي عقل كالإنسان لقوله تعالى : « و ما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا اُمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثمّ إلى ربّهم يحشرون » الأنعام : ٣٨ .

والقدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الّذي أركزت فيه القدرة و ثبتت قال الراغب : القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكّن من فعل شيء مّا و إذا وصف الله بها فهي نفي العجز عنه ، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى و إن اُطلق عليه لفظاً بل حقّه أن يقال : قادر على كذا و متى قيل : هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد ، و لهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلّا و يصحّ أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الّذي ينتفي عنه العجز من كلّ وجه .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه و لذلك لا يصحّ أن يوصف به إلّا الله تعالى قال : « إنّه على ما يشاء قدير » ، و المقتدر يقاربه نحو «عند مليك مقتدر» لكن قد يوصف به البشر ، و إذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير و إذا استعمل في البشر فمعناه المتكلّف والمكتسب للقدرة ، انتهى.

و هو حسن غير أنّ في قوله : «إنّ القدرة إذا وصف به الله فهي نفي العجز عنه» مساهلة ظاهرة فإنّ صفاته تعالى الذاتيّة كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابيّة هي عين الذات لا معان سلبيّة حتّى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابؤن. ولازمه خلوّ الذات عن صفات الكمال .

فالحقّ أنّ معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء ، و لازم هذا المعنى الإيجابيّ انتفاء مطلق العجز عنه تعالى .

قوله تعالى : « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنّها تقصده ، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيّآت و قوله : « و يعفو عن كثير » أي عن كثير ممّا كسبت أيديكم و هي السيّآت .

والخطاب في الآية اجتماعيّ موجّه إلى المجتمع غير منحلّ إلى خطابات جزئيّة و لازمه كون المراد بالمصيبة الّتي تصيبهم المصائب العامّة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل و غير ذلك .

فيكون المراد أنّ المصائب والنوائب الّتي تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنّما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها .

فالآية في معنى قوله تعالى : « ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون » الروم : ٤١ ، و قوله : « و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض و لكن كذّبوا » الأعراف : ٩٦ ، و قوله : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ و غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ بين أعمال الإنسان وبين النظام الكونيّ ارتباطاً خاصّاً فلو جرى المجتمع الإنسانيّ على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات ولو أفسدوا اُفسد عليهم .

هذا ما تقتضيه هذه السنّة الإلهيّة إلّا أن ترد عليه سنّة الابتلاء أو سنّة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر قال تعالى : « ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتّى عفوا و قالوا قد مسّ آباءنا السرّاء والضرّاء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » الأعراف : ٩٥.

و يمكن أن يكون الخطاب في الآية عامّاً منحلّاً إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كلّ إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلّق به مستنداً إلى معصية أتى بها و سيّئة عملها و يعفو الله عن كثير منها .

و كيف كان فالخطاب في الآية لعامّة الناس من المؤمن والكافر و هو الّذي يفيده السياق و تؤيّده الآية التالية هذا أوّلا ، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيّآت دون مطلق الأعمال ، و هذا ثانيا ؛ والمصائب الّتي تصيب إنّما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال و هذا ثالثا .

وبما ذكر يندفع أوّلا ما استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء عليهم السّلام و هم معصومون لا معصية لهم ، والمصائب النازلة على الأطفال والمجانين

و هم غير مكلّفين بتكليف فلامعصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء ومصائب الأطفال والمجانين .

وجه الاندفاع أنّ إثبات المعصية لهم في قوله : « فبما كسبت أيديكم » دليل على أنّ الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلّفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصّص دون التخصيص .

و ثانياً ما قيل: إنّ مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعا فإنّها بين ما يجزون عليها بإصابة المصائب و ما يعفى عنها .

وجه الاندفاع أنّ الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيويّة سيّئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطىء ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة و حكم مانعة كصلة الرحم والصدقة و دعاء المؤمن والتوبة و غير ذلك ممّا وردت به الأخبار ، و أمّا جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه كما تقدّم .

على أنّ الخطاب في الآية يعمّ المؤمن والكافر كما تقدّمت الإشارة إليه ، ولا معنى لتبعضّها في الدلالة فتدلّ على المغفرة في المؤمن و عدمها في الكافر .

و بعد هذا كلّه فالوجه الأوّل هو الأوجه .

قوله تعالى : « و ما أنتم بمعجزين في الأرض و ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » معنى الآية ظاهر و هي باتّصالها بما قبلها تفيد أنّكم لا تعجزون الله حتّى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه من وليّ يتولّى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم و يعينكم على دفعها .

قوله تعالى : « و من آية الجوار في البحر كالأعلام » الجواري جمع جارية و هي السفينة ، والأعلام جمع علم و هو العلامة و يسمّى به الجبل و شبّهت السفائن بالجبال لعظمها و ارتفاعها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » إلخ ضمير « يشأ » لله تعالى ، و ظلّ بمعنى صار ، و « رواكد » جمع راكدة و هي الثابتة في محلّها والمعنى إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت

على ظهر البحر .

و قوله : « إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور » أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل ، والمعنى إنّ فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعتهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكلّ من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه و اشتغل بالتفكّر في نعمه والتفكّر في النعمة من الشكر .

و قيل المراد بكلّ صبّار شكور المؤمن لأنّ المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضرّاء أو في السرّاء فإن كان في الضرّاء كان من الصابرين و إن كان في السرّاء كان من الشاكرين .

قوله تعالى : « أو يوبقهنّ بما كسبوا و يعف عن كثير » الإيباق الإهلاك ، و ضمير التأنيث للجواري وضمير التذكير للناس ، ويوبقهنّ و يعف معطوفان على « يسكن » والمعنى إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيّآت ويعف عن كثير منها أي إنّ بعضها كان في اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها .

و قيل : المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إمّا مجازاً أو بتقدير مضاف و « يوبقهنّ » بالعطف على « يسكن » في معنى يرسل الريح العاصفة فيوبقهم والمعنى إن يشأ يسكن الريح إلخ و إن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق و ينج كثيرا منهم بالعفو والمحصّل إن يشأ يسكن الريح أو يرسلها فيهلك ناساً بذنوبهم و ينج ناساً بالعفو عنهم . ولا يخفى وجه التكلّف فيه .

و قيل : إنّ « يعف » عطف على قوله : « يسكن الريح » إلى قوله : « بما كسبوا » و لذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف و إن يشأ يعف عن كثير . و هو في التكلّف كسابقه .

قوله تعالى : « و يعلم الّذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » قيل : هو غاية معطوفة على اُخرى محذوفة والتقدير نحو من قولنا : ليظهر به قدرته و يعلم الّذين يجادلون في آياتنا مالهم من مفرّ و لا مخاص ، و هذا كثير الورود في القرآن الكريم

غير أنّ المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله : « و ليعلم الله الّذين آمنوا » آل عمران : ١٤٠ .

و قوله : « و ليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

و جوّز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتني اُكرمك و اُعطيك كذا و كذا بنصب اُعطيك ، والمسألة نحويّة خلافيّة فليرجع إلى ما ذكروه فيه .

قوله تعالى : « فما اُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » إلخ تفصيل لما تقدّم ذكره من الرزق و تقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر و ما عند الله من رزق الآخرة المختصّ بالمؤمنين ، وفيه تخلّص إلى ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة .

فقوله : « فما اُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخطاب للناس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصّة ، والمراد بما اُوتيتم من شيء جميع ما اُعطيه الناس ورزقوه من النعم ، و إضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه ، والمعنى فكلّ شيء اُعطيتموه ممّا عندكم متاع تتمتّعون به في أيّام قلائل .

و قوله : « و ما عند الله خير و أبقى للّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون » المراد بما عند الله ما ادّخره الله ثواباً ليثيب به المؤمنين ، واللاّم في « للّذين آمنوا » للملك والظرف لغو ، و قيل اللاّم متعلّق بقوله : « أبقى » والأوّل أظهر ، و كون ما عند الله خيرا لكونه خالصاً من الألم والكدر و كونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر .

قوله تعالى : « والّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش و إذا ما غضبوا هم يغفرون » عطف على قوله : « الّذين آمنوا » والآية وآيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنة و قول بعضهم أنّه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق .

و كبائر الإثم المعاصي الكبيرة الّتي لها آثار سوء عظيمة و قد عدّ تعالى منها شرب الخمر والميسر قال تعالى : « قل فيهما إثم كبير » البقرة : ٢١٩ والفواحش جمع فاحشة و هي المعصية الشنيعة النكراء و قد عدّ تعالى منها الزنا واللواط قال : « ولا

تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة » أسرى : ٣٢ ، و قال حاكيا عن لوط : « أتأتون الفاحشة و أنتم تبصرون » النمل : ٥٤ .

و قوله : « يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش » و هو في سورة مكّيّة إشارة إلى إجمال ما سيفصّل من تشريع تحريم كبائر المعاصي و الفواحش .

و في قوله : « و إذا غضبوا هم يغفرون » إشارة إلى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل : و يغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد و ليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم .

قوله تعالى : « و الّذين استجابوا لربّهم و أقاموا الصلاة » الخ الاستجابة هي الاجابة و استجابتهم لربّهم إجابتهم لما يكلّفهم به من الأعمال الصالحة ـ على ما يفيده السياق ـ و ذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لشرفه .

على أنّ الظاهر أنّ الآيات مكّيّة و لم يشرّع يومئذ أمثال الزكاة و الخمس و الصوم و الجهاد ، و في قوله : « والّذين استجابوا لربّهم» من الإشارة إلى إجمال الأعمال الصالحة المشرّعة نظير ما تقدّم في قوله : «و الّذين يجتنبون» الخ و نظير الكلام جار في الآيات التالية .

و قوله : « و أمرهم شورى بينهم » قال الراغب : و التشاور و المشاورة و المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شِرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخرجته منه قال تعالى : « و شاورهم في الأمر » و الشورى الأمر الّذي يتشاور فيه قال تعالى : « و أمرهم شورى بينهم» . انتهى . فالمعنى الأمر الّذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه ، ويظهرمن بعضهم أنّه مصدر والمعنى و شأنهم المشاورة بينهم .

وكيفكان ففيه إشارة إلى أنّهم أهل الرشد و إصابة الواقع يُمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه » الزمر : ١٨ .

و قوله : « و ممّا رزقناهم ينفقون » إشارة إلى بذل المال لمرضات الله .

قوله تعالى : « و الّذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » قال الراغب : الانتصار والاستنصار طلب النصرة . انتهى فالمعنى الّذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين و إن كانوا متّفقين على الحقّ كنفس واحدة فكأنّ الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قباله و أعدّوا عليه النصرة .

و عن بعضهم أنّ الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر .

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فإنّ المقاومة دون الظلم و سدّ بابه عن المجتمع لمن استطاعه والانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريّة قال تعالى : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر » الأنفال : ٧٢ ، وقال : فقاتلوا الّتي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله » الحجرات : ٩.

قوله تعالى : «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها» إلى آخر الآية بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره و هو أن يقابل الباغي بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغي .

قيل : و سمّي الثانية و هي ما يأتي بها المنتصر سيّئة لأنّها في مقابلة الاُولى كما قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » البقرة : ١٩٤ ، و قال الزمخشريّ : كلتا الفعلتين : الاُولى و جزاؤها سيّئة لأنّها تسوء من تنزل به ففيه رعاية لحقيقة معنى اللّفظ و إشارة إلى أنّ مجازاة السيّئة بمثلها إنّما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة .

و قوله : « فمن عفا و أصلح فأجره على الله » وعد جميل على العفو و الإصلاح ، و الظاهر أنّ المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه وبين ربّه ، وقيل : المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء .

و قوله : « إنّه لا يحبّ الظالمين » قيل : فيه بيان أنّه تعالى لم يرغّب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبّه إيّاه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب ، و لحبّه تعالى الإحسان و الفضل .

و قيل : المراد أنّه لا يحبّ الظالم في قصاص و غيره بتعدّيه عمّا هوله إلى ما ليس هوله .

و الوجهان وإن كانا حسنين في نفسهما لكن سياق الآية لايساعد عليهماوخاصّة مع حيلولة قوله : « فمن عفا و أصلح فأجره على الله » بين التعليل و المعلّل .

و يمكن أيضاً أن يكون قوله : «إنّه لا يحبّ الظالمين» تعليلا لأصل كون جزاء السيّئة سيّئة من غير نظر إلى المماثلة و المساواة .

قوله تعالى : « و لمن انتصر بعد ظلمه فاُولئك ماعليهم من سبيل ـ إلى قوله ـ من عزم الاُمور » ضمير «ظلمه » راجع إلى المظلوم . و الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله .

الآيات الثلاث تبيين و رفع لبس من قوله في الآية السابقة : « فمن عفى و أصلح فأجره على الله » فمن الجائز أن يتوهّم المظلوم أنّ في ذلك إلغاء لحقّ انتصاره فبيّن سبحانه بقوله أوّلا : « ولمن انتصر بعد ظلمه فاُولئك ما عليهم من سبيل » أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوّز لإبطال حقّهم في الشرع الإلهيّ ، و إرجاع ضمير الإفراد إلى الموصول أوّلا باعتبار لفظه ، و ضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه .

و بيّن بقوله ثانيا : إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحقّ » أنّ السبيل كلّه على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين ، و أكّد ذلك ذيلاً بقوله : « اُولئك لهم عذاب أليم » .

و بيّن بقوله ثالثا : « و لمن صبر و غفر إنّ ذلك لمن عزم الاُمور » أنّ الدعوة إلى الصبر و العفو ليست إبطالا لحقّ الانتصار و إنّما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإنّ في المغفرة الصبر الّذي هو من عزم الاُمور ، و قد أكّد الكلام بلام القسم أوّلا و باللام في خبر إنّ ثانيا لإفادة العناية بمضمونه .

قوله تعالى : «و من يضلل الله فماله من وليّ من بعده» الخ لمّا ذكر المؤمنين بأوصافهم و أنّ لهم عند الله رزقهم المدّخر لهم و فيه سعادة عقباهم الّتي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم وهم الظالمون الآئسون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون

من هذا الرزق الكريم فبيّن أنّ الله سبحانه أضلّهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من وليّ حتّى يتولّى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق ، فهم صفر الأكفّ يتمنّون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين .

فقوله : « و من يضلل الله » الخ من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم وعدم وليّ آخر يتولّى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبّب و هو الهداية و الرزق .

و قوله : « و ترى الظالمين لمّا رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل » إشارة إلى تمنّيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة و مشاهدة العذاب .

و « ترى » خطاب عامّ وجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بما أنّه راء ومعناه و ترى ويرى كلّ من هو راء ، و فيه إشارة إلى أنّهم يتمنّون ذلك على رؤس الأشهاد ، و المردّ هو الردّ .

قوله تعالى : « و تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذلّ ينظرون من طرف خفيّ » ضمير « عليها » للنار لدلالة المقام عليها وخفيّ الطرف ضعيفه وإنّما ينظرمن طرف خفيّ إلى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريدأن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترىء أن يمتليء بها بصره كالمصبور ينظر إلى السيف ، و الباقي ظاهر .

و قوله : « و قال الّذين آمنوا إنّ الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة » أي إنّ الخاسرين كلّ الخسران و بحقيقته هم الّذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة و أهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة . و قيل : أهلوهم أزواجهم من الحور و خدمهم في الجنّة لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظراً إلى آيات وراثة الجنّة .

و هذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنّما يقولونه يوم القيامة - و التعبير بلفظ الماضي لتحقّق الوقوع - لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام ، و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنّما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضا كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى : « يوم يأت لا تكلّم نفس إلّا بإذنه » هود : ١٠٥

و قال : « لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمان و قال صوابا » النبأ : ٣٨ .

فلا يصغى إلى ما قيل : إنّ القول المذكور إنّما نسب إلى المؤمنين للدلالة على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة و نجوا من الخسران و إلّا فالقول قول كلّ من يتأتّى منه القول من أهل الجمع كما أنّ الرؤية المذكورة قبله رؤية كلّ من تتأتّى منه الرؤية .

و قوله : « ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم » تسجيل عليهم بالعذاب و أنّه دائم غير منقطع ، و جوّز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

قوله تعالى : « و ما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله » الخ هذا التعبير أعني قوله : « و ما كان لهم » الخ دون أن يقال : و ما لهم من ولي كما قيل أوّلا للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا و أنّ ذلك كان باطلا من أوّل الأمر .

و قوله : «و من يضلل الله فماله من سبيل» صالح لتعليل صدر الآية و هو كالنتيجة لجميع ما تقدّم من الكلام في حال الظالمين في عقباهم ، و نوع انعطاف إلى ماسبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي .

فهو كناية عن أنّه لا سبيل إلى السعادة إلّا سبيل الله الّذي شرعه لعباده من طريق الوحي و الرسالة فمن أضلّه عن سبيله لكفره و تكذيبه بسبيله فلاسبيل له يهتدي به إلى سعادة العقبى و التخلّص من العذاب و الهلاك .

قوله تعالى : « استجيبوا لربّكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله مالكم من ملجاء يومئذ و مالكم من نكير » دعوة و إنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات السابقة على ما يعطيه السياق و قول بعضهم : إنّ المراد باليوم يوم الموت غير وجيه .

و في قوله : « لا مردّ له من الله » «لا» لنفي الجنس و «مردّ» اسمه و «له» خبره و « من الله » حال من « مردّ » و المعنى يوم لاردّ له من قبل الله أي إنّه مقضيّ محتوم لا يردّه الله البتّة فهو في معنى ما تكرّر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنّه لا ريب فيه .

و قد ذكروا للجملة أعني قوله : «يوم لامردّ له من الله» وجوها اُخر من الإعراب لاجدوى في نقلها .

وقوله : « مالكم من ملجاء يومئذ و مالكم من نكير » الملجأ الملاذ الّذي يلتجأ إليه و النكير - كما قيل - مصدر بمعنى الإنكار ، والمعنى مالكم من ملاذ تلتجؤن إليه من الله و مالكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كلّ جهة .

قوله تعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلّا البلاغ » عدول من خطابهم إلى خطاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لإعلام أنّ ما حمّله من الأمر إنّما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد اُرسل مبلّغا لدين الله إن عليه إلّا البلاغ و لم يرسل حفيظا عليهم مسؤلا عن إيمانهم و طاعتهم حتّى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لإقبالهم عليه .

قوله تعالى : « و إنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم فإنّ الإنسان كفور » الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة و نسيان المنعم ، و المراد بالسيّئة المصيبة الّتي تسوء الإنسان إذا أصابته ، و قوله : «فإنّ الإنسان كفور » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه تسجيل الذمّ واللّوم عليه بذكره باسمه .

و في الآية استشعار بإعراضهم و توبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنّه بطبعه حليف الغفلة إن ذكّر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله ، و إن ذكّر بسيّئة تصيبه بما قدّمت يداه شغله الكفران عن ذكر ربّه فهو في غفلة عن ذكر ربّه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لاتنجح فيه دعوة و لا تنفع فيه موعظة .

قوله تعالى : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » إلى آخر الآيتين للآيتين نوع اتّصال بما تقدّم من حديث الرزق لما أنّ الأولاد المذكورين فيها من قبيل الرزق .

و قيل : إنّهما متّصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقة الرحمة وإصابة السيّئة و أنّ الإنسان يفرح بالرحمة و يكفر في السيّئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أنّ ملك السماوات و الأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و

يشتغل به و لا لمن أصابته السيّئة أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه .

و يبعّده أنّه تعالى لم ينسب السيّئة في الآية السابقة إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسمين جميعا في هذه الآية إلى مشيّته و دعوتهم إلى التسليم لها .

و كيف كان فقوله : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » فيه قصر الملك و السلطنة فيه تعالى على جميع العالم و أنّ الخلق منوط بمشيّته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيّة أو يضطرّه على الخلق .

و قوله : « يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور » الإناث جمع اُنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر ، و ظاهر التقابل أنّ المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء و هبة الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كرّرت المشيّة ، قيل : وجه تعريف الذكور أنّهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم و خاصّة العرب .

و قوله : « أو يزوّجهم ذكرانا و إناثا » أي يجمع بينهم حال كونهم ذكرانا وإناثا معاً فالتزويج في اللغة الجمع ، و قوله : « و يجعل من يشاء عقيما » أي لا يلد ولا يولد له ، و لمّا كان هذا أيضاً قسما برأسه قيّده بالمشيّة كالقسمين الأوّلين ، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنّه بالحقيقة جمع بين القسمين الأوّلين فاكتفي بما ذكر من المشيّة فيهما .

و قوله : « إنّه عليم قدير » تعليل لما تقدّم أي إنّه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج الحاكم و صحّحه و البيهقيّ عن عليّ قال : إنّما اُنزلت هذه الآية في أصحاب الصفّة : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » و ذلك أنّهم قالوا : لو أنّ لنا ، فتمنّوا الدنيا .

أقول : و الآية على هذا مدنيّة لكنّ الرواية أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول .

و في تفسير القمّي قوله : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » قال الصادق عليه السلام : لو فعل لفعلوا و لكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض و استعبدهم بذلك و لو جعلهم أغنياء لبغوا « و لكن ينزّل بقدر مّا يشاء» ممّا يعلم أنّه يصلحهم في دينهم و دنياهم « إنّه بعباده خبير بصير » .

و في المجمع روى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله جلّ ذكره : إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم و لو صحّحته لأفسده ، و إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الصحّة و لو أسقمته لأفسده ، و إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى و لو أفقرته لأفسده ، و إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لأفسده ، و ذلك أنّي اُدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم .

و في تفسير القمّي حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حمزة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّي سمعته يقول : إنّي اُحدّثكم بحديث ينبغي لكلّ مسلم أن يعيه . ثمّ أقبل علينا فقال : ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلّا كان الله أحكم و أجود و أمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة .

ثمّ قال : و قد يبتلي الله عزّ وجلّ المؤمن بالبليّة في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثمّ تلا هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » وحثا بيده ثلاث مرّات .

و في الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : أما إنّه ليس من عرق يضرب و لا نكبة و لا صداع و لا مرض إلّا بذنب و ذلك قول الله عزّ و جلّ في كتابه : « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » قال : ثمّ قال : و ما يعفو الله أكثر ممّا يؤاخذ به .

أقول : و روى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه عليه السلام ، و روى مثله في الدرّ المنثور عن الحسن عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و لفظه : لمّا نزلت هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » قال رسول الله صلى الله عليه وآله : و الّذي نفسي بيده ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نكبة حجر و لا عثرة قدم إلّا بذنب ، وما يعفوا الله عنه أكثر .

و في الكافي أيضاً بإسناده عن عليّ بن رئاب قال : سألت أبا عبدالله عن قول الله عزّ وجلّ : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »أرأيت ما أصاب عليّاً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم و هم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يتوب إلى الله و يستغفر في كلّ يوم و ليلة مائة مرّة من غير ذنب إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها .

و في المجمع روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : خير آية في كتاب الله هذه الآية . يا عليّ ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلّا بذنب ، و ما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه ، و ما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنّي على عبده .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أرباب الجوامع عن عليّ عليه السلام عنه صلّى الله عليه وآله ، و فحوى الرواية أنّ قوله تعالى : « و ما أصابكم » الآية خاصّ بالمؤمنين والخطاب لهم و أنّ مفاده غفران ذنوبهم كافّة فلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأنّ الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المعصية و معفوّ عنه ومفاد الرواية نفي المؤاخذة بعد المؤاخذة و نفي المؤاخذة بعد العفو .

فيشكل الأمر أوّلا من جهة ما عرفت أنّ الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر .

و ثانياً من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلّها تبلغ حدّ التواتر المعنوي من أنّ من المؤمنين من يعذّب في قبره أو في الآخرة .

و ثالثاً من جهة مخالفة الرواية لظواهر مادلّت من الآيات على أنّ موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » النحل : ٦١ و غيره من الآيات الدالّة على أنّ كلّ مظلمة و معصية مأخوذ بها وأنّ موطن الأخذ هوما بعد الموت و في القيامة إلّا ماغفرت بالتوبة أوتذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك .

على أنّ الآية أعني قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » - كما تقدّمت الاشارة إليه - غيرظاهرة في كون إصابة المصيبة جزاءللغمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء و إنّما هو الأثر الدنيويّ للسيّئة يصيب مرّة و يمحى اُخرى .

فالحريّ أن تحمل الرواية - لو قبلت - على الأخذ بحسن الظنّ بالله سبحانه.

و في المجمع في قوله تعالى : « و أمرهم شورى بينهم » و قد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلّا هدي إلى الرشد .

و في تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : « يهب لمن يشاء إناثاً » يعني ليس معهنّ ذكور « و يهب لمن يشاء الذكور » يعني ليس معهم اُنثى « أو يزوّجهم ذكر انا وإناثاً » أي يهب لمن يشاء ذكرانا و إناثاً جميعاً يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعاً لواحد .

و في التهذيب باسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن عليّ عن آبائه عن عليّ عليه السلام قال : أتى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رجل فقال : يا رسول الله إنّ أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرّة لي فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنت و مالك من هبة الله لأبيك أنت سهم من كنانته « يهب لمن يشاء إناثاً و يهب لمن يشاء الذكور أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً و يجعل من يشاء عقيماً » جازت عتاقة أبيك يتناول والدك من مالك و بدنك وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلّا باذنه .

أقول : و هذا المعنى مرويّ عن الرضا عليه السلام في جواب مسائل محمّد بن سنان في العلل و مرويّ من طرق أهل السنّة عن عائشة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم .

☆ ☆ ☆

وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا اِلَيْكَ رُوحاً مِنْ اَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْاِيمَانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ اِنَّكَ لَتَهْدِي اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَ مَا فِي الْاَرْضِ اَلَا اِلَى اللهِ تَصِيرُ الْاُمُورُ (۵۳).

﴿بيان﴾

تتضمّن الآيات آخر ما يفيده سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة و هو تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ثمّ يذكر أنّه يوحي إليه صلى الله عليه وآله ما يوحي، على هذه الوتيرة و أنّ ما اُوحي إليه منه تعالى لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده و يهدي به النبيّ صلى الله عليه وآله بإذنه.

قوله تعالى: «و ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء» الخ قد تقدّم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب، و إطلاق الكلام على كلامه تعالى و التكليم على فعله الخاصّ سواء كان إطلاقاً حقيقيّاً أو مجازيّاً واقع في كلامه تعالى قال: «يا موسى إنّي اصطفيتك

على الناس برسالاتي و بكلامي » الأعراف : ١٤٤ و قال : « و كلّم الله موسى تكليماً » النساء : ١٦٤ و من مصاديق كلامه ما يتلقّاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي .

و على هذا لا موجب لعدّ الاستثناء في قوله : « إلاّ وحياً » منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقيّاً أو مجازيّاً فكلّ واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر .

فقوله: « وحياً » - والوحي الإشارة السريعة على ماذكره الراغب - مفعول مطلق نوعيّ و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعيّ ، والمعنى ما كان لبشر أن يكلّمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلّا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء .

ثمّ إنّ ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام و قد قيّد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب والرسول الّذي يوحي إلى النبيّ ولم يقيّد القسم الأوّل بشيء فظاهرالمقابلة يفيد أنّ المرادبه التكليم الخفيّ من دون أن يتوسّط واسطة بينه تعالى و بين النبيّ أصلا ، و أمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحي و كلّ منهما واسطة غير أنّ الفارق أنّ الواسطة الّذي هو الرسول يوحي إلى النبيّ بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح و إنّما الوحي من ورائه .

فتحصّل أنّ القسم الثالث « أويرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء » وحي بتوسّط الرسول الّذي هوملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله مايشاء الله سبحانه قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل من كان عدوّاً لجبريل فانّه نزّله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ ، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: « بما أوحينا إليك هذا القرآن » يوسف : ٣ .

و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد بالرسول في قوله : « أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » هو النبيّ يبلغ الناس الوحي فلايلائمه قوله : « يوحي » إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبيّ .

و أنّ القسم الثاني « أو من وراء حجاب » وحي مع واسطة هو الحجاب غير أنّ الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث و إنّما يبتديء الوحي ممّا وراءه لمكان من ، و ليس وراء بمعنى خلف و إنّما هو الخارج عن الشيء المحيط به قال تعالى : « والله من ورائهم محيط » البروج : ٢٠ و هذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور قال تعالى : « فلمّا أتاها نودي من شاطيء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ و من هذا الباب ما اُوحي إلى الأنبياء في مناماتهم

و أنّ القسم الأوّل تكليم إلهي للنبيّ من غير واسطة بينه و بين ربّه من رسول أو أيّ حجاب مفروض .

و لمّا كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقّق و بهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال : « إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده » النساء : ١٦٣ ، و قال : « و ما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم » النحل : ٤٣.

هذا ما يعطيه التدبّر في الآية الكريمة ، و للمفسّرين فيها أبحاث طويلة الذيل و مشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات .

و قوله : « إنّه عليّ حكيم » تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوّه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلّمهم كما يكلّم بعضهم بعضاً ، ولعلوّه وحكمته يكلّمهم بما اختار من الوحي و ذلك أنّ هداية كلّ نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال : « الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و سعادة الإنسان الّذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته و الدلالة إلى سنّة الحياة الّتي تنتهي إليها ولا يكفي في ذلك العقل الّذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الّذي لا يخطيء البتّة ، و قد فصّلنا القول في هذه الحجّة في موارد من هذا الكتاب .

قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب

ولا الايمان » الخ ظاهر السياق كون « كذلك » إشارة إلى ماذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث ، و يؤيّده الروايات الكثيرة الدالّة على أنّه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسّط جبريل و هو القسم الثالث كان يوحى إليه في المنام و هو من القسم الثاني و يوحى إليه من دون توسّط واسطة و هو القسم الأوّل .

و قيل : الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء و هذا متعيّن على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمريّ كما سيأتي .

والمراد بإيحاء الروح - على ما قيل - إيحاء القرآن و اُيّد بقوله : « ولكن جعلناه نوراً » الخ و من هنا قيل : إنّ المراد بالروح القرآن .

لكن يبقى عليه أوّلاً أنّه لا ريب أنّ الكلام مسوق لبيان أنّ ما عندك من المعارف والشرائع الّتي تتلبّس بها و تدعو الناس إليها ليس ممّا أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزّل إليك بوحينا ، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله : « ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » لأنّ المراد بالكتاب القرآن فيكون الايمان زائداً مستغنى عنه .

و ثانياً أنّ القرآن و إن أمكن أن يسمّى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى : « إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ و قال : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ لكن لاوجه لتقييده حينئذ بقوله : « من أمرنا » والظاهر من كلامه تعالى أنّ الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم قال تعالى : « تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر » القدر : ٤ ، و قال : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّا » النباء : ٣٨ وقال: « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ ، و قال : « و أيّدناه بروح القدس » البقرة : ٨٧ ، وقد سمّى جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال: «نزل به الروح الأمين» الشعراء : ١٩٤ ، و قال : « قل نزّله روح القدس من ربّك » النحل : ١٠٢ .

و يمكن أن يجاب عن الأوّل بأنّ مقتضى المقام و إن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لمّا كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع

من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه و آثاره الحسنة صحّ أن يذكر مع الكتاب فالمعنى و كذلك أوحينا إليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ماتجده في نفسكمن أثره الحسن الجميل و هو إيمانك به .

و عن الثاني أنّ المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى و إرادة الروح الأمريّ أو جبريل منه يوجب أخذ «أوحينا» بمعنى أرسلنا إذ لا يقال : أوحينا الروح الأمريّ أو الملك فلا مفرّ من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء .

وقيل : المراد بالروح جبريل فإنّ الله سمّاه في كتابه روحاً قال : «نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل نزّله روح القدس من ربّك » .

وقيل : المراد بالروح الروح الأمريّ الّذي ينزّل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل : ٢ فالمراد بإيحائه إليه إنزاله عليه .

و يمكن أن يوجّه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأنّ أمره تعالى على ما يعرّفه في قوله : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن » يس : ٨٣ هو كلمته ، والروح من أمره كما قال : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : فهو كلمته ، و يصدّق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه‌السلام : « إنّما المسيح عيسى بن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه » النساء : ١٧١ ، و إنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحائه ، والأنبياء مؤيّدون بالروح في أعمالهم كما أنّهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى : « و أيّدناه بروح القدس » وقد تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى: « و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة » الأنبياء : ٧٣ .

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله: « روحاً » منصوباً بنزع الخافض ورجوع ضمير «جعلناه» إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب والمعنى و كذلك أوحينا إليك القرآن بروح منّا ماكنت تدري ما الكتاب

و ما الايمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نوراً الخ هذا و ما أذكر أحداً من المفسّرين قال به .

و قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » قد تقدّم أنّ الآية مسوقة لبيان أنّ ما عنده صلى الله عليه وآله وسلم الّذي يدعو إليه إنّما هو من عند الله سبحانه لا من قبله نفسه و إنّما اُوتي ما اُوتي من ذلك بالوحي بعد النبوّة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقاديّة والشرائع العمليّة فإنّ ذلك هو الّذي اُوتي العلم به بعد النبوّة والوحي ، و بعدم درايته بالايمان عدم تلبّسه بالالتزام التفصيليّ بالعقائد الحقّة و الأعمال الصالحة و قد سمّي العمل إيماناً في قوله : « و ما كان الله ليضيع إيمانكم » البقرة : ١٤٣ .

فالمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبّساً بما أنت متلبّس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقاديّ والعمليّ بمضامينه و هذا لا ينافي كونه صلى الله عليه وآله مؤمناً بالله موحّداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإنّ الّذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً و عملاً و نفي العلم والالتزام التفصيليّين لا يلازم نفي العلم والالتزام الإجماليين بالايمان بالله والخضوع للحقّ .

وبذلك يندفع ما استدلّ بعضهم بالآية على أنّه صلى الله عليه وآله كان غير متلبّس بالايمان قبل بعثته .

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنّه صلى الله عليه وآله لم يزل كاملاً في نفسه علماً و عملاً وهو ينافي ظاهر الآية أنّه ما كان يدري ما الكتاب ولا الايمان .

و وجه الاندفاع أنّ من الضروريّ وجود فرق في حاله صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوّة وبعدها والآية تشير إلى هذا الفرق ، وأنّ ما حصل له بعد النبوّة لا صنع له فيه وإنّما هو من الله من طريق الوحي .

و قوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » ضمير « جعلناه » للروح والمراد بقوله : « من نشاء » على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و من آمن به فإنّهم جميعاً مهتدون بالقرآن .

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمري فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء ومن آمن بهم من اُممهم فانّه يهدي بالوحي الّذي نزل به ، الأنبياء والمؤمنين من اُممهم ويسدّد الأنبياء خاصّة و يهديهم إلى الأعمال الصالحة و يشير عليهم بها .

و على هذا تكون الآية في مقام تصديق النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تصدّقه في دعواه أنّ كتابه من عند الله بوحي منه ، و تصدّقه في دعواه أنّه مؤمن بما يدعو إليه فيكون في معنى قوله تعالى : « إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم » يس : ٥ .

و قوله : « و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم » إشارة إلى أنّ الّذي يهدي إليه صراط مستقيم و أنّ الّذي يهديه من الناس هو الّذي يهديه الله سبحانه فهدايته صلّى الله عليه وآله هداية الله .

قوله تعالى : « صراط الله الّذي له ما في السماوات و ما في الأرض » إلخ بيان للصراط المستقيم الّذي يهدي إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله ، و توصيفه تعالى بقوله : « الّذي له ما في السماوات و ما في الأرض » للدلالة على الحجّة على استقامة صراطه فانّه تعالى لمّا ملك كلّ شيء ملك الغاية الّتي تسير إليها الأشياء والسعادة الّتي تتوجّه إليها ، فكانت الغاية والسعادة هي الّتي عيّنها ، و كان الطريق إليها والسبيل الّذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الّذي شرعه و بيّنه ، و ليس يملك أحد شيأ حتّى ينصب له غاية و نهاية أو يشرع له إليها سبيلا ، فالسعادة الّتي يدعو سبحانه إليها حقّ السعادة والطريق الّذي يدعو إليه حقّ الطريق و مستقيم الصراط .

و قوله : « ألا إلى الله تصير الاُمور » تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات و ما في الأرض فإنّ لازمه رجوع اُمورهم إليه ولازمه كون السبيل الّذي يسلكونه ـ وهو من جملة اُمورهم ـ راجعاً إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعني قوله : « تصير » للاستمرار .

و فيه إشعار بلمّ الوحي والتكليم الإلهيّ إذ لمّا كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكلّ نوع إليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و هو تكليم كلّ نوع بما يناسب ذاته

و هو في الإنسان التكليم المسمّى بالوحي والإرسال .

و قيل : المضارع للاستقبال و المراد مصيرها جميعاً إليه يوم القيامة ، و قدسيقت الجملة لوعد المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالّين عنه وأوّل الوجهين أظهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج البخاريّ و مسلم والبيهقيّ عن عائشة أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عنّي و قد وعيت عنه ما قال و هو أشدّه عليّ ، و أحياناً يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : و لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم و إنّ جبينه ليتفصّد عرقا .

و في التوحيد بإسناده عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك الغشية الّتي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد ذاك إذا تجلّى الله له . قال : ثمّ قال : تلك النبوّة يازرارة و أقبل يتخشّع .

و في العلل بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان جبرئيل إذا أتى النبيّ صلّى الله عليه وآله قعد بين يديه قعدة العبد ، وكان لا يدخل حتّى يستأذنه .

و في أمالي الشيخ بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السّلام قال : قال بعض أصحابنا : أصلحك الله كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : قال جبرئيل ، وهذا جبرئيل يأمرني ثمّ يكون في حال اُخرى يغمى عليه فقال أبوعبدالله عليه السلام : إنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله ، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل و هذا جبرئيل.

و في البصائر عليّ بن حسّان عن ابن بكير عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام

من الرسول ؟ من النبيّ ؟ من المحدّث ؟ فقال : الرسول الّذي يأتيه جبرئيل فيكلّمه قبلا فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الّذي يكلّمه فهذا الرسول ، والنبيّ الّذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ، و نحو ما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله من السبات إذاأتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبيّ ، و منهم من يجمع له الرسالة والنبوّة فكان رسول الله صلّى الله عليه و آله رسولاً نبيّاً يأتيه جبرئيل قبلاً فيكلّمه و يراه ، و يأتيه في النوم و أمّا المحدّث فهو الّذي يسمع كلام الملك فيحدّثه من غير أن يراه و من غير أن يأتيه في النوم .

أقول : و في معناه روايات اُخر .

و في التوحيد با سناده عن محمّد بن مسلم ومحمّد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما علم رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ جبرئيل من قبل الله إلّا بالتوفيق .

و في تفسير العيّاشي عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان ؟ قال : فقال : إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه .

وفي الكافي با سناده عن أبي بصير قال : سألت أباعبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك و تعالى : « و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولاالا يمان » قال : خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره و يسدّده ، و هو مع الأئمّة من بعده .

أقول : و في معنا ها عدّة روايات و في بعضها أنّه من الملكوت ، قال في روح المعاني : و نقل الطبرسيّ عن أبي جعفر و أبي عبد الله أنّ المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله و لم يصعد إلى السماء ، و هذا القول في غاية الغرابة ولعلّه لا يصحّ عن هذين الا مامين . انتهى والّذي في مجمع البيان: عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام قالا : ولم يصعد إلى السماء و إنّه لفينا . انتهى و استغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب . على أنّه يسلّم تسديد هذا الروح لبعض

الأُمّة غير النبيّ كما هو ظاهر لمن راجع قسم الاشارات من تفسيره .

و في النهج و لقد قرن الله به صلى الله عليه و آله و سلم من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره .

و في الدرّ المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل و ابن عساكر عن عليّ قال : قيل للنبيّ صلى الله عليه و آله : هل عبدت وثناً قطّ ؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمراً قطّ ؟ قال : « لا و مازلت أعرف أنّ الذي هم عليه كفر و ما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ، و بذلك نزل القرآن « ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » .

و في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ، و قال في نبيّه صلى الله عليه و آله : « و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم » يقول : تدعو .

و في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول : وقع مصحف في البحر فوجدوه و قد ذهب ما فيه إلّا هذه الآية : « ألا إلى الله تصير الأمور » .

﴿سورة الزخرف و هي تسع وثمانون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) اِنَّا جَعَلْناهُ
قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ اِنَّهُ فِي اُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ
حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَ
كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْاَوَّلِينَ (٦) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ اِلَّا كانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْاَوَّلِينَ (٨) وَ
لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)
وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)
وَالَّذِي خَلَقَ الْاَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْاَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢)
لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ اِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا
سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ اِنَّا اِلى رَبِّنا
لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

﴿بيان﴾

السورة موضوعة الإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما إلّا ما في قوله : « إلّا المتّقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم » إلى تمام ستّ آيات استطرادية .

تذكر أنّ السنّة الإلهيّة إنزال الذكر و إرسال الأنبياء والرسل ولا يصدّه عن ذلك إسراف الناس في قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء والرسل و يهلك المستهزئين بهم والمكذّبين لهم ثمّ يسوقهم إلى نار خالدة.

و قد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أوّلاً ثمّ سمّي منهم إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى عليه‌السلام، وذكرت من إسراف الكفّار أشياء ومن عمدتها قولهم بأنّ لله سبحانه ولداً و أنّ الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصّة بنفي الولد عنه تعالى فكرّرت ذلك وردّته و أوعدتهم بالعذاب، و فيها حقائق متفرّقة اُخرى.

و السورة مكّيّة بشهادة مضامين آياتها إلّا قوله: « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » الآية ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله.

قوله تعالى: « والكتاب المبين » ظاهره أنّه قسم و جوابه قوله: « إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً » إلى آخر الآيتين، وكون القرآن مبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى: « و نزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء » النحل: ٨٩، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال: « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة: ٢.

قوله تعالى: « إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً لعلّكم تعقلون » الضمير للكتاب، و « قرآناً عربيّاً » أي مقروّاً باللغة العربيّة و « لعلّكم تعقلون » غاية الجعل و غرضه.

وجعل رجاء تعقّله غاية للجعل المذكور يشهد بأنّ له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، و من شأن العقل أن ينال كلّ أمر فكريّ و إن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ فمفاد الآية أنّ الكتاب بحسب موطنه الّذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبيّ عن العقول البشريّة و إنّما جعله الله قرآنا عربيّاً و ألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلّم كما تقدّم غير مرّة.

قوله تعالى: « وإنّه في اُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم » تأكيد و تبيين لما تدلّ عليه الآية السابقة أنّ الكتاب في موطنه الأصليّ وراء تعقّل العقول.

والضمير للكتاب، والمراد باُمّ الكتاب اللّوح المحفوظ كما قال تعالى: « بل

هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ ، و تسميته بأُمّ الكتاب لكونه أصل الكتب السماويّة يستنسخ منه غيره ، و التقييد بأُم الكتاب و « لدينا » للتوضيح لا للاحتراز والمعنى أنّه حال كونه في أُمّ الكتاب لدينا ـ حالاً لازمة ـ لعليّ حكيم ، و سيجيىء في أواخر سورة الجاثية كلام في أُمّ الكتاب إن شاء الله .

والمراد بكونه عليّاً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنّه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول ، و بكونه حكيماً أنّه هناك محكم غير مفصّل ولا مجزّى إلى سور و آيات و جمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربيّاً كما استفدناه من قوله تعالى : « كتاب أُحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير » هود : ٢ .

وهذان النعتان أعني كونه عليّاً حكيماً هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريّة فإنّ العقل في فكرته لا ينال إلّا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أوّلاً و كان مؤلّفاً من مقدّمات تصديقيّة يترتّب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنيّة ، و أمّا إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزّ إلى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل إلى نيله .

فمحصّل معنى الآيتين أنّ الكتاب عندنا في اللّوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين و إنّما أنزلناه بجعله مقروّاً عربيّاً رجاء أن يعقله النّاس .

فإن قلت : ظاهر قوله : « لعلّكم تعقلون » إمكان تعقّل الناس هذا القرآن العربيّ النازل تعقّلا تامّاً فهذا الّذي نقرؤه و نعقله إمّا أن يكون مطابقاً لما في اُمّ الكتاب كلّ المطابقة أو لا يكون والثاني باطل قطعاً كيف ؟ و هو تعالى يقول : « وإنّه في اُمّ الكتاب » و « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢ و « إنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ . فتعيّن الأوّل و مع مطابقته لأُمّ الكتاب كلّ المطابقة ما معنى كون القرآن العربيّ الّذي عندنا معقولاً لنا و ما في اُمّ الكتاب عند الله غير معقول لنا ؟

قلت : يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في اُمّ الكتاب نسبة المثل والممثّل

فالمثل هو الممثّل بعينه لكنّ الممثّل له لا يفقه إلّا المثل فافهم ذلك .

و بما مرّ يظهر ضعف الوجوه الّتي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم : إنّ المراد بكونه عليّاً أنّه عال في بلاغته مبين لما يحتاج إليه الناس ، و قول بعضهم معناه أنّه يعلو كلّ كتاب بما اختصّ به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب ، و قول بعضهم يعني أنّه يعظّمه الملائكة والمؤمنون .

وكقول بعضهم في معنى « حكيم » أنّه مظهر للحكمة البالغة ، وقول بعضهم معناه أنّه لا ينطق إلّا بالحكمة ولا يقول إلّا الحقّ والصواب ، ففي توصيفه بالحكيم تجوّز لغرض المبالغة . و ضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبّر في مفاد الآية السابقة و ظهور أنّ جعله قرآناً عربيّاً بالنزول عن اُمّ الكتاب .

قوله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » الاستفهام للإنكار ، و الفاء للتفريع على ما تقدّم ، وضرب الذكر عنهم صرفه عنهم قال في المجمع : و أصل ضربت عنه الذكر أنّ الراكب إذا ركب دابّة فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعصىً أو سوط ليعدل به إلى جهة اُخرى ثمّ وضع الضرب موضع الصرف والعدل . انتهى والصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له ، و احتمل أن يكون بمعنى الجانب « و أن كنتم » محذوف الجارّ والتقدير لأن كنتم و هو متعلّق بقوله : « أفنضرب » .

والمعنى أفنصرف عنكم الذكر - و هو الكتاب الّذي جعلناه قرآنا لتعقلوه - للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أي إنّا لا نصرفه عنكم لذلك .

قوله تعالى : « و كم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين و ما يأتيهم من نبيّ إلّا كانوا به يستهزؤن » « كم » للتكثير ، والأوّلون هم الاُمم الدارجة و « و ما يأتيهم » الخ حال والعامل فيها « أرسلنا » .

والآيتان وما يتلوهما في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أنّ كونكم قوما مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنّة الهداية من طريق الوحي فإنّا كثيرا مّا أرسلنا من نبيّ في الاُمم الماضين والحال أنّه ما يأتيهم من نبيّ إلّا استهزؤا به و انجرّ الأمر

إلى أن أهلكنا من اُولئك من هو أشدّ بطشاً منكم .

فكما كانت عاقبة إسرافهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة إسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبيّ صلى الله عليه وآله و وعيد لقومه .

قوله تعالى : « فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً و مضى مثل الأوّلين » قال الراغب : البطش تناول الشيء بصولة . انتهى و في الآية التفات في قوله : « منهم » من الخطاب إلى الغيبة ، وكأنّ الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر و ليكون تمهيداً لقوله بعد : « و مضى مثل الأوّلين » و يؤيّده قوله بعد : « ولئن سألتهم» خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وآله . ومعنى قوله : « و مضى مثل الأوّلين» و مضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الاُمم الأوّلين و أنّه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن .

قوله تعالى : «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم » في الآية و ما يتلوها إلى تمام ستّ آيات احتجاج على ربوبيّته تعالى وتوحّده فيها مع إشارة مّا إلى المعاد و تبكيت لهم على إسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنّه تعالى هو خالق الكلّ ثمّ الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لاُمور العباد كجعل الأرض لهم مهداً وجعله فيها سبلاً و إنزال الأمطار فينتج أنّه تعالى وحده مالك مدبّر لاُمورهم فهو الربّ لا ربّ غيره .

و بذلك تبيّن أنّ الآية تقدمة و توطئة لما تتضمّنه الآيات التالية من الحجّة وقد تقدّم في هذا الكتاب مراراً أنّ الوثنيّة لا تنكر رجوع الصنع والإيجاد إليه تعالى وحده و إنّما تدّعي رجوع أمر التدبير إلى غيره .

قوله تعالى : « الّذي جعل لكم الأرض مهداً و جعل لكم فيها سبلاً لعلّكم تهتدون » أي جعل لكم الأرض بحيث تربّون فيها كما يربّى الأطفال في المهد ، وجعل لكم في الأرض سبلاً و طرقاً تسلكونها و تهتدون بها إلي مقاصدكم .

وقيل : معنى « لعلّكم تهتدون » رجاء أن تهتدوا إلى معرفة الله وتوحيده في العبادة والأوّل أظهر .

و في الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و لعلّ الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أنّ التدبير بعينه من الخلق فاعترافهم بكون الخلق مختصّاً بالله سبحانه و قولهم برجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التهافت في القول جهلاً فقرعهم بهذا الخطاب من غير واسطة .

قوله تعالى : « والّذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون » قيّد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنّه عن إرادة و تدبير لا كيف اتّفق والإنشار الإحياء ، والميت مخفّف الميّت بالتشديد ، و توصيف البلدة به باعتبار أنّها مكان لأنّ البلدة أيضاً إنّما تتّصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان ، والالتفات عن الغيبة إلى التكلّم مع الغير في « أنشرنا » لإظهار العناية .

و لمّا استدلّ بتنزيل الماء بقدر وإحياء البلدة الميّتة على خلقه و تدبيره استنتج منه أمراً آخر لايتمّ التوحيد إلّا به وهو المعاد الّذي هورجوع الكلّ إليه تعالى فقال: « كذلك تخرجون » أي كما أحيا البلدة الميّتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء .

قيل : في التعبيرعن إخراج النبات بالإنشار الّذي هوإحياء الموتى و عن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات و تهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال و توضيح منهاج القياس .

قوله تعالى : « والّذي خلق الأزواج كلّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » قيل : المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر و اُنثى و أبيض و أسود و غيرها ، وقيل : المراد الزوج من كلّ شيء فكلّ ما سوى الله كالفوق و تحت واليمين واليسار والذكر والاُنثى زوج .

و قوله : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » أي تركبونه ، والركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس والإبل تعدّى بنفسه فيقال : ركبت الفرس و إذا نسب إلى مثل الفلك والسفينة تعدّى بفي فيقال ركب فيه قال تعالى : و « إذا ركبوا في الفلك » ففي قوله : « ما تركبون » أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام .

قوله تعالى : « لتستوا على ظهوره ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه و

تقولوا ـ إلى قوله ـ لمنقلبون» الاستواء على الظهور الاستقرار عليها ، والضمير في «ظهوره» راجع إلى لفظ الموصول في « ما تركبون » ، والضمير في قوله : « إذا استويتم عليه » للموصول أيضاً فكما يقال : استويت على ظهر الدابّة يقال : استويت على الدابّة .

والمراد بذكر نعمة الربّ سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم الّتي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان إلى مكان و حمل الأثقال قال تعالى : « و سخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » إبراهيم : ٣٢ و قال : « والأنعام خلقها ـ إلى أن قال ـ و تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس » النحل : ٧ ، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه .

و قوله : « و تقولوا سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين » أي مطيقين والإقران الإطاقة .

و ظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول : «سبحان الّذي » إلخ فإنّ هذا القول تسبيح و تنزيه له عمّا لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبيّة والاُلوهيّة ، و ذكر النعمة شكر ـ كما تقدّم ـ والشكر غير التنزيه .

و يؤيّد هذا ما ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله و أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإنّ الروايات على اختلافها تتضمّن التحميد وراء التسبيح يقول «سبحان الّذي » إلخ .

و روى في الكشّاف عن الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه رآى رجلا يركب دابّة فقال : سبحان الّذي سخّر لنا هذا فقال : أبهذا اُمرتم ؟ فقال : و بم اُمرنا ؟ قال : أن تذكروا نعمة ربّكم .

و قوله : « و إنّا إلى ربّنا لمنقلبون » أي صائرون شهادة بالمعاد .

✡ ✡ ✡

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَيكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (١٩) وَ قَالُوا لَوْشَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْجِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥).

﴿بيان﴾

حكاية بعض أقوالهم التي دعاهم إلى القول بها الإسراف والكفر بالنعم وهو قولهم بالولد وأنّ الملائكة بنات الله سبحانه ، واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة وردّه عليهم.

قوله تعالى :« وجعلوا له من عباده جزء إنّ الإنسان لكفور مبين» المراد بالجزء الولد فإنّ الولادة إنّما هي بالاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصوّر بصورته.

و إنّما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحالة دعواهم ، فإنّ جزئيّة شيء من شيء كيفما تصوّرت لا تتمّ إلّا بتركّب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات .

و قد بان بما تقدّم أنّ « من عباده » بيان لقوله : « جزء » ولا ضير في تقدّم هذا النوع من البيان على المبيّن ولا في جمعيّة البيان و إفراد المبيّن .

قوله تعالى : « أم اتّخذ ممّا يخلق بنات و أصفاكم بالبنين » أي أخلصكم للبنين فلكم بنون وليس له إلّا البنات وأنتم ترون أنّ البنت أخسّ من الابن فتثبتون له أخسّ الصنفين و تخصّون أنفسكم بأشرفهما ، و هذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزراء و إهانة ظاهرة و كفران .

و تقييد اتّخاذ البنات بكونه ممّا يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة ـ على ربوبيّتهم و اُلوهيّتهم ـ مخلوقين لله ، والالتفات في الآيات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام و تثبيت التوبيخ ، والتنكير والتعريف في « بنات » و« البنين» للتحقير والتفخيم .

قوله تعالى : « و إذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظلّ وجهه مسودّاً و هو كظيم » المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء و ضرب الشيء مثلاً أخذه مجانساً للشيء « و ما ضرب للرحمان مثلا » الاُنثى ، والكظيم المملوء كرباً و غيظاً .

والمعنى و حالهم أنّه إذا بشّر أحدهم بالاُنثى الّذي جعلها شبهاً مجانساً للرحمان صار وجهه مسودّاً من الغمّ و هو مملوء كرباً و غيظاً لعدم رضاهم بذلك و عدّه عاراً لهم لكنّهم يرضونه له .

والالتفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتّى يتعجّب منه .

قوله تعالى : « أو من ينشّؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » أي أوجعلوا لله سبحانه من ينشّؤ في الحلية أي يتربّى في الزينة و هو في المخاصمة و المحاجّة غير مبين لحجّته لا يقدر على تقرير دعواه .

و إنّما ذكر هذين النعتين لأنّ المرأة بالطبع أقوى عاطفة و شفقة و أضعف

تعقّلاً بالقياس إلى الرجل وهو بالعكس ومن أوضح مظاهر قوّة عواطفها تعلّقها الشديد بالحلية والزينة و ضعفها في تقرير الحجّة المبنيّ على قوّة التعقّل .

قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمان إناثاً إلخ » هذا معنى قولهم : إنّ الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليّة و أمّاغيرهم من الوثنيّة فربّما عدّوا في آلهتهم إلهة هي اُمّ إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكيّ في الآية الكريمة .

و إنّما وصف الملائكة بقوله : « الّذين هم عباد الرحمان » ردّاً لقولهم باُنوثتهم لأنّ الاناث لايطلق عليهنّ العباد ، ولايلزم منه اتّصافهم بالذكورة بالمعنى الّذي يتّصف به الحيوان فإنّ الذكورة والاُنوثة اللّتين في الحيوان من لوازم وجوده المادّي المجهّز للتناسل و توليد المثل ، و الملائكة في معزل من ذلك .

و قوله : « أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم و يسألون » ردّ لدعواهم الاُنوثة في الملائكة بأنّ الطريق إلى العلم بذلك الحسّ وهم لم يروهم حتّى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتّى يشاهدوا منهم ذلك .

فقوله : « أشهدوا خلقهم إلخ » استفهام إنكاريّ و وعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم و يسألون عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : « و قالوا لوشاء الرحمان ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلّا يخرصون » حجّة عقليّة داحضة محكيّة عنهم يمكن أن تقرّر تارة لإثبات صحّة عبادة الشركاء بأن يقال : لوشاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته لكنّا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك و عدم مشيّته عدمَ عبادتهم إذنٌ في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم ، و هذا المعنى هو المنساق إلى الذهن من قوله في سورة الأنعام : « سيقول الّذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء» الأنعام : ١٤٨ على ما يعطيه سياق ما قبله وما بعده .

وتقرّر تارة لا بطال النبوّة القائلة أنّ الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرّم عليكم كذا وكذا بأن يقال لوشاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحلّ ولا نحرّم شيأ لم نعبد الشركاء ولم نضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته لكنّا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشإ الله سبحانه منّا شيأ فقول إنّ الله يأمركم بكذا و ينهاكم عن كذا وبالجملة إنّه شاء كذا باطل .

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل : « و قال الّذين أشركوا لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ بالنظر إلى السياق .

و قولهم في محكيّ الآية المبحوث عنها : « لوشاء الرحمان ما عبدناهم » على ما يفيده سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأوّل و هو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام و أخصّ منها .

و قوله : « ما لهم بذلك من علم » أي هو منهم قول مبنيّ على الجهل فإنّه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينيّة والإرادة التشريعيّة و أخذ الاُولى مكان الثانية فمقتضى الحجّة أن لا إرادة تكوينيّة منه تعالى متعلّقة بعدم عبادتهم الملائكة و انتفاء تعلّق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلّق الإرادة التشريعيّة به .

فهو سبحانه لمّا لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينيّة كانوا مختارين غير مضطرّين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعيّة أن يوحّدوه ولا يعبدوا الشركاء ، والإرادة التشريعيّة لا يستحيل تخلّف المراد عنها لكونها اعتباريّة غير حقيقيّة ، و إنّما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية ، والحقيقة الّتي تبتني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة .

و بما تقدّم يظهر فساد ما قيل : إنّ حجّتهم مبنيّة على مقدّمتين : الاُولى أنّ عبادتهم للملائكة بمشيّته تعالى ، والثانية أنّ ذلك مستلزم لكونها مرضيّة عنده تعالى و قد أصابوا في الاُولى و أخطأوا في الثانية حيث جهلوا أنّ المشيّة عبارة عن ترجيح

بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين .

وجه الفساد أنّ مضمون الحجّة عدم تعلّق المشيّة على ترك العبادة و عدم تعلّق المشيّة بالترك لا يستلزم تعلّق المشيّة بالفعل بل لازمه الاذن الّذي هو عدم المنع من الفعل . ثمّ إنّ ظاهر كلامه قصر الارادة في التكوينيّة و إهمال التشريعيّة الّتي عليها المدار في التكاليف المولويّة و هو خطأ منه .

ويظهر أيضاً فساد ما نسب إلى بعضهم أنّ المراد بقولهم : «لوشاء الرحمان ماعبدناهم» الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلّق مشيّة الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة .

و ذلك أنّهم لم يكونوا مسلّمين لقبح عبادة آلهتهم حتّى يعتذروا عنها و قد حكي عنهم ذيلا قولهم : « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة و إنّا على آثارهم مهتدون » .

و قوله : « إن هم إلّا يخرصون » الخرص - على ما يظهر من الراغب - القول على الظنّ والتخمين ، و فسّر أيضاً بالكذب .

قوله تعالى : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » ضمير « من قبله» للقرآن ، و في الآية نفي أن يكون لهم حجّة من طريق النقل كما أنّ في الآية السابقة نفي حجّتهم من طريق العقل ، و محصّل الآيتين أن لا حجّة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها .

قوله تعالى : « بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة و إنّا على آثارهم مهتدون» الاُمّة الطريقة الّتي تؤمّ وتقصد ، والمراد بها الدين ، والاضراب عمّا تحصّل من الآيتين والمعنى لا دليل لهم على حقّيّة عبادتهم بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على دين وإنّا على آثارهم مهتدون أي إنّهم متشبّثون بتقليد آبائهم فحسب .

قوله تعالى : « و كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا » إلخ أي إنّ التشبّث بذيل التقليد ليس ممّا يختصّ بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الاُمم المشركين و ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبيّ إلّا تشبّث متنعّموها بذيل التقليد وقالوا : إنّا وجدنا أسلافنا على دين و إنّا على آثارهم

مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم .

و نسبة القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أنّ الإتراف والتنعّم هوالّذي يدعوهم إلى التقليد و يصرفهم عن النظر في الحقّ .

قوله تعالى : « قال أو لوجئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم » إلخ القائل هو النذير ، والخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعيّة ، والعطف في « أولوجئتكم » على محذوف يدلّ عليه كلامهم ، و التقدير إنّكم على آثارهم مقتدون و لو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم ؟ والمحصّل هل أنتم لازمون لدينهم حتّى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه ؟ و عدّ النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لاهدى فيه من باب مجاراة الخصم .

و قوله : « قالوا إنّا بما اُرسلتم به كافرون » جواب منهم لقول النذير : « أولوجئتكم »الخ و هو تحكّم من غير دليل .

قوله تعالى : « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين » أي تفرّع على ذلك الإرسال والردّ بالتقليد والتحكّم أنّا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة اُولئك السابقين من أهل القرى ، وفيه تهديد لقوم النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم .

☆ ☆ ☆

وَ اِذْ قَالَ اِبْرٰهيمُ لِاَبيهِ وَ قَوْمِهِ اِنَّنى بَرٰاۤءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)
اِلَّا الَّذى فَطَرَنى فَاِنَّهُ سَيَهْدينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هٰۤؤُلٰاۤءِ وَ آبٰاۤءَهُمْ حَتّٰى جٰاۤءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ
مُبينٌ (٢٩) وَ لَمّٰا جٰاۤءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ اِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ (٣٠)
وَ قٰالُوا لَوْلٰا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلٰى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ(٣٠) أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَ
رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَ رَحْمَةُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْلٰا أَنْ يَكُونَ النّٰاسُ اُمَّةً وٰاحِدَةً لَجَعَلْنٰا
لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ(٣٣)
وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَ زُخْرُفاً وَ اِنْ كُلُّ ذٰلِكَ
لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَالْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقينَ (٣٥) وَ مَنْ يَعْشُ
عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرينٌ (٢٦) وَاِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ
عَنِ السَّبيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتّٰى اِذٰا جٰاۤءَنٰا قٰالَ يٰالَيْتَ
بَيْنى وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ اِذْ
ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ

وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١)
أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ
وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ
دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

لمّا انجرّ الكلام إلى ردّهم رسالة الرسول وكفرهم بها تحكّماً وتشبّثهم في الشرك بذيل تقليد الآباء والأسلاف من غير دليل عقّب ذلك بالإشارة إلى قصّة إبراهيم عليه السلام و رفضه تقليد أبيه و قومه وتبرّيه عمّا يعبدونه من دون الله سبحانه واستهدائه هدى ربّه الّذي فطره .

ثمّ يذكر تمتيعه لهم بنعمه و كفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه و في رسوله بما هو مردود عليهم . ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله و ما تنتهي إليه من الشقاء والخسران ، و يعطف عليه إيآس النبيّ صلى الله عليه وآله من إيمانهم و تهديدهم بالعذاب و يؤكّد الأمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يستمسك بالقرآن و أنّه لذكر له و لقومه و سوف يسألون عنه ، و أنّ الّذي فيه من دين التوحيد هو الّذي كان عليه الأنبياء السابقون عليه .

قوله تعالى : « و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إنّني براء ممّا تعبدون » البراء مصدر من برىء يبرء فهو بريء فمعنى «إنّني براء» إنّني ذو براء أو بريء على سبيل

المبالغة مثل زيد عدل .

وفي الآية إشارة إلى تبرّي إبراهيم عليه السلام ممّا كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجّهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء و غيرها .

والمعنى واذكر لهم إذ تبرّء إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إذ كانوا يعبدونها تقليداً لآبائهم من غير حجّة و قام بالنظر وحده .

قوله تعالى : « إلّا الّذي فطرني فإنّه سيهدين » أي إلّا الّذي أوجدني و هو الله سبحانه ، و في توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجّة على ربوبيّته و اُلوهيّته فإنّ الفطر والإيجاد لا ينفكّ عن تدبير أمر الموجود المفطور فالّذي فطر الكلّ هو الّذي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد .

و قوله : « فإنّه سيهدين » أي إلى الحقّ الّذي أطلبه ، و قيل : أي إلى طريق الجنّة ، و في هذه الجملة إشارة إلى خاصّة اُخرى ربوبيّة و هي الهداية إلى السبيل الحقّ يجب أن يسلكه الإنسان فإنّ السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الربّ المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله و سعادته قال تعالى : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » العنكبوت : ٦٩ .

والاستثناء في قوله : « إلّا الّذي فطرني » منقطع لأنّ الوثنيّين لا يعبدون الله كما مرّ مراراً فقول بعضهم : « إنّه متّصل ، و أنّهم كانوا يقولون: الله ربّنا مع عبادتهم الأوثان » كما ترى .

قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون » الظاهر أنّ ضمير الفاعل المستتر في « جعلها » لله سبحانه ، والضمير البارز - على ما قيل - لكلمة البراءة الّتي تكلّم بها إبراهيم عليه السلام و معناها معنى كلمة التوحيد فإنّ مفاد « لا إله إلّا الله »

نفي الآلهة غير الله لا نفي الآلهة و إثبات الإله تعالى [1] و هو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلّف به بعضهم أنّ الضمير لكلمة التوحيد المعلوم ممّا تكلّم به إبراهيم عليه‌السلام.

والمراد بعقبه ذرّيته و ولده ، و قوله : «لعلّهم يرجعون »أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم ـ و هم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم و هم العابدون لله ـ إلى عبادته تعالى ، و بهذا يظهر أنّ المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوّهم عن الموحّد ماداموا ، و لعلّ هذا عن استجابة دعائه عليه‌السلام إذ يقول : « و اجنبني و بنيّ أن نعبدالأصنام » إبراهيم : ٣٥ .

و قيل : الضمير في « جعل» لإبراهيم عليه‌السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها والمراد بجعلها باقية فيهم وصيّته لهم بذلك كما قال تعالى : « و وصّى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلّا و أنتم مسلمون» البقرة : ١٣٢ .

و أنت خبير بأنّ الوصيّة بكلمة التوحيد لاتسمّى جعلا للكلمة باقية في العقب و إن صحّ أن يقال : أراد بها ذلك لكنّه غير جعلها باقية فيهم !

و قيل : المراد أنّ الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه و سيجيء الكلام فيه في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .

و يظهر من الآية أنّ ذرّية إبراهيم عليه‌السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « بل متّعت هؤلاء و آباءهم حتّى جاءهم الحقّ و رسول مبين» إضراب عمّا يفهم من الآية السابقة والمعنى أنّ رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوّة منهم لكنّهم لم يرجعوا بل متّعت هؤلاء من قومك و آباءهم فتمتّعوا بنعمي حتّى جاء هم الحقّ و رسول مبين » .

و لعلّ الالتفات إلى التكلّم وحده في قوله : « بل متّعت » للإشارة إلى تفخيم

---

(١) و ذلك أن « الله » فيها مرفوع على البدلية لامنصوب على الاستثناء .

جرمهم و أنّهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة و كفرهم بالحقّ و رميه بالسحر إلّا إيّاه تعالى وحده .

والمراد بالحقّ الّذي جاءهم هو القرآن ، و بالرسول المبين محمّد صلّى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « و لمّا جاءهم قالوا هذا سحر و إنّا به كافرون » هذا طعنهم في الحقّ الّذي جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن في الرسول . كما أنّ قولهم الآتي: « لو لا نزّل » إلخ كذلك .

قوله تعالى : « و قالوا لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكّة والطائف ، ومرادهم بالعظمة ـ على ما يفيده السياق ـ ما هو من حيث المال والجاه اللّذين هما ملاك الشرافة و علوّ المنزلة عند أبناء الدنيا ، والمراد بقوله : « رجل من القريتين عظيم » رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا .

ومرادهم أنّ الرسالة منزلة شريفة إلهيّة لا ينبغي أن يتلبّس به إلّا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه ، والنبيّ صلّى الله عليه وآله فقير فاقد لهذه الخصلة فلو كان القرآن الّذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلو لا نزّل على رجل عظيم من مكّة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة .

و في المجمع : و يعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكّة و أبا مسعود عروة بن مسعود الثقفيّ من الطائف . عن قتادة ، و قيل : عتبة بن أبي ربيعة من مكّة و ابن عبد ياليل من الطائف . عن مجاهد ، و قيل : الوليد بن المغيرة من مكّة و حبيب بن عمر الثقفيّ من الطائف . عن ابن عبّاس . انتهى .

والحقّ أنّ ذلك من تطبيق المفسّرين وإنّما قالوا ما قالوا على الإبهام و أرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » إلخ المراد بالرحمة ـ على ما يعطيه السياق ـ النبوّة .

و قال الراغب : العيش الحياة المختصّة بالحيوان ، و هو أخصّ من الحياة لأنّ الحياة تقال في الحيوان وفي الباريء تعالى و في الملك ، و يشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش

به انتهى ، و قال : التسخير سياقة إلى الغرض المختصّ قهراً ـ إلى أن قال : والسخريّ هو الّذي يُقهر فيتسخّر بإرادته . انتهى .

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم : لو لا نزّل هذا القرآن على رجل » إلخ ومحصّلها أنّ قولهم هذا تحكّم ظاهر ينبغي أن يتعجّب منه فإنّهم يحكمون فيما لا يملكون . هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها و يرتزقون و هي رحمة منّا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلّا متاعاً زائلاً نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم و مشيّتهم فكيف يقسمون النبوّة الّتي هي الرحمة الكبرى و هي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤا و يمنعونها ممّن شاؤا .

فقوله : « أهم يقسمون رحمة ربّك » الاستفهام للإنكار ، والالتفات إلى الغيبة في قوله : « رحمة ربّك » ولم يقل : رحمتنا ، للدلالة على اختصاص النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بعناية الربوبيّة في النبوّة .

والمعنى أنّهم لا يملكون النبوّة الّتي هي رحمة لله خاصّة به حتّى يمنعوك منها و يعطوها لمن هوَوا .

و قوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنّهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوّة بمراحل ولا منزلة له و هو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدّر قدره و هو النبوّة الّتي هي رحمة ربّك الخاصّة به .

والدليل على أنّ الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحّة و في الأولاد و سائر ما يعدّ من الرزق ، و كلّ يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه ، ولا يكاد يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمنّاه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلافهم فيها أوضح دليل على أنّ الرزق مقسوم بمشيّة من الله دون الإنسان .

على أنّ الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الّذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونيّة لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل

المطلوب إلّا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلّا بيدالله الّذي إليه تنتهي الأسباب.

هذا كلّه في المال و أمّا الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنّه يتوقّف على صفات خاصّة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكّن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة و علوّ الهمّة وإحكام العزيمة و كثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتمّ إلّا بصنع من الله سبحانه ، و ذلك قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضا سخريّاً » .

فيتبيّن بمجموع القولين أعني قوله : « نحن قسمنا » إلخ وقوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » إلخ أنّ القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير ، و قوله : « و رحمة ربّك خير ممّا يجمعون» أي النبوّة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم .

و من الممكن أن يكون قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » عطف تفسير على قوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » إلخ يبيّن قسم المعيشة بينهم ببيان علل انقسامها في المجتمع الإنسانيّ بيان ذلك أنّ كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفراديّ أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدرار أوّلاً و على طريق التعاون والتعاضد ثانياً كما مرّ في مباحث النبوّة من الجزء الثاني من الكتاب .

فآل الأمر إلى المعاوضة العامّة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كلّ ممّا عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله ممّا يحتاج إليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الّذي عنده و قد حصّله و اختصّ به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء ، و لازم ذلك أن يسعى كلّ فرد بما يستعدّ له و يحسنه من السعي فيقتني ممّا يحتاج إليه ما يختصّ به ، و لازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخّر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخبّاز يحتاج إلى ما عند السقّاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضة و كالمخدوم يتسخّر للخادم لخدمته والخادم يتسخّر للمخدوم لماله وهكذا فكلّ بعض من المجتمع مسخّر

لآخرين بما عنده والآخرون متسخّرون له بلاواسطة أو بواسطة أو وسائط لما أنّ كلاّ يرتفع على غيره بما يختصّ به ممّا عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلّق الهمم والقصود به .

و على ما تقدّم فالمراد بالمعيشة كلّ ما يعاش به أعمّ من المال والجاه أو خصوص المال و غيره تبع له كما يؤيّده قوله ذيلاً : « و رحمة ربّك خير ممّا يجمعون » فإنّ المراد به المال و غيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع .

قوله تعالى : « و لو لا أن يكون الناس اُمّة واحدة ـ إلى قوله ـ و معارج عليها يظهرون » الآية وما يتلوها لبيان أنّ متاع الدنيا من مال وزينة لاقدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة .

قالوا : المراد بكون الناس اُمّة واحدة كونهم مجتمعين على سنّة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أنّ زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكفّ منها مطلقا ، والمعارج الدرجات والمصاعد .

والمعنى و لو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعّم الكافرين و حرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضّة و درجات عليها يظهرون لغيرهم .

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس اُمّة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر فمن سعى سعيه للرزق و وافقته الأسباب والعوامل الموصلة الاُخرى نال منه مؤمناً كان أو كافرا و من لم يجتمع له حرم ذلك وقتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً .

والمعنى لولا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر الخ .

قوله تعالى : « ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكّؤن و زخرفا » تنكير «أبواباً» و« سرراً » للتفخيم ، والزخرف الذهب أو مطلق الزينة قال في المجمع : الزخرف كمال حسن الشيء و منه قيل للذهب ، و يقال : زخرفه زخرفة إذا حسّنه و زيّنه ، و منه

قيل للنقوش والتصاوير : زخرف ، و في الحديث إنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخل الكعبة حتّى أمر بالزخرف فنحّي . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و إن كلّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين » « إن » للنفي و « لمّا » بمعنى إلّا أي ليس كلّ ما ذكر من مزايا المعيشة إلّا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية الّتي لا تدوم .

و قوله : « و الآخرة عند ربّك للمتّقين » المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كأنّ الحياة الآخرة الشقيّة لا تعدّ حياة .

و المعنى أنّ الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى و قضاء منه مختصّة بالمتّقين ، و هذا التخصيص و القصر يؤيّد ما قدّمناه من معنى كون الناس اُمّة واحدة في الدنيا بعض التأييد .

قوله تعالى : « و من يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له من قرين » يقال : عشي يعشى عشاً من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفة لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط و عشا يعشو عشواً و عشوّاً من باب نصر ينصر إذا تعامى و تعشّى بلا آفة ، و التقييض التقدير و الإتيان بشيء إلى شيء يقال : قيّضه له إذا جاء به إليه .

لمّا انتهى الكلام إلى ذكر المتّقين و أنّ الآخرة لهم عند الله قرنه بعاقبة أمر المعرضين عن الحقّ المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أوّله وهو أنّ تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء الشياطين فيلازمونهم مضلّين لهم حتّى يردوا عذاب الآخرة معهم .

فقوله : « و من يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً » أي من تعامى عن ذكر الرحمن و نظر إليه نظر الأعشى جئنا إليه بشيطان ، و قد عبّر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال : « ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّا » مريم : ٨٣ . و إضافة الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنّه رحمة .

و قوله : « فهو له قرين » أي مصاحب لا يفارقه .

قوله تعالى : « و إنّهم ليصدّونهم عن السبيل و يحسبون أنّهم مهتدون » ضمير

«أنّهم» للشياطين ، و ضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر ، و اعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في « و من يعش» الخ ، و الصدّ الصرف ، و المراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الّذي هودين التوحيد .

و المعنى و إنّ الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنّهم ـ أي العاشين أنفسهم ـ مهتدون إلى الحقّ .

و هذا أعني حسبانهم أنّهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحقّ أمارة تقييض القرين و دخولهم تحت ولاية الشيطان فإنّ الإنسان بطبعه الأوّلي مفطور على الميل إلى الحقّ و معرفته إذا عرض عليه ثمّ إذا عرض عليه فأعرض عنه اتّباعاً للهوى و دام عليه طبع الله على قلبه و أعمى بصره و قيّض له القرين فلم ير الحقّ الّذي تراآى له و طبّق الحقّ الّذي يميل إليه بالفطرة على الباطل الّذي يدعوه إليه الشيطان فيحسب أنّه مهتد و هو ضالّ و يخيّل إليه أنّه على الحقّ و هو على الباطل .

و هذا هو الغطاء الّذي يذكر تعالى أنّه مضروب عليهم في الدنيا و أنّه سينكشف عنهم يوم القيامة قال تعالى : « الّذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ـ إلى أن قال ـ قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا » الكهف : ١٠٤ ، و قال فيما يخاطبه يوم القيامة و معه قرينه : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ـ إلى أن قال ـ و قال قرينه ربّنا ما أطغيته و لكن كان في ضلال بعيد » قٓ ٢٧ .

قوله تعالى « حتّى إذا جاءنا قال يا ليت بيني و بينك بعد المشرقين فبئس القرين «حتّى» غاية لاستمرار الفعل الذي يدلّ عليه قوله في الآية السابقة : « يصدّونهم» وقوله : « يحسبون» أي لا يزال القرناء يصدّونهم ولا يزالون يحسبون أنّهم مهتدون حتّى إذا جاءنا الواحد منهم .

و المراد بالمجيء إليه تعالى البعث ، و ضمير «جاء» و «قال » راجع إلى الموصول باعتبار لفظه ، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلّب فيه جانب المشرق .

و المعنى و إنّهم يستمرّون على صدّهم عن السبيل و يستمرّ العاشون عن الذكر

على حسبان أنّهم مهتدون في انصدادهم حتّى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم قال مخاطباً لقرينه متأذّياً من صحابته : يا ليت بيني و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت .

و يستفاد من السياق أنّهم معذّبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار ، و لذا يتمنّون التباعد عنهم ويخصّونه بالذكر و ينسون سائر العذاب .

قوله تعالى : « و لن ينفعكم اليوم إذظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون » الظاهر أنّه معطوف على ما قبله من وصف حالهم ، و المراد باليوم يوم القيامة ، وقوله : « أنّكم في العذاب مشتركون » فاعل « لن ينفعكم » و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم ، و « إذ ظلمتم » واقع موقع التعليل .

و المراد ـ و الله أعلم ـ أنّكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربّما تسلّيتم بعض التسلّي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسلّياً و تشفّياً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فانّ اشتراكهم معكم في العذاب و كونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم .

و ذكر بعض المفسّرين أنّ فاعل « لن ينفعكم » ضمير راجع إلى تمنّيهم المذكور في الآية السابقة ، و قوله : « إذ ظلمتم » أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدّنيا باتّباعكم إيّاهم في الكفر و المعاصي ، و قوله : « أنّكم في العذاب مشتركون » تعليل لنفي النفع و المعنى و لن ينفعكم تمنّي التباعد عنكم لأنّ حقّكم أن تشركوا أنتم و قرناؤكم في العذاب .

و فيه أنّ فيه تدافعاً فانّه أخذ قوله : « إذ ظلمتم » تعليلا لنفي نفع التمنّي أوّلاً و قوله : « أنّكم في العذاب مشتركون » تعليلاله ثانياً ولازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانيا القضاء على المتمنّين التابعين بالغذاب لا باشتراك التابعين و المتبوعين فيه .

و قال بعضهم : معنى الآية أنّه لا يخفّف الاشتراك عنكم شيأ من العذاب لأنّ

لكلّ واحد منكم و من قرنائكم الحظّ الأوفر من العذاب .

و فيه أنّ ما ذكر من سبب عدم النفع و إن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية و لا سياق الكلام .

و قال بعضهم : المعنى لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها و تقسّمهم لعنائها لأنّ لكلّ منكم و من قرنائكم من العذاب مالا تبلغه طاقته .

و فيه ما في سابقه من الكلام ، و ردّ أيضاً بأنّ الانتفاع بذلك الوجه ليس ممّا يخطر ببالهم حتّى يردّ عليهم بنفيه .

قوله تعالى : « أفأنت تسمع الصمّ أوتهدي العمي ومن كان في ضلال مبين » لمّا ذكر تقييضه القرناء لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدًى و لا يقدرون على معرفة الحقّ فرّع عليه أن نبّه ﷺ أنّ هؤلاء صمّ عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحقّ و هدايتهم إلى سبيل الرشد فلا يتجشّم و لا يتكلّف في دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم ، و الاستفهام للإنكار ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون أو نرينّك الذي وعدناهم فإنّا عليهم مقتدرون » المراد بالإذهاب به توفّيه ﷺ قبل الانتقام منهم ، و قيل : المراد إذهابه بإخراجه من بينهم و قوله : « فإنّا منهم منتقمون » أي لامحالة و المراد بإراءته ماوعدهم الانتقام منهم قبل توفّيه ﷺ أو حال كونه بينهم ، وقوله : « فإنّا عليهم مقتدرون » أي اقتدارنا يفوق عليهم .

و قوله في الصدر : « فإمّا نذهبنّ بك » أصله إن نذهب بك زيدت عليه ماوالنون للتأكيد ، و محصّل الآية إنّا منتقمون منهم بعد توفّيك أو قبلها لامحالة .

قوله تعالى : « فاستمسك بالذي اُوحي إليك إنّك على صراط مستقيم» الظاهر أنّه تفريع لجميع ما تقدّم من أنّ إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوّة من سننه تعالى و أنّ كتابه النازل عليه حقّ و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلّا المتّقون ولا يعرض عنها إلّا قرناء الشياطين ، و لا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم .

فأكّد عليه الأمر بعد ذلك كلّه أن يجدّ في التمسّك بالكتاب الذي اُوحي إليه لأنّه على صراط مستقيم .

قوله تعالى : « و إنّه لذكر لك و لقومك و سوف تسألون » الظاهر أنّ المراد بالذكر ذكر الله ، و بهذا المعنى تكرّر مراراً في السورة ، و اللام في « لك ولقومك » للاختصاص بمعنى توجّه ما فيه من التكاليف إليهم ، و يؤيّده بعض التأييد قوله : «وسوف تسألون » أي عنه يوم القيامة .

و عن أكثر المفسّرين أنّ المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به و المعنى و إنّه لشرف عظيم لك و لقومك من العرب تذكرون به بين الاُمم .

قوله تعالى : « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون » قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من اُممهم و علماء دينهم كقوله تعالى: « فاسأل الّذين يقرؤن الكتاب من قبلك » يونس : ٩٤ و فائدة هذا المجاز أنّ المسؤل عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم .

و قيل : المراد السؤال من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فإنّهم و إن كفروا لكنّ الحجّة تقوم بتواتر خبرهم ، والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله والتكليف لاُمّته .

وبُعد الوجهين غير خفيّ و يزيد الثاني بعداً التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصّص ظاهر .

وقيل: الآية ممّا خوطب به النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء عليهم السلام و قد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاؤا بدين وراء دين التوحيد .

و قد وردت به غير واحدة من الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام و سيوافيك في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه » و قيل : الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين . عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : وفي هذا المعنى روايات اُخر وقد طبّقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين عليه السلام .

والتأمّل في الروايات يعطي أنّ بناءها على إرجاع الضمير في « جعلها » إلى الهداية المفهومة من قوله : « سيهدين » وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « إنّي جاعلك للناس إماما » أنّ الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بارشادهم و إيرادهم درجات القرب من الله سبحانه و إنزال كلّ ذي عمل منزله الّذي يستدعيه عمله ، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض .

و فعليّة الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أوّلا ثمّ تفيض عنه إلى غيره فله أتمّ الهداية و لغيره ماهي دونها وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : « فإنّه سيهدين» هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتمّ مراتب الهداية الّتي هي حظّ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الإمامة كذلك .

و في الاحتجاج عن العسكريّ عن أبيه عليهما السلام قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال اه عبد الله بن اُميّة المخزوميّ : لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجلّ من فيما بيننا مالاً و أحسنه حالاً فهلاّ نزل هذا القرآن الّذي تزعم أنّ الله أنزله عليك و ابتعثك به رسولاً ، على رجل من القريتين عظيم : إمّا الوليد بن المغيرة بمكّة و إمّا عروة بن مسعود الثقفيّ بالطائف .

ثمّ ذكر عليه السلام في كلام طويل جواب رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله بما في معنى الآيات .

ثمّ قال : و ذلك قوله تعالى : « و قالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » قال الله : «أهم يقسمون رحمة ربّك » يا محمّد « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك و أحوج ذلك إلى سلعة هذا و إلى خدمته .

فترى أجلّ الملوك وأغنى الأغنياء محتاجا إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إمّا سلعة معه ليست معه ، و إمّا خدمة يصلح لها لا يتهيّأ لذلك الملك أن يستغني إلّا به

و إمّا باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيد ها من هذا الفقير الّذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغنيّ ، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أومعرفته.

ثمّ ليس للملك أن يقول : هلاّ اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير ولا للفقير أن يقول : هلاّ اجتمع إلى رأيي و معرفتي و علمي و ما أتصرّف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغنيّ ، ثمّ قال تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً » .

ثمّ قال : يا محمّد « و رحمة ربّك خير ممّا يجمعون » أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا .

و في الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيّب قال : سألت عليّ بن الحسين عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « و لو لا أن يكون الناس اُمّة واحدة » قال : عنى بذلك اُمّة محمّد أن يكونوا على دين واحد كفّاراً كلّهم « لجعلنا لمن يكفر بالرحمان » إلى آخر الآية .

و في تفسير القمّي بإسناده عن يحيى بن سعيدعن أبي عبد الله عليه السلام قال :«فإمّا نذهبنّ بك » يا محمّد من مكّة إلى المدينة فإنّا رادّوك إليها و منتقمون منهم بعليّ بن أبي طالب عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر والحاكم و صحّحه عن قتادة في قوله : « فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون » قال : قال أنس ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و بقيت النقمة ولم يرالله نبيّه في اُمّته شيأ يكرهه حتّى قبض ولم يكن نبيّ قطّ إلّا وقدرآى العقوبة في اُمّته إلّا نبيّكم رآى ما يصيب اُمّته بعده فما رؤي ضاحكا منبسطاً حتّى قبض .

أقول : و روى فيه هذا المعنى عنه وعن عليّ بن أبي طالب وعن غيرهما بطرق اُخرى .

و فيه أخرج ابن مردويه من طريق محمّد بن مروان عن الكلبيّ عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : « فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون»

نزلت في عليّ بن أبي طالب أنّه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي .

أقول : ظاهر الرواية وماقبلها وما في معناهما أنّ الوعيد في الآيتين للمنحرفين عن الحقّ من أهل القبلة دون كفّار قريش .

و في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه‌السلام في حديث طويل يقول فيه : و أمّا قوله تعالى : « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » فهذا من براهين نبيّنا صلى‌الله‌عليه‌وآله الّتي آتاه الله إيّاها و أوجب به الحجّة على سائر خلقه لأنّه لمّا ختم به الأنبياء و جعله الله رسولاً إلى جميع الاُمم و سائر الملل خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج و جمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما اُرسلوا به و حملوه من عزائم الله و آياته و براهينه . الحديث .

أقول : و روى هذا المعنى القمّي في تفسيره بإسناده عن أبي الربيع عن أبي ـ جعفر عليه‌السلام في جواب ما سأله نافع بن الأزرق ، ورواه في الدّر المنثور بطرق عن سعيد ابن جبير و ابن جريح و ابن زيد .

☆ ☆ ☆

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا اِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِه فَقالَ اِنّي رَسُولُ
رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمّا جاءَهُمْ بِآياتِنا اِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَ
ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ اِلّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ اُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٤٨) وَ قالُوا يا أَيُّهَ السّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ
اِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ اِذاهُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَ
نادىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِه قالَ يا قَوْمِ اَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْاَنْهارُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَ لا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا اُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ
الْمَلٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ اِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً
فاسِقِينَ (٥٤) فَلَمّا آسَفُونَا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَاَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)
فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦).

﴿بيان﴾

لمّا ذكر طغيانهم بعد تمتيعهم بنعمه و رميهم الحقّ الّذي جاءهم به رسول مبين بأنّه سحر و أنّهم قالوا: لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فرجّحوا الرجل على النبيّ صلّى الله عليه وآله بكثرة ماله مثّل لهم بقصّة موسى عليه السلام و فرعون و قومه

حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها و استهزؤابها ، و احتجّ فرعون فيما خاطب به قومه على أنّه خير من موسى بملك مصر و أنهار تجري من تحته فاستخفّهم فأطاعوه فآل أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم .

قوله تعالى : « و لقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون و ملإه فقال إنّي رسول ربّ العالمين » اللاّم في « لقد » للقسم ، والباء في قوله : « بآياتنا » للمصاحبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم بآياتنا إذاهم منها يضحكون » المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة ، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافاً بالآيات .

قوله تعالى : « و ما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من اُختها » إلخ الاُخت المثل و قوله : « هي أكبر من اُختها » كناية عن كون كلّ واحدة منها بالغة في الدلالة على حقّيّة الرسالة ، و جملة « و ما نريهم من آية » إلخ حال من ضمير « منها » ، والمعنى فلمّا أتاهم بالمعجزات إذاهم منها يضحكون والحال أنّ كلاًّ منها تامّة كاملة في إعجازها و دلالتها من غير نقص ولا قصور .

وقوله : «وأخذناهم بالعذاب لعلّهم يرجعون» أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته ، والمراد بالعذاب الّذي اُخذوا به آيات الرجز الّتي نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصّلات كما في سورة الأعراف .

قوله تعالى : « و قالوا يا أيّها الساحر ادع لنا ربّك بما عهد عندك إنّنا لمهتدون » ما في « بما عهد عندك » مصدريّة أي بعهده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم .

و قولهم : يا أيّها الساحر خطاب استهزاء استكبارا منهم كما قالوا : ادع ربّك و لم يقولوا : ادع ربّنا أو ادع الله استكبارا ، والمراد أنّهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء .

و قيل : معنى الساحر في عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظّمونه و لم يكن صفة ذمّ . وليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم: ادع لنا ربّك .

قوله تعالى : « فلمّا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » النكث نقض العهد و خلف الوعد ، و وعدهم هو قولهم : « إنّنا لمهتدون » .

قوله تعالى : « و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » أي ناداهم و هو بينهم ، و فصل « قال » لكونه في موضع جواب السؤال كأنّه قيل : فما ذا قال ؟ فقيل : قال كذا .

و قوله : « و هذه الأنهار تجري من تحتي » أي من تحت قصري أو من بستاني الّذي فيه قصري المرتفع العالي البناء ، والجملة أعني قوله : « و هذه الأنهار » إلخ حاليّة أو « و هذه الأنهار » معطوف على « ملك مصر » و قوله : « تجري من تحتي » حال من الأنهار ، والأنهار أنهار النيل .

و قوله : « أفلا تبصرون » في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله « أليس لي ملك مصر » إلخ .

قوله تعالى : « أم أنا خير من هذا الّذي هو مهين ولا يكاد يبين » المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة ، و يريد بالمهين موسى عليه السلام لما به من الفقر و رثاثة الحال .

و قوله : « ولا يكاد يبين » أي يفصح عن مراده و لعلّه كان يصف موسى عليه السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكنّ الله رفع عنه ذلك لقوله : « قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى » طه : ٣٦ بعد قوله عليه السلام : « و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » طه : ٢٨ .

وقوله في صدر الآية : « أم أنا خير » إلخ أم فيه إمّا منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى بل أنا خير من موسى لأنّه كذا و كذا ، و إمّا متّصلة و أحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام والتقدير أهذا خير أم أنا خير إلخ و في المجمع قال سيبويه

والخليل : عطف أنا بأم على « أفلا تبصرون » لأنّ معنى « أنا خير » معنى أم تبصرون فكأنّه قال : أفلا تبصرون أم تبصرون لأنّهم إذا قالوا له : أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى أي إنّ وضع « أم أنا خير » موضع أم تبصرون من وضع المسبّب موضع السبب أو بالعكس .

و كيف كان فالإشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكره باسمه للتحقير و توصيفه بقوله : « الّذي هو مهين ولا يكاد يبين » للتحقير و للدلالة على عدم خيريّته .

قوله تعالى : « فلولا اُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » الأسورة جمع سوار بالكسر و قال الراغب : هو معرّب دستواره قالوا : كان من دأبهم أنّهم إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوار من ذهب و طوّقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولا و ساد الناس بذلك لاُلقي إليه أسورة من ذهب .

و قوله : « أو جاء معه الملائكة مقترنين » الظاهر أنّ الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي ، والمراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته ، و هذه الكلمة ممّا تكرّرت على لسان مكذّبي الرسل كقولهم : « لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » الفرقان : ٧ .

قوله تعالى : « فاستخفّ قومه فأطاعوه إنّهم كانوا قوما فاسقين » أي استخفّ عقول قومه و أحلامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلمّا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » الإيساف الإغضاب أي فلمّا أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة .

قوله تعالى : « فجعلناهم سلفاً و مثلاً للآخرين » السلف المتقدّم والظاهر أنّ المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدّمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الّذي يتمثّل به و يعتبر به ، والظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم ممّا يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتّعظوا .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يكاد يبين » قال : لم يبين الكلام .

و في التوحيد بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل «فلما آسفونا انتقمنا منهم» قال : إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون و يرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك .

و ليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، و قد قال أيضاً من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال أيضاً : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، و قال أيضاً : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » و كل هذا و شبهه على ما ذكرت لك ، و هكذا الرضا والغضب و غيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك .

ولو كان يصل إلى المكون الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما و أنشأهما لجاز لقائل أن يقول : إن المكون يبيد يوماً لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ، و لو كان ذلك كذلك لم يعرف المكون من المكون ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً .

هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه فافهم ذلك إن شاء الله .

أقول و روى مثله في الكافي بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عمه حمزة بن بزيع عنه عليه السلام .

☆ ☆ ☆

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلٰئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥).

﴿بيان﴾

إشارة إلى قصّة عيسى بعد الفراغ عن قصّة موسى عليهما السلام و قدّم عليها مجادلتهم النبيّ صلى الله عليه وآله في عيسى عليه السلام و اُجيب عنها .

قوله تعالى : « و لمّا ضرب ابن مريم مثلاً إذاقومك منه يصدّون ـ إلى قوله :ـ خصمون » الآية إلى تمام أربع آيات أو ستّ آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم ، والّذي يتحصّل بالتدبّر فيها نظراً إلى كون السورة مكيّة و مع قطع النظر عن الروايات هو أنّ المراد بقوله : « و لمّا ضرب ابن مريم مثلاً » هو ما أنزله

الله من وصفه في أوّل سورة مريم فإنّها السورة المكيّة الوحيدة الّتي وردت فيها قصّة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا ، و السورة تقصّ قصص عدّة من النبيّين بما أنّ الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله : « اُولئك الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين » مريم : ٥٨ وقد وقع في هذه الآيات قوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » و هو من الشواهد على كون قوله : « و لمّا ضرب ابن مريم مثلا » إشارة إلى ما في سورة مريم.

و المراد بقوله : « إذا قومك منه يصدّون » بكسر الصادأي يضجّون ويضحكون ذمّ لقريش في مقابلتهم المثل الحقّ بالتهكّم و السخريّة ، وقرىء « يصدّون» بضمّ الصاد أي يعرضون و هو أنسب للجملة التالية .

و قوله : « و قالوا ءآلهتنا خير أم هو» الاستفهام للإنكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنّهم لمّا سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنّه إله ابن إله فردّوا على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنّ آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدال كأنّهم يشيرون بذلك إلى أنّ الّذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإنّ آلهتهم خير منه .

و قوله : « ما ضربوه لك إلّا جدلا » أي ما وجّهوا هذا الكلام : « ءآلهتنا خير أم هو » إليك إلّا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقّا « بل هم قوم خصمون » أي ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها .

و قوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » ردّ لما يستفاد من قولهم : ءآلهتنا خير أم هو » أنّه إله النصارى كما سيجيء .

و قال الزمخشريّ في الكشّاف و كثير من المفسّرين و نسب إلى ابن عبّاس و غيره في تفسير الآية : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا قرء قوله تعالى : « إنّكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال ابن الزبعرى :

يا محمّد أخاصّة لنا و لآلهتنا أم لجميع الأُمم ؟ فقال عليه‌السلام : هو لكم و لآلهتكم و لجميع الأُمم .

فقال : خصمتك و ربّ الكعبة ألست تزعم أنّ عيسى بن مريم نبيّ و تثني عليه خيراً و على اُمّه ؟ و قد علمت أنّ النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم ففرحوا و ضحكوا وسكت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأنزل الله : « إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى اُولئك عنها مبعدون » و نزلت هذه الآية .

و المعنى و لمّا ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بعبادة النصارى إيّاه إذا قومك يعني قريشاً من هذا المثل يضجّون فرحاً و ضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، و قالوا : ءآلهتنا خير أم هو أي إنّ عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنّم فأمر آلهتناهيّن . ما ضربوا هذا المثل لك إلّا جدلاً و غلبة في القول لالميز الحقّ من الباطل .

و فيه أنّه تقدّم في تفسير (١) قوله : « إنّكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » الأنبياء : ٩٨ أنّ هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن و الخلل ضعيفة لا يعبأ بها حتّى نقل عن الحافظ ابن حجر أنّ الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لامسنداً و لاغير مسند . و قصّة ابن الزبعرى هذه و إن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله : « و لمّا ضرب ابن مريم » الآية هناك .

على أنّ ظاهر قوله : « ضرب ابن مريم مثلا » و قوله : « ءآلهتنا خير أم هو » لايلائم ما فسّرته تلك الملاءمة .

و قيل : إنّهم لمّا سمعوا قوله تعالى : « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه

---

(١) فى البحث الروائى المعقود بعد الاية .

من تراب ثمّ قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنّهم يعبدون آدميّا و نحن نعبد الملائكة - يريدون أرباب الأصنام - فآلهتنا خير من إلههم فالّذي ضرب المثل با بن مريم هو الله سبحانه و قولهم : «ءآلهتنا خير أم هو » لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق .

و فيه أنّ قوله تعالى : « إنّ مثل عيسى عندالله كمثل آدم » مدنيّة . و هذه الآيات أعني قوله : « و لمّا ضرب ابن مريم » الخ آيات مكّيّة من سورة مكّيّة .

على أنّ الأساس في قولهم - على هذا الوجه - تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذاقوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » الخ بما تقدّمه .

و قيل : إنّهم لمّا سمعوا قوله : « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم » ضجّوا و قالوا : ما يريد محمّد بهذا إلّا أن نعبده كما يعبد النصارى المسيح ، و آلهتنا خير منه أي من محمّد .

و فيه ما في سابقه .

و قيل : مرادهم بقولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » التنصّل و التخلّص عمّا اُنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات الله ، و من عبادتهم لهم كأنّهم قالوا : ما كان ذلك منّا بدعاً فا نّ النصارى يعبدون المسيح و ينسبونه إلى الله و هو بشر و نحن نعبد الملائكة و ننسبهم إلى الله و هم أفضل من البشر .

و فيه أنّه لا يفي بتوجيه قوله : « و لمّا ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدّون » على أنّ قوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين .

وقيل : معنى قولهم: «ءآلهتنا خيرأم هو» أنّ مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيّهما خير ؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ؟ فان قال : عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله و إن قال : عبادة الآلهة فكذلك ، و إن قال : ليس في عبادة المسيح خيرفقد قصر بهعن منزلته وجوابه أنّ اختصاص المسيح بضرب من التشريف

والا نعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته .

و فيه أنّه في نفسه لا بأس به لكنّ الشأن في دلالة قوله تعالى : « ءآلهتنا خير أم هو » على هذا التفصيل .

و قال في المجمع في الوجوه الّتي أوردها في معنى الآية : و رابعها ما رواه سادة أهل البيت عن عليّ عليه السلام أنّه قال : جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فوجدته في ملإ من قريش فنظر إليّ ثمّ قال : يا عليّ إنّما مثلك في هذه الاُمّة مثل عيسى بن مريم أحبّه قوم فأفرطوا في حبّه فهلكوا ، و أبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا ، و اقتصد فيه قوم فنجوا . فعظم ذلك عليهم فضحكوا و قالوا : يشبّهه بالأنبياء و الرسل فنزلت الآية .

أقول : والرواية غير متعرّضة لتوجيه قولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » ولئن كانت القصّة سببا للنزول فمعنى الجملة : لئن نتّبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتولّى عليّاً فيتحكّم علينا أو خير من أن نتّبع محمّداً فيحكّم علينا ابن عمّه .

و يمكن أن يكون قوله : « و قالوا ءآلهتنا خير أم هو » إلخ استئنافا والنازل في القصّة هو قوله : « و لمّا ضرب ابن مريم مثلا » الآية .

قوله تعالى : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » الّذي يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم ، والمراد بكونه مثلا ـ على ما قيل ـ كونه آية عجيبة إلهيّة يسير ذكره كالأمثال السائرة .

والمعنى ليس ابن مريم إلّا عبداً متظاهراً بالعبوديّة أنعمنا عليه بالنبوّة و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهرة على يديه و غير ذلك و جعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحقّ لبني إسرائيل .

و هذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم : « ءآلهتنا خير أم هو » الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في اُلوهيّتها على المسيح عليه السلام في اُلوهيّته و محصّله أنّ المسيح لم يكن إلهاً حتّى ينظر في منزلته في اُلوهيّته و إنّما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم ، وأمّا آلهتهم

فنظر القرآن فيهم ظاهر .

قوله تعالى : « ولو شئنا لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » الظاهر أنّ الآية متّصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبّس البشر من الكمال ما يقصّه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير و يحيي الموتى ويكلّم الناس في المهد إلى غير ذلك فيكون كالملائكة المتوسّطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبداً غير معبود و مألوها غير إله فإنّ هذا النوع من الكمال عند الوثنيّة مختصّ بالملائكة وهو ملاك اُلوهيّتهم ومعبوديّتهم و بالجملة هم يحيلون تلبّس البشر بهذا النوع من الكمال الّذي يخصّونه بالملائكة .

فاُجيب بأنّ لله أن يزكّي الإنسان ويطهّره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة (١) .

و على هذا فمن في قوله : « منكم » للتبعيض و قوله : « يخلفون » أي يخلف بعضهم بعضاً .

و في المجمع أنّ « من » في قوله : « منكم » تفيد معنى البدليّة كما في قوله :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على الطهيان (٢)

و قوله : « يخلفون » أي يخلفون بني آدم و يكونون خلفاء لهم ، والمعنى ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها و يعبدون الله .

و فيه أنّه لا يلائم النظم تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « و إنّه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها واتّبعون هذا صراط مستقيم »

---

(١) وليس هذا من الانقلاب المحال فى شىء بل نوع من التكامل الوجودى بالخروج من حد منه أدنى الى حد منه أعلى كما بين فى محله .

(٢) الطهيان قلة الجبل ومعنى البيت ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة من الماء مبردة بقيت ليلة على قلة الجبل .

ضمير « إنّه » لعيسى عليه السلام والمراد بالعلم ما يعلم به ، و المعنى و إنّ عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب و إحيائه الموتى فيعلم به أنّ الساعة ممكنة فلا تشكّوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتّة .

و قيل : المراد بكونه علما للساعة كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة .

و قيل : الضمير للقرآن وكونه علما للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء.

و في الوجهين جميعاً خفاء التفريع الّذي في قوله : « فلا تمترنّ بها » .

وقوله : « واتّبعون هذا صراط مستقيم » قيل: هو من كلامه تعالى والمعنى اتّبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، و قيل : من كلام الرسول بأمر منه تعالى .

قوله تعالى : « ولا يصدّنّكم الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين » الصدّ الصرف والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولمّا جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة » إلخ المراد بالبيّنات الآيات البيّنات من المعجزات ، و بالحكمة المعارف الإلهيّة من العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة .

و قوله : « و لاُبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه » أي في حكمه من الحوادث والأفعال ، والّذي يختلفون فيه و إن كان أعمّ من الاعتقادات الّتي يختلف في كونها حقّة أو باطلة والحوادث والأفعال الّتي يختلف في مشروع حكمها لكنّ المناسب لسبق قوله: « قد جئتكم بالحكمة» أن يختصّ ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم .

و قيل : المراد بقوله : « بعض الّذي تختلفون فيه » كلّ الّذي تختلفون فيه . و هو كما ترى .

و قيل : المراد لاُبيّن لكم اُمور دينكم دون اُمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام .

و قوله : « فاتّقوا الله وأطيعون » نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجّل أنّه لا يدّعي إلّا الرسالة .

قوله تعالى : « إنّ الله هو ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنّه هو ربّه و ربّهم جميعاً وإتمام للحجّة على من يقول بأُلوهيّته.

قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للّذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ضمير «من بينهم » لمن بعث إليهم عيسى عليه‌السلام والمعنى فاختلف الأحزاب المتشعّبة من بين اُمّته في أمر عيسى من كافر به قال فيه ، ومن مؤمن به غال فيه ، و من مقتصد لزم الاعتدال .

و قوله : « فويل للّذين ظلموا من عذاب يوم أليم » تهديد و وعيد للقالي منهم والغالي .

☆ ☆ ☆

هَلْ يَنْظُرُونَ اِلَّا السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)
اَلْاَخِلّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا الْمُتَّقينَ (٦٧) يا عِبادِ لاخَوْفٌ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) اَلَّذينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا
مُسْلِمينَ (٦٩) اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ
عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فيها ما تَشْتَهيهِ الْاَنْفُسُ وَ تَلَذُّ
الْاَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فيها خالِدُونَ (٧١) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتى اُورِثْتُمُوها بِما
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فيها فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣) اِنَّ
الْمُجْرِمينَ فى عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فيهِ
مُبْلِسُونَ (٧٥) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمينَ (٧٦) وَ نادَوْا
يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ اِنَّكُمْ ماكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ
وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨) .

﴿بيان﴾

رجوع إلى إنذار القوم و فيه تخويفهم بالساعة والإشارة إلى ما يؤل إليه حال المتّقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب .

قوله تعالى : « هل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتة و هم لا يشعرون »

النظر الانتظار ، والبغتة الفجأة ، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأُمور الدنيا كما قال تعالى : « ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون » يس: ٤٩ فلا يتكرّر المعنى في قوله : « بغتة و هم لا يشعرون » .

والمعنى ما ينتظر هؤلاء الكفّار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلّا أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنها مشتغلون بأُمور دنياهم أي إنّ حالهم حال من هدّده الهلاك فلم يتوسّل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحقّ ليتخلّصوا به عن أليم العذاب .

قوله تعالى : « الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين » الأخلّاء جمع خليل و هو الصديق حيث يرتفع خلّة صديقه و حاجته ، والظاهر أنّ المراد بالأخلّاء المطلق الشامل للمخالّة والتحابّ في الله كما في مخالّة المتّقين أهل الآخرة والمخالّة في غيره كما في مخالّة أهل الدنيا فاستثناء المتّقين متّصل .

والوجه في عداوة الأخلّاء غير المتّقين أنّ من لوازم المخالّة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهامّ أُموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة : « ياويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني » الفرقان : ٢٩ ، و أمّا الأخلّاء من المتّقين فإنّ مخالّتهم تتأكّد و تنفعهم يومئذ .

وفي الخبر النبويّ إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلت الأنساب وذهبت الأُخوّة إلّا الأُخوّة في الله و ذلك قوله : « الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين (١) » .

قوله تعالى : « ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون » من خطابه تعالى لهم يوم القيامه كما يشهد به قوله بعد : « ادخلوا الجنّة » إلخ ، و في الخطاب تأمين لهم من كلّ مكروه محتمل أو مقطوع به فإنّ مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا .

---

(١) رواه في الدر المنثور في الاية عن سعد بن معاذ .

قوله تعالى : « الّذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين » الموصول بدل من المنادى المضاف في « يا عباد » أو صفة له ، والآيات كلّ ما يدلّ عليه تعالى من نبيّ و كتاب و أيّ آية اُخرى دالّة ، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله و أمره .

قوله تعالى : « ادخلوا الجنّة أنتم و أزواجكم تحبرون » ظاهر الأمر بدخول الجنّة أنّ المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنّهنّ في الجنّة غير خارجات منها .

والحبور ـ على ما قيل ـ السرور الّذي يظهر أثره و حباره في الوجه والحبرة الزينة و حسن الهيئة ، والمعنى ادخلوا الجنّة أنتم و أزواجكم المؤمنات والحال أنّكم تسرّون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزيّنون بأحسن زينة .

قوله تعالى : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب و أكواب » إلخ الصحاف جمع صحفة و هي القصعة أو أصغر منها ، والأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروة له ، و في ذكر الصحاف والأكواب إشارة إلى تنعّمهم بالطعام والشراب .

و في الالتفات إلى الغيبة في قوله : « يطاف عليهم » بين الخطابين « ادخلوا الجنّة » و « أنتم فيها خالدون » تفخيم لإكرامهم و إنعامهم أنّ ذلك بحيث ينبغي أن يذكر لغيرهم ليزيد به اغتباطهم و يظهر به صدق ما وُعدوا به .

و قوله : « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين » الظاهر أنّ المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلّق به الشهوة الطبيعيّة من مذوق ومشموم و مسموع و ملموس ممّا يتشارك فيه الإنسان و عامّة الحيوان ، والمراد بما تلذّه الأعين الجمال والزينة و ذلك ممّا الالتذاذ به كالمختصّ بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر ، و لذا غيّر التعبير فعبّر عمّا يتعلّق بالأنفس بالاشتهاء و فيما يتعلّق بالأعين باللذّة و في هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانيّة عندنا .

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحيّة العقليّة فيما تلذّه الأعين فإنّ الالتذاذ الروحيّ يعدّ من رؤية القلب .

قال في المجمع : وقد جمع الله سبحانه في قوله : « ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين »

ما لو اجتمع الخلائق كلّهم على أن يصفوا ما في الجنّة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : « وأنتم فيها خالدون » إخبار ووعد وتبشير بالخلود و لهم في العلم به من اللذّة الروحيّة ما لا يقاس بغيره ولا يقدّر بقدر .

قوله تعالى : « و تلك الجنّة التي اُورثتموها بما كنتم تعملون » قيل : المعنى اُعطيتموها بأعمالكم ، و قيل : اُورثتموها من الكفّار و كانوا داخليها لو آمنوا و عملوا صالحاً ، و قد تقدّم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى : « اُولئك هم الوارثون » المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : « لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » أضاف الفاكهة إلى مامرّت الإشارة إليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و« من » في « منها تأكلون » للتبعيض ولا يخلو من إشارة إلى أنّها لا تنفد بالأكل .

قوله تعالى : « إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون لا يفتّر عنهم و هم فيها مبلسون » المراد بالمجرمين المتلبّسون بالإجرام فيكون أعمّ من الكفّار ويؤيّده إيراده في مقابلة المتّقين و هو أخصّ من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل ، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أومن الخروج من النار .

قوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » وذلك أنّه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنّهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة .

قوله تعالى : « و قالوا يا مالك ليقض علينا ربّك قال إنّكم ماكثون » مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامّة والخاصّة .

و خطابهم مالكاً بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: « كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون » المطفّفين : ١٥ ، و قال : « قال اخسؤا فيها ولاتكلّمون » المؤمنون : ١٠٨ .

فالمعنى أنّهم يسألون مالكاً أن يسأل الله أن يقضي عليهم .

والمراد بالقضاء عليهم إماتتهم ، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عمّا هم فيه من الشقوة و أليم العذاب ، و هذا من ظهور ملكاتهم الدنيويّة فإنّهم كانوا يرون في الدنيا أنّ الموت انعدام وفوت لاانتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الّذي ارتكز في نفوسهم و إلّا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما هي حقيقته .

و قوله : « قال إنّكم ماكثون » أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقيّة والعذاب الأليم ، والقائل هومالك جواباً عن مسألتهم .

قوله تعالى : « لقد جئناكم بالحقّ و لكنّ أكثركم للحقّ كارهون » ظاهره أنّه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة و هو منهم ، و قيل : من كلامه تعالى و يبعّده أنّهم محجوبون يومئذ عن ربّهم لايكلّمهم الله تعالى .

والخطاب لأهل النار بما أنّهم بشر فالمعنى لقد جئناكم معشر البشر بالحقّ و لكنّ أكثركم و هم المجرمون كارهون للحقّ .

و قيل : المراد بالحقّ مطلق الحقّ أيّ حقّ كان فهم يكرهونه و ينفرون منه و أمّا الحقّ المعهود الّذي هو التوحيد أو القرآن فكلّهم كارهون له مشمئزّون منه .

والمراد بكراهتهم للحقّ الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأوّل الّذي هو الفطرة الّتي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلّفوا بقبوله قال تعالى : « لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ ، و قال : « و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ .

و يظهر من الآية أنّ الملاك في السعادة والشقاء قبول الحقّ و ردّه .

☆ ☆ ☆

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰيهُمْ بَلٰى وَ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ اِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اِلٰهٌ وَ فِي الْاَرْضِ اِلٰهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ اِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَ قِيلِهِ يَا رَبِّ اِنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩).

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى سابق الكلام و فيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله صلّى الله عليه و آله و تهديدهم بأنّ الله يكيدهم، و نفي الولد الّذي يقولون به، و إبطال القول بمطلق الشريك وإثبات الربوبيّة المطلقة لله وحده وتختتم السورة بالتهديد و الوعيد.

قوله تعالى : « أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون » الإبرام خلاف النقض و هو الإحكام ، و أم منقطعة .

والمعنى على ما يفيده سياق الآية والآية التالية : بل أحكموا أمراً من الكيد بك يا محمد فإنّا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى : « أم يريدون كيدا فالّذين كفروا هم المكيدون » الطور : ٤٢ .

قوله تعالى : « أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون » السرّ ما يستسرّونه في قلوبهم والنجوى ما يناجيه بعضهم بعضاً بحيث لا يسمعه غيرهما ، و لمّا كان السرّ حديث النفس عبّر عن العلم بالسرّ والنجوى جميعاً بالسمع.

و قوله : « بلى و رسلنا لديهم يكتبون » أي بلى نحن نسمع سرّهم و نجواهم و رسلنا الموكّلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك .

قوله تعالى : « قل إن كان للرحمان ولد فأنا أوّل العابدين » إبطال لاُلوهيّة الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنّه ليس ، والتعبير بإن الشرطيّة دون لو الدالّة على الامتناع ـ و كان مقتضى المقام أن يقال : لو كان للرحمان ولد ـ ، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف .

والمعنى قل لهم إن كان للرحمان ولد كما يقولون ، فأنا أوّل من يعبده أداء لحقّ بنوّته ومسانخته لوالده ، لكنّني أعلم أنّه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه .

و قد أوردوا للآية معاني اُخرى :

منها أنّ المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده ولا أعبد الولد الّذي تزعمون .

ومنها أنّ « إن » نافية والمعنى قل ما كان لله ولد فأنا أوّل العابدين الموحّدين له من بينكم .

و منها أنّ « العابدين » من عبد بمعنى أنف والمعنى قل لو كان للرحمان ولد فأنا أوّل من أنف و استنكف عن عبادته لأنّ الّذي يلد لا يكون إلّا جسماً والجسمية تنافي الاُلوهيّة .

و منها أنّ المعنى كما أنّي لست أوّل من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لوجاز

لكم أن تدّعوا ذاك المحال جاز لي أن أدّعي هذا المحال . إلى غير ذلك ممّا قيل لكن الظاهر من الآية ما قدّمناه .

قوله تعالى : « سبحان ربّ السماوات والأرض ربّ العرش عمّا يصفون» تسبيح له سبحانه عمّا ينسبون إليه ، والظاهر أنّ «ربّ العرش » عطف بيان لربّ السماوات و الأرض لأنّ المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود و هو عرش ملكه تعالى الّذي استوى عليه و حكم فيه و دبّر أمره .

ولا يخلو من إشارة إلى حجّة على الوحدانيّة إذ لمّا كان الخلق مختصّاً به تعالى حتّى باعتراف الخصم وهو من شؤن عرش ملكه ، و التدبير من الخلق و الايجاد فانّه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤن عرشه فربوبيّته للعرش ربوبيّة لجميع السماوات والأرض .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا و يلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون » وعيد إجماليّ لهم بأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بالاعراض عنهم حتّى يلاقوا ما يحذّرهم منه من عذاب يوم القيامة .

والمعنى فاتركهم يخوضوا في أباطيلهم و يلعبوا في دنياهم و يشتغلوا بذلك حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدونه و هو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة : « هل ينظرون إلّا الساعة » إلخ .

قوله تعالى : « و هو الّذي في السماء إله و في الأرض إله و هو الحكيم العليم» أي هو الّذي هو في السماء إله مستحقّ للمعبوديّة و هو في الأرض إله أي هو المستحقّ لمعبوديّة أهل السماوات والأرض وحده ، ويفيد تكرار « إله »كما قيل التأكيد والدلالة على أنّ كونه تعالى إلهاً في السماء والأرض بمعنى تعلّق اُلوهيّته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما .

و في الآية مقابلة لما يثبته الوثنيّة لكلّ من السماء والأرض إلهاً أو آلهة ، وفي تذييل الآية بقوله : « وهو الحكيم العليم » الدالّ على الحصر إشارة إلى وحدانيّته في الربوبيّة الّتي لازمها الحكمة والعلم .

قوله تعالى : « و تبارك الّذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما و عنده علم الساعة و إليه يرجعون » ثناء عليه تعالى بالتبارك و هو مصدريّته للخير الكثير .

و كلّ من الصفات الثلاث المذكورة حجّة على توحّده في الربوبيّة أمّا ملكه للجميع فظاهر فإنّ الربوبيّة لمن يدبّر الأمر والتدبير للملك ، و أمّا اختصاص علم الساعة به فلأنّ الساعة هي المنزل الأقصى إليه يسير الكلّ و كيف يصحّ أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى ربّ الأشياء لا من يدّعونه ، و أمّا رجوع الناس إليه فإنّ الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإليه التدبير و من إليه التدبير له الربوبيّة .

قوله تعالى : « ولا يملك الّذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا من شهد بالحقّ و هم يعلمون » السياق سياق العموم فالمراد بالّذين يدعون ، أي يعبدونهم من دونه، كلّ معبود غيره تعالى من الملائكة والجنّ والبشر وغيرهم .

والمراد « بالحقّ » الحقّ الّذي هو التوحيد والشهادة به الاعتراف به ، والمراد بقوله : « و هم يعلمون » حيث اُطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفعوا له و حقيقة عمله كما قال : « لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمان و قال صواباً » النبأ :۳۸و إذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلّا بعد الشهادة بالحقّ فما هم بشافعين إلّا لأهل التوحيد كما قال : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى » .

والآية مصرّحة بوجود الشفاعة .

قوله تعالى : « و لئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون » أي إلى متى يصرفون عن الحقّ الّذي هو التوحيد إلى الباطل الّذي هو الشرك ، و ذلك أنّهم معترفون أن لا خالق إلّا الله والتدبير الّذي هو ملاك الربوبيّة غير منفكّ عن الخلق كما اتّضح مراراً فالربّ المعبود هو الّذي بيده الخلق و هو الله سبحانه .

قوله تعالى : « وقيله يا ربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون » ضمير « قيله » للنبيّ صلّى الله عليه و آله بلا إشكال ، والقيل مصدر كالقول والقال ، و« قيله » معطوف ـ على ما قيل ـ على الساعة في قوله : « وعنده علم الساعة » والمعنى و عنده علم قوله : « يا ربّ

إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون » .

قوله تعالى : « فاصفح عنهم و قل سلام فسوف يعلمون » أمر بالإعراض عنهم و إقناط من إيمانهم ، و قوله : « قل سلام » أي وادعهم موادعة ترك من غيرهم لك فيهم ، وفي قوله «فسوف يعلمون» تهديد و وعيد .

﴿ بحث روائي ﴾

في الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : قوله : « إن كان للرحمان ولد فأنا أوّل العابدين» أي الجاحدين ، والتأويل في هذا القول باطنه مضادّ لظاهره.

أقول : الظاهر أنّ المراد أنّه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق .

و في الكافي بإسناده عن هشام بن الحكم قال : قال أبو شاكر الديصانيّ : إنّ في القرآن آية هي قولنا . قلت : و ما هي ؟ قال : هوالّذي في السماء إله و في الأرض إله فلم أدر بما اُجيبه فحججت فخبّرت أبا عبد الله عليه السلام فقال : هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل : ما اسمك بالكوفة ؟ فإنّه يقول : فلان فقل : مااسمك بالبصرة ؟ فانّه يقول : فلان ، فقل كذلك الله ربّنا في السماء إله ، و في الأرض إله ، و في البحار إله ، و في القفار إله ، و في كلّ مكان إله .

قال : فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : «ولا يملك الّذين يدعون من دونه الشفاعة » قال : هم الّذين عبدوا في الدنيا لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم .

و في الكافي بإسناده عن أبي هاشم الجعفريّ قال : سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام : ما معنى الواحد ؟ فقال : إجماع الألسن عليه بالوحدانيّة لقوله : « و لئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله » .

﴿ سورة الدخان مكيّة و هي تسع و خمسون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧)
لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) .

﴿ بيان ﴾

يتلخّص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة و قد سيق بيان ذلك بأنّه كتاب مبين نازل من عندالله على من أرسله إلى الناس لإنذارهم و قد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر الّتي فيها يفرق كلّ أمر حكيم.

غير أنّ النّاس و هم الكفّار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم و سيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثمّ يرجعون إلى ربّهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد .

ثمّ يذكر لهم تنظيراً لأوّل الوعيدين قصّة إرسال موسى عليه‌السلام إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له و إغراقهم نكالاً منه .

ثمّ يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين و هو الرجوع إلى الله في يوم الفصل فيقيم الحجّة على أنّه آت لامحالة ثمّ يذكر طرفا من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين و يصيبهم من ألوان عذابه ، و ما سيثاب به المتّقون من حياة طيّبة و مقام كريم .

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « حم والكتاب المبين » الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين » المراد بالليلة المباركة الّتي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدلّ عليه قوله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » القدر : ١ ، و كونها مباركة ظرفيّتها للخير الكثير الّذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة و قد قال تعالى : « و ما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر : ٣ .

و ظاهر اللفظ أنّها إحدى الليالي الّتي تدور على الأرض و ظاهر قوله : « فيها يفرق» الدالّ على الاستمرار أنّها تتكرّر وظاهر قوله تعالى: «شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن » البقرة : ١٨٥ أنّها تتكرّر بتكرّر شهر رمضان فهي تتكرّر بتكرّر السنين القمريّة و تقع في كلّ سنة قمريّة مرّة واحدة في شهر رمضان ، و أمّا أنّها أيّ ليلة هي ؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك ، و أمّا الروايات فستوافيك في البحث الروائيّ التالي .

و المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » و قوله : « إنّا أنزلناه في ليلة القدر» القدر : ١ ، و قوله : « شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى و الفرقان » البقرة : ١٨٥ أنّ النازل هو القرآن كلّه .

و لا يدفع ذلك قوله : وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزّلناه تنزيلا» أسرى : ١٠٦ و قوله : « و قال الّذين كفروا لو لا اُنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا » الفرقان :٣٢ ، الظاهرين في نزوله تدريجا ، ويؤيّد ذلك آيات اُخر كقوله : « فإذا اُنزلت سورة محكمة » سورة محمّد : ٢٠ ، و قوله : « و إذا ما اُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض» التوبة : ١٢٧ و غير ذلك و يؤيّد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمّنة لأسباب النزول .

و ذلك أنّه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرّتين مرّة مجموعا و جملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان ، و مرّة تدريجا ونجوما في مدّة ثلاث و عشرين سنة و هي مدّة دعوته صلّى الله عليه وآله وسلّم .

لكنّ الّذي لا ينبغي الارتياب فيه أنّ هذا القرآن المؤلّف من السور و الآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصيّة لا يقبل النزول دفعة فإنّ الآيات النازلة في وقائع شخصيّة وحوادث جزئيّة مرتبطة بأزمنة و أمكنة و أشخاص و أحوال خاصّة لاتصدق إلّا مع تحقّق مواردها المتفرّقة زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك المواردوصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مرّة جملة، و مرّة نجوما.

فلو قيل بنزوله مرّتين كان من الواجب أن يفرّق بين المرّتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرّة إجمالاً و مرّة تفصيلا و نعني بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير إليه قوله تعالى: «كتاب اُحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير» هود: ١ وقوله: «إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً لعلّكم تعقلون و إنّه في اُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم» الزخرف: ٤ و قد مرّ الكلام في معنى الإحكام و التفصيل في تفسير سورتي هود و الزخرف.

و قيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأوّل ما نزل من آيات القرآن ـ و هو سورة العلق أو سورة الحمد ـ نزل في ليلة القدر.

و هذا القول مبنيّ على استشعار منافاة نزول الكتاب كلّه في ليلة و نزوله التدريجي الّذي تدلّ عليه الآيات السابقة و قد عرفت أن لا منافاة بين الآيات.

على أنّك خبير بأنّه خلاف ظاهر الآيات.

و قيل: إنّه نزل أوّلا جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثمّ نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجا في ثلاث و عشرين سنة مدّة الدعوة النبويّة.

و هذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظاهرة في نزوله جملة و ستمرّ بك في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله.

و قوله: «إنّا كنّا منذرين» واقع موقع التعليل، و هو يدلّ على استمرار

الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار ، فيدلّ على أنّ نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع ، فإنّما هو إنذار و الإنذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء و الرسل و بعثهم لإنذار النّاس .

قوله تعالى : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » ضمير «فيها» للّيلة و الفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان و يقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميّز بعض أجزائه من بعض و لا يتعيّن خصوصيّاته وأحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

فللأمور بحسب القضاء الإلهيّ مرحلتان : مرحلة الإجمال و الإبهام و مرحلة التفصيل ، و ليلة القدر - على ما يدلّ عليه قوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم - ليلة يخرج فيها الأمور من مرحلة الإحكام إلى مرحلة الفرق و التفصيل ، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الأمور المحكمة فرق في ليلة القدر .

و لعلّ الله سبحانه أطلع نبيّه على جزئيّات الحوادث الّتي ستقع في زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كلّ آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعة و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرّقا .

و مآل هذا الوجه اطّلاع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التفصيليّ قبل نزوله على الأرض و استقراره في مرحلة العين ، و على هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرّتين بالإجمال و التفصيل كما تقدّم في الوجه الأوّل .

و ظاهر كلام بعضهم أنّ المراد بقوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » تفصيل الأمور المبيّنة في القرآن من معارف و أحكام و غير ذلك . و يدفعه أنّ ظاهر قوله : « فيها يفرق » الاستمرار والّذي يستمرّ في هذه الليلة بتكرّرها تفصيل الأمور الكونيّة بعد إحكامها و أمّا المعارف و الأحكام الإلهيّة فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال : « فيها فرق» .

و قيل : المراد بكون الأمر حكيما إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الّذي قبل التفصيل ، و المعنى يقضى في الليلة كلّ أمر محكم لا يتغيّر بزيادة أو نقصان أو غير ذلك

هذا ، و الأظهر ما قدّمناه من المعنى .

قوله تعالى : « أمراً من عندنا إنّا كنّا مرسلين» المراد بالأمر الشأن و هو حال من الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كلّ أمر حال كونه أمراً من عندنا و مبتدءً من لدنّا ، و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي و المعنى يفرق فيها كلّ أمر بأمر منّا ، و هو على أيّ حال متعلّق بقوله : « يفرق» .

و يمكن أن يكون متعلّقا بقوله : « أنزلناه » أي حال كون الكتاب أمراً أو بأمر من عندنا ، و قوله : « إنّا كنّا مرسلين » لا يخلو من تأييد لذلك ، و يكون تعليلا له و المعنى إنّا أنزلناه أمرا من عندنا لأنّ سنّتنا الجارية إرسال الأنبياء والرسل .

قوله تعالى : « رحمة من ربّك إنّه هو السميع العليم» أي إنزاله رحمة من ربّك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربّك إنزاله فقوله : «رحمة » حال على المعنى الأوّل و مفعول له على الثاني و الثالث .

و في قوله : « من ربّك » التفات من التكلّم مع الغير إلى الغيبة و وجهه إظهار العناية بالنبيّ صلّى الله عليه وآله لأنّه هو الّذي اُنزل عليه القرآن وهو المنذر المرسل إلى الناس .

و قوله : « إنّه هو السميع العليم» أي السميع للمسائل والعليم بالحوائج فيسمع مسألتهم و يعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربّك فينزل الكتاب و يرسل الرسول رحمة منه لهم .

قوله تعالى : « ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين » لمّا كانت الوثنيّة يرون أنّ لكلّ صنف من الخلق إلهاً أو أكثر و ربّما اتّخذ قوم منهم إلها غير ما يتّخذه غيرهم عقّب قوله : « من ربّك » بقوله : « ربّ السماوات » الخ لئلّا يتوهّم متوهّم منهم أنّ ربوبيّته للنبيّ صلّى الله عليه وآله ليست بالاختصاص كالّتي بينهم بل هو تعالى ربّه و ربّ السماوات و الأرض وما بينهما ، و لذلك عقّبه أيضا في الآية التالية بقوله : «لا إله إلّا هو» .

و قوله : « إن كنتم موقنين » هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشريّ من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الّذي تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه و حدّثت

بقصّته فالمعنى هو الّذي يعرفه الموقنون بأنّه ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنّه ربّ كلّ شيء .

قوله تعالى . « لا إله إلّا هو يحيي و يميت ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين » لمّا كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبيّة وهي الملك والتدبير فيه تعالى و الاُلوهيّة و هي المعبوديّة بالحقّ من لوازم الربوبيّة عقّبه بكلمة التوحيد النافية لكلّ إله دونه تعالى .

و قوله : « يحيي و يميت » من أخصّ الصفات به تعالى و هما من شؤن التدبير ، و في ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد .

و قوله : « ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين » فيه كمال التصريح بأنّه ربّهم و ربّ آبائهم فليعبدوه و لا يتعلّلوا باتّباع آبائهم في عبادة الأصنام ، و لتكميل التصريح سيقت الجملة بالخطاب فقيل : « ربّكم و ربّ آبائكم » .

و هما أعني قوله : « يحيي و يميت » و قوله : « ربّكم » خبران لمبتدء محذوف و التقدير هو يحيي و يميت الخ .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » : واللّيلة المباركة هي ليلة القدر ، و هو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام .

و في الكافي بإسناده عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن اُذينة عن الفضيل و زرارة و محمّد بن مسلم عن حمران أنّه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » قال: نعم ليلة القدر و هي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلّا في ليلة القدر قال الله تعالى : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » قال : يقدّر في ليلة القدر كلّ شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل : خير و شرّ و طاعة و معصية و مولود و أجل و رزق فما قدّر في تلك السنة وقضي

فهو المحتوم و لله تعالى فيه المشيّة .

أقول : قوله :«فهو المحتوم و لله فيه المشيّة » أي أنّه محتوم من جهة الأسباب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحقّقه إلّا أن يشاء الله ذلك .

و في البصائر عن عبّاس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبدالله بن سنان قال: سألته عن النصف من شعبان فقال : ما عندي فيه شيء ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق و كتب فيها الآجال و خرج فيها صكاك الحاجّ واطّلع الله إلى عباده فغفر الله لهم إلّا شارب خمر مسكر .

فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كلّ أمر حكيم ثمّ ينهى ذلك ويمضى ذلك . قلت : إلى من؟قال : إلى صاحبكم ولولا ذلك لم يعلم .

و في الدرّ المنثور أخرج محمّد بن نصر وابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » قال : يكتب من أمّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتّى يكتب الحاجّ : يحجّ فلان و يحجّ فلان .

أقول : والأخبار في ليلة القدر و ما يقضى فيها وفي تعيينها كثيرة جدًّا وسيأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى .

☆ ☆ ☆

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ
مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣)
ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ
فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ
اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠)
وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ
مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ
رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥)
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ
الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ

اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) و آتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين (٣٣).

﴿بيان﴾

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنّه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله، ثمّ تهدّدهم بعذاب الدنيا و بطش يوم القيامة وتتمثّل لهم بقصّة إرسال موسى إلى قوم فرعون و تكذيبهم له و إغراقهم.

ولا تخلو القصّة من إيماء إلى أنّه تعالى سينجّي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكّة ثمّ إهلاك صناديد قريش في تعقيبهم النبيّ والمؤمنين به.

قوله تعالى: «بل هم في شكّ يلعبون» ضمير الجمع لقوم النبيّ صلى الله عليه وآله، والإضراب عن محذوف يدلّ عليه السياق السابق أي إنّهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول و صفة الكتاب الّذي اُنزل عليه بل هم في شكّ و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم، و ذكر الزمخشريّ أنّ الإضراب عن قوله: «إن كنتم موقنين».

قوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس» الارتقاب الانتظار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس».

و اختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الآية:

فقيل: المراد به المجاعة الّتي ابتلي بها أهل مكّة فإنّهم لمّا أصرّوا على كفرهم و أذاهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به دعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: اللّهمّ سنين كسني يوسف فأجدبت الأرض و أصابت قريشا مجاعة شديدة، و كان الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان و أكلوا الميتة والعظام ثمّ جاؤا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله و قالوا: يا محمّد جئت تأمر بصلة الرحم و قومك قد هلكوا، و وعدوه إن كشف الله عنهم الجدب أن يؤمنوا فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثمّ عادوا إلى كفرهم و نقضوا عهدهم.

و قيل : إنّ الدخان المذكور في الآية من أشراط الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتّى أنّ رؤسهم تكون كالرأس الحنيذ . و يصيب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلّها كبيت اُوقد فيه ليس فيه خصاص[1] و يمكث ذلك أربعين يوماً .

و ربّما قيل : إنّ المراد بيوم الدخان يوم فتح مكّة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كالدخان المظلم ، و ربّما قيل : المراد به يوم القيامة ، والقولان كما ترى .

و قوله : « يغشى الناس » أي يشملهم و يحيط بهم ، والمراد بالنّاس أهل مكّة على القول الأوّل ، و عامّة الناس على القول الثاني .

قوله تعالى : « هذا عذاب أليم ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون » حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين: هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيّته و إظهار الإيمان بالدعوة الحقّة فيقولون :ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون .

قوله تعالى : « أنّى لهم الذكرى و قد جاءهم رسول مبين » أي من أين لهم أن يتذكّروا و يذعنوا بالحقّ والحال أنّه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و في الآية ردّ صدقهم في وعدهم .

قوله تعالى : « ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون » التولّي الإعراض ، وضمير « عنه » للرسول و « معلّم مجنون » خبران لمبتدء محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى ثمّ أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلّم مجنون فرموه أوّلا بأنّه معلّم يعلّمه غيره فيسند ما تعلّمه إلى الله سبحانه قال تعالى : « ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر» النحل : ١٠٣ ، و ثانياً بأنّه مجنون مختلّ العقل .

قوله تعالى : « إنّا كاشفوا العذاب قليلا إنّكم عائدون » أي إنّا كاشفون

---

(١) الخصاص الثقبة والفرجة .

للعذاب زمانا إنّكم عائدون إلى ماكنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأوّل والآية تأكيد لردّ صدقهم فيما وعدوه من الإيمان .

و أمّا على القول الثاني فالأقرب أنّ المعنى إنّكم عائدون إلى العذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون » البطش ـ على ما ذكره الراغب ـ تناول الشيء بصولة ، و هذا اليوم بناء على القول الأوّل المذكور يوم بدر و بناء على القول الثاني يوم القيامة ، و ربّما أيّد توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإنّ بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعذاب قال تعالى : «فيعذّبه الله العذاب الأكبر » الغاشية : ١٤ كما أنّ أجره أكبر الأجر قال تعالى : « و لأجر الآخرة أكبر » النحل : ٤١ .

قوله تعالى : «و لقد فتنّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم» الفتنة الامتحان و الابتلاء للحصول على حقيقة الشيء . و قوله : « و جاءهم رسول كريم » الخ تفسير للامتحان ، و الرسول الكريم موسى عليه السلام ، و الكريم هو المتّصف بالخصال الحميدة قال الراغب : الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله : « إنّ ربّي غنيّ كريم » و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحمودة الّتي تظهر منه ، و لا يقال : هو كريم حتّى يظهر ذلك منه ، قال : وكلّ شيء شرف في بابه فإنّه يوصف بالكرم قال تعالى « وأنبتنا فيها من كلّ زوج كريم» «وزروع و مقام كريم » « إنّه لقرآن كريم » «و قل لهما قولا كريما » انتهى .

قوله تعالى : « أن أدّوا إليّ عباد الله إنّي لكم رسول أمين » تفسير لمجيء الرسول فإنّ معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة و كان من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل و لا يعذّبوهم ، و المراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبّر عنهم بذلك استرحاما و تلويحا إلى أنّهم في استكبارهم و تعدّيهم عليهم إنّما يستكبرون على الله لأنّهم عباد الله .

و في قوله : « إنّي لكم رسول أمين » حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن

يخونهم في دعوى الرسالة و إنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملإ حوله : « إنّ هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » الشعراء : ٢٥ .

و قيل : «عباد الله » نداء لفرعون و قومه والتقدير أن أدّوا إليّ ما آمركم به يا عباد الله ، و لا يخلو من التقدير المخالف للظاهر .

قوله تعالى : « و أن لا تعلوا على الله إنّي آتيكم بسلطان مبين » أي لا تتجبّروا على الله بتكذيب رسالتي و الاعراض عمّا أمركم الله فإنّ تكذيب الرسول في رسالته استعلاء و تجبّر على من أرسله والدليل على أنّ المراد ذلك تعليل النهي بقوله : «إنّي آتيكم بسلطان مبين » أي حجّة بارزة من الآيات المعجزة أو حجّة المعجزة و حجّة البرهان .

قيل : و من حسن التعبير الجمع بين التأدية و الأمين وكذا بين العلوّ والسلطان .

قوله تعالى : « و إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون » أي التجأت إليه تعالى من رجمكم إيّاي فلا تقدرون على ذلك ، و الظاهر أنّه إشارة إلى ما آمنه ربّه قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى : « قالا ربّنا إنّنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنّني معكما أسمع و أرى » طه : ٤٦ .

و بما مرّ يظهر فساد ما قيل : إنّ هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه : « فلا يصلون إليكما » .

قوله تعالى : « و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل منّي لا لي ولا عليّ ولا تتعرّضوا لي بخير أو شرّ ، وقيل : المراد تنحّوا عنّي و انقطعوا ، و هو بعيد .

قوله تعالى : « فدعا ربّه أنّ هؤلاء قوم مجرمون » أي دعاه بأنّ هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء و هو إجرامهم إلى حدّ يستحقّون معه الهلاك و يعلم ما سأله ممّا أجاب به ربّه تعالى إذ قال : « فأسر بعبادي» إلخ و هو الإهلاك .

قوله تعالى : « فأسر بعبادي ليلا إنّكم متّبعون» الاسراء : السير بالّليل فيكون قوله : « ليلا» تأكيداً له و تصريحاً به ، والمراد بعبادي بنوإسرائيل ، و قوله : « إنّكم متّبعون » أي يتّبعكم فرعون وجنوده ، وهو استئناف يخبر عمّا سيقع عقيب الإسراء .

و في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له : أسر بعبادي ليلاً إنّكم متّبعون يتّبعكم فرعون و جنوده .

قوله تعالى : « و اترك البحر رهواً إنّهم جند مغرقون » قال في المفردات : و اترك البحر رهوا أي ساكنا ، و قيل : سعة من الطريق و هو الصحيح . انتهى و قوله : « إنّهم جند مغرقون » تعليل لقوله : « و اترك البحر رهواً » .

و في الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير أسر بعبادي ليلا يتبعكم فرعون و جنوده حتّى إذا بلغتم البحرفاضرب به بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون .

قوله تعالى : « كم تركوا من جنّات و عيون و زروع و مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك » « كم » للتكثير أي كثيرا مّا تركوا ، و قوله : « من جنّات » إلخ بيان لما تركوا ، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية ، والنعمة بفتح النون التنعّم و بناؤها بناء المرّة كالضربة و بكسر النون قسم من التنعّم و بناؤها بناء النوع كالجلسة و فسّروا النعمة ههنا بما يتنعّم به و هو أنسب للترك ، و فاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الاُنس و لعلّ المراد به ههنا التمتّع كما يتمتّع بالفواكه و هي أنواع الثمار .

و قوله : « كذلك » قيل : معناه الأمر كذلك ، و قيل : المعنى نفعل فعلاكذلك لمن نريد إهلاكه ، و قيل : الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق والمعنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها .

و يمكن أن يكون حالاً من مفعول « تركوا » المحذوف والمعنى كثيراً ماتركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم .

قوله تعالى : « و أورثناها قوماً آخرين » الضمير لمفعول « تركوا » المحذوف المبيّن بقوله : « من جنّات » إلخ والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وماكانوا منظرين » بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخييليّة عن تأثّرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله و عدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون .

و قوله : « و ما كانوا منظرين » كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهيّ والقهر الربوبيّ في حقّهم و عدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتّى يتأخّر به .

قوله تعالى : « و لقد نجّينا بني إسرائيل من العذاب المهين » و هو ما يصيبهم و هم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء و استحياء النساء و غير ذلك .

قوله تعالى : « من فرعون إنّه كان عالياً من المسرفين » « من فرعون » بدل من قوله : « من العذاب » إمّا بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون ، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوىً للمبالغة ، وقوله : « إنّه كان عالياً من المسرفين » أي متكبّراً من أهل الإسراف والتعدّي عن الحدّ .

قوله تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » أي اخترناهم على علم منّا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق .

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الاُمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فانّهم يمتازون من سائر الاُمم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل في التيه و هم يتظلّلون بالغمام و يأكلون المنّ والسلوى إلى غير ذلك .

و عالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فانّهم لم يختاروا على الاُمّة الإسلاميّة الّتي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله : « كنتم خير اُمّة اُخرجت للناس » البقرة : ١٤٣ ، و قوله : « هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج » الحجّ : ٧٨ .

قوله تعالى : « وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » البلاء الاختبار والامتحان

أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد اُوتوا من الآيات المعجزاة ما لم يعهد في غيرهم من الاُمم و ابتلوا بذلك ابتلاء مبينا .

قيل : و في قوله : « فيه » إشارة إلى أنّ هناك اُموراً اُخرى ككونه معجزة .

و في تذييل القصّة بهذه الآيات الأربع أعني قوله : « ولقد نجّينا بني إسرائيل ـ إلى قوله ـ بلاء مبين » نوع تطييب لنفس النبيّ صلى الله عليه وآله و إيماء إلى أنّ الله تعالى سينجّيه والمؤمنين به من فراعنة مكّة و يختارهم و يمكّنهم في الأرض فينظر كيف يعملون .

﴿ بحث روائي ﴾

عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » و اختلف في الدخان فقيل : إنّه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ (١) و يعتري المؤمن منه كهيئة الزكام و يكون الأرض كلّها كبيت اُوقد فيه ليس فيه خصاص يمدّ ذلك أربعين يوماً ، وروي ذلك عن عليّ و ابن عباس والحسن .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عنهم و أيضاً عن حذيفة بن اليمان و أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و رواه أيضاً عن ابن عمر موقوفاً .

و في تفسير القمّيّ في الآية قال : ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبر يغشى الناس كلّهم الظلمة فيقولون : هذا عذاب أليم ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون .

و في المجمع و روى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريّا والحسين بن عليّ عليهما السلام أربعين صباحاً . قلت : فما بكاؤها قال : كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال : ما بكت

---

(١) الحنيذ : المشوى .

السماء منذ كانت الدنيا إلاّ على اثنين . قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه و حيث يصعد عمله . قال : و تدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا. قال : تحمرّ و تصير وردة كالدهان . إنّ يحيى بن زكريّا لمّا قتل احمرّت السماء و قطرت دما ، و إنّ الحسين بن عليّ يوم قتل احمرّت السماء .

و في الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض الّتي كان يعبد الله عزّ وجلّ فيها والباب الّذي كان يصعد منه عمله و موضع سجوده .

أقول : وفي هذا المعنى ومعنى الروايتين السابقتين روايات اُخر من طرق الشيعة و أهل السنّة .

و لو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكناية التخييليّة .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و قالوا معلّم مجنون » قال : قالوا ذلك لمّا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذه الغشي فقالوا : هو مجنون .

☆ ☆ ☆

انَّ هؤُلاء ليقولون (٣٤) انْ هِىَ الاّ موْتتنا الأُولى و ما نحن
بِمُنْشَرِين (٣٥) فَأْتوا بِآبائنا انْ كنتم صادقين (٣٦) أَهُمْ خيرٌ أم
قوم تُبَّعٍ والَّذين من قبلهم اَهْلكناهم انَّهم كانوا مجرمين (٣٧) وما
خلقنا السَّموات والارض و ما بينهما لاعبين (٣٨) ما خلقناهما الاّ
بالحقِّ و لكنَّ أكثرهم لا يعلمون (٣٩) انَّ يوم الفصل ميقاتهم
أجمعين (٤٠) يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون (٤١)
الاّ من رحم الله انَّه هو العزيز الرَّحيم (٤٢) انَّ شجرت الزَّقُّوم (٤٣)
طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلى فى البطون (٤٥) كغلى الحميم (٤٦)
خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم (٤٧) ثمَّ صبُّوا فوق رأسه من عذاب
الحميم (٤٨) ذق انَّك أنت العزيز الكريم (٤٩) انَّ هذا ما كنتم
به تمترون (٥٠) انَّ المتَّقين فى مقام أمين (٥١) فى جنَّات وعيون (٥٢)
يلبسون من سندس و استبرق متقابلين (٥٣) كذلك و زوَّجناهم
بحور عين (٥٤) يدعون فيها بكلِّ فاكهة آمنين (٥٥) لا يذوقون
فيها الموت الاّ الموتة الأولى و وقيهم عذاب الجحيم (٥٦) فضلاً من
ربِّك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧) فانَّما يسَّرناه بلسانك لعلهم
يتذكَّرون (٥٨) فارتقب انَّهم مرتقبون (٥٩) .

﴿ بيان ﴾

لمّا أنذر القوم بالعذاب الدنيويّ ثمّ بالعذاب الاُخرويّ وتمثّل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى عليه السلام بالرسالة من ربّه فكذّبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم.

رجع إلى الكلام في العذاب الاُخرويّ فذكر إنكار القوم للمعاد و قولهم أن ليس بعد الموتة الاُولى حياة فاحتجّ على إثبات المعاد بالبرهان ثمّ أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة و بعض ما سيلقاه المتّقون من النعيم المقيم و عند ذلك تختتم السورة بما بدئت به و هو نزول الكتاب للتذكّر و أمره صلى الله عليه وآله بالارتقاب.

قوله تعالى: « إنّ هؤلاء ليقولون إن هي إلّا موتتنا الاُولى وما نحن بمنشرين » رجوع إلى أوّل الكلام من قوله: « بل هم في شكّ يلعبون » والإشارة بهؤلاء إلى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيّين المنكرين للمعاد، و قولهم: « إن هي إلّا موتتنا الاُولى » يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده: «وما نحن بمنشرين » أي بمبعوثين قال في الكشّاف يقال: أنشر الله الموتى و نشرهم إذا بعثهم انتهى.

فقولهم: « إن هي إلّا موتتنا الاُولى » الضمير فيه للعاقبة و النهاية أي ليست عاقبة أمرنا و نهاية وجودنا و حياتنا إلّا موتتنا الاُولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً.

ووجّه تقييد الموتة في الآية بالاُولى، بأنّه ليس بقيد احترازيّ إذ لا ملازمة بين الأوّل والآخر أو بين الأوّل والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أوّل ولا ثاني له ولا في قباله آخر، كذا قيل.

و هناك وجه آخر ذكره الزمخشريّ في الكشّاف فقال: فإن قلت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت فهلّا قيل: إلّا حياتنا الاُولى و ما نحن بمنشرين كما قيل: إن هي إلّا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين و ما معنى قوله: « إلّا موتتنا

الاُولى » ؟ و ما معنى ذكر الاُولى ؟ كأنّهم وعدوا موتة اُخرى حتّى نفوها وجحدوها و أثبتوا الاُولى.

قلت: معناه ـ والله الموفّق للصواب ـ أنّهم قيل لهم: إنّكم تموتون موتة تتعقّبها حياة كما تقدّمتكم موتة قد تعقّبتها حياة و ذلك قوله عزّ وجلّ : « و كنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم » فقالوا : إن هي إلّا موتتنا الاُولى يريدون ما الموتة الّتي من شأنها أن تتعقّبها حياة إلّا الموتة الاُولى دون الموتة الثانية ، و ما هذه الصفة الّتي تصفون بها الموتة من تعقّب الحياة لها إلّا للموتة الاُولى خاصّة فلا فرق إذاً بين هذا و بين قوله : « إن هي إلّا حياتنا الدنيا » في المعنى انتهى.

و يمكن أن يوجّه بوجه ثالث و هو أن يقولوا : « إن هي إلّا موتتنا الاُولى » بعد ما سمعوا قوله تعالى : « قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » الآية و قد تقدّم في تفسير الآية أنّ الإماتة الاُولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا ، والإماتة الثانية هي الّتي بعد الحياة البرزخيّة فهم في قولهم : « إن هي إلّاموتتنا الاُولى » ينفون الموتة الثانية الملازمة للحياة البرزخيّة الّتي هي حياة بعد الموت فإنّهم يرون موت الإنسان انعداماً له و بطلاناً لذاته.

ويمكن أن يوجّه بوجه رابع وهو أن يرجع التقييد بالاُولى إلى الحكاية دون المحكيّ و ذلك بأن يكون الّذي قالوا إنّما هو « إن هي إلّا موتتنا » و يكون معنى الكلام أنّ هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون : إن هي إلّا موتتنا يريدون الموتة الاُولى من الموتتين اللّتين ذكرنا في قولنا : « قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين » الآية.

والوجوه الأربع مختلفة في القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثمّ الرابع ثمّ الأوّل.

قوله تعالى : « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » تتمّة كلام القوم و خطاب منهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجّوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم : « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأيّ وسيلة اتّخذتموها حتّى نعلم صدقكم في دعواكم أنّ الأموات سيحيون

و أنّ الموت ليس بانعدام .

قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبّع والّذين من قبلهم أهلكناهم إنّهم كانوا مجرمين » تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع والّذين من قبلهم من الاُمم .

وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب قيل : سعد أبوكرب و سيأتي في البحث الروائيّ نبذة من قصّته و في الكلام نوع تلويح إلى سلامة تبّع نفسه من الإهلاك .

قوله تعالى : « و ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحقّ و لكنّ أكثرهم لا يعلمون » ضمير التثنية في قوله : « وما بينهما » لجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع ، والباء في قوله : « بالحقّ » للملابسة أي ماخلقناهما إلّا متلبّستين بالحقّ ، وجوّز بعضهم كونها للسببيّة أي ماخلقناهما بسبب من الأسباب إلّا بسبب الحقّ الّذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولا يخفى بعده .

و مضمون الآيتين حجّة برهانيّة على ثبوت المعاد و تقريرها أنّه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثمّ يعدمها ثمّ يوجد أشياء اُخر ثمّ يعدمها و يحيي هذا ثمّ يميته و يحيي آخر و هكذا كان لاعباً في فعله عابثاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حقّ له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمي ينتقل إليه الأشياء و ما في هذا العالم الدنيويّ الفاني البائد مقدّمة للانتقال إلى ذلك العالم و هو الحياة الآخرة .

وقد فصّلنا القول في هذا البرهان في تفسير الاية ١٦ من سورة الأنبياء ، والاية ـ ٢٧ من سورة ص فليراجع .

و قوله : « و لكنّ أكثرهم لا يعلمون » تقريع لهم بالجهل .

قوله تعالى : « إنّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » بيان لصفة اليوم الّذي يثبته البرهان السابق و هو يوم القيامة الّذي فيه يقوم الناس لربّ العالمين .

وسمّاه الله يوم الفصل لأنّه يفصل فيه بين الحقّ والباطل و بين المحقّ والمبطل

والمتّقين والمجرمين أو لأنّه يوم القضاء الفصل منه تعالى .

و قوله : « ميقاتهم أجمعين » أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدّم ذكره من قوم تبّع و قوم فرعون و من تقدّمهم و قريش و غيرهم .

قوله تعالى : « يوم لا يغني مولى عن مولى شيأ ولا هم ينصرون » بيان ليوم الفصل ، والمولى هو الصاحب الّذي له أن يتصرّف في اُمور صاحبه و يطلق على من يتولّى الأمر و على من يُتولّى أمره والمولى الأوّل في الآية هو الأوّل والثاني هو الثاني .

والآية تنفي أوّلا إغناء مولى عن مولاه يومئذ ، و تخبر ثانياً أنّهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أنّ الاغناء يكون فيما استقلّ المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك ، والنصرة إنّما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة و يتمّ له ذلك بنصرة الناصر .

والوجه في انتفاء الاغناء والنصر يومئذ أنّ الأسباب المؤثّرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة قال تعالى : « و تقطّعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ و قال : « فزيّلنا بينهم » يونس : ٢٨ .

قوله تعالى : « إلّا من رحم الله إنّه هو العزيز الرحيم » استثناء من ضمير « لا ينصرون » والآية من أدلّة الشفاعة يومئذ و قد تقدّم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب .

هذا على تقدير رجوع ضمير « لا ينصرون » إلى الناس جميعاً على ما هوالظاهر . و أمّا لو رجع إلى الكفّار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى لكن من رحمه الله و هم المتّقون فإنّهم في غنىً عن مولى يغني عنهم و ناصر ينصرهم .

و أمّا ما جوّزه بعضهم من كونه استثناء متّصلا من « مولى » فقد ظهر فساده ممّا قدّمناه فإنّ الاغناء إنّما هو فيما لم يكن عند الانسان شيء من أسباب النجاة و من كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء والشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة و هوالدين المرضيّ وقد تقدّم في بحث الشفاعة ، نعم يمكن أن يوجّه بماسيجيء

في رواية الشحّام .

و قوله : « إنّه هو العزيز الرحيم » أي الغالب الّذي لا يغلبه شيء حتّى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه ، و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه و مناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة .

قوله تعالى : « إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم » تقدّم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافّات ، والأثيم من استقرّ فيه الإثم إمّا بالمداومة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار .

قوله تعالى : « كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » المهل هو المذاب من النحاس والرصاص و غيرهما ، والغلي والغليان معروف ، و الحميم الماء الحارّ الشديد الحرارة ، و قوله : « كالمهل » خبر ثان لقوله : « إنّ » كما أنّ قوله : « طعام الأثيم » خبر أوّل ، و قوله : « يغلي في البطون كغلي الحميم » خبر ثالث ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : «خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه ، والخطاب للملائكة الموكّلين على النار أي تقول للملائكة خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى : « و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

قوله تعالى : « ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم » كأنّ المراد بالعذاب ما يعذّب به و إضافته إلى الحميم بيانيّة والمعنى ثمّ صبّوا فوق رأسه من الحميم الّذي يعذّب به .

قوله تعالى : « ذق إنّك أنت العزيز الكريم » خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسي العذاب بعد العذاب ، وتوصيفه بالعزّة والكرامة على ماهو عليه من الذلّة واللأمة استهزاء به تشديداً لعذابه و قد كان يرى في الدنيا لنفسه عزّة و كرامة لا تفارقانه كما يظهر ممّا حكى الله سبحانه من قوله : « ولا أظنّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى : « إنّ هذا ماكنتم به تمترون » الامتراء الشكّ والارتياب والآية تتمّة قولهم له : «ذق » إلخ وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطاءهم و زلّتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان ، و لذا عبّر عن تحمّل العذاب بالذوق لما أنّه يعبّر عن إدراك ألم المولمات و لذّة الملذّات إدراكاً تامّاً بالذوق .

و يمكن أن تكون الآية استئنافا من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفّار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة ، و ربّما أيّده قوله : « كنتم به تمترون » بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالإفراد .

قوله تعالى : « إنّ المتّقين في مقام أمين » المقام محلّ القيام بمعنى الثبوت والركوز و لذا فسّر أيضاً بموضع الإقامة ، والأمين صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه والمعنى إنّ المتّقين ـ يوم القيامة ـ ثابتون في محلّ ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً .

و بذلك يظهر أنّ نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز في النسبة .

قوله تعالى : « في جنّات وعيون » بيان لقوله : « في مقام أمين » وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنّات الّتي هي ظرف ، و جمع الجنّات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أنّ لكلّ منهم وحده جنّة أو أكثر .

قوله تعالى : « يلبسون من سندس و استبرق متقابلين » السندس الرقيق من الحرير والإستبرق الغليظ منه و هما معرّبان من الفارسيّة .

وقوله : « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً للاستيناس إذ لا شرّ ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين .

قوله تعالى : «كذلك و زوّجناهم بحور عين » أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهنّ من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة ، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين و بياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء ، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين ، و ظاهر كلامه تعالى أنّ الحور العين

غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة .

قوله تعالى : « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي آمنين من ضررها .

قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت إلّا الموتة الاُولى و وقاهم عذاب الجحيم أي إنّهم في جنّة الخلد أحياء بحياة أبديّة لا يعتريها موت .

و قد استشكل في الآية بأنّ استثناء الموتة الاُولى من قوله : « لا يذوقون فيها الموت » يفيد أنّهم يذوقون الموتة الاُولى فيها ، والمراد خلافه قطعاً ، و بتقرير آخر الموتة الاُولي هي موتة الدنيا وقدمضت بالنسبة إلى أهل الجنّة ، والتلبّس في المستقبل بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الاُولى من عدم الذوق في المستقبل ؟

وهنا إشكال آخر لم يتعرّضوا له وهو أنّه قد تقدّم في قوله تعالى : « ربّنا أمتّنا اثنتين و أحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ أنّ بين الحياة الدنيا والساعة موتتين : موتة بالانتقال من الدنيا إلى البرزخ و موتة بالانتقال من البرزخ إلى الآخرة ، والظاهر أنّ المراد بالموتة الاُولى في الآية هي موتة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فهب أنّا أصلحنا استثناء الموتة الاُولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثن ؟ و ما الفرق بينهما و هما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنّة الخلد ؟

و اُجيب عن الإشكال الأوّل بأنّ الاستثناء منقطع والمعنى لكنّهم قد ذاقوا الموتة الاُولى في الدنيا و قد مضت فعموم قوله : « لا يذوقون فيها الموت » على حاله .

و على تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً « إلّا » بمعنى سوى و « إلّا الموتة الاُولى » بدل من « الموت » وليس من الاستثناء في شيء والمعنى لا يذوقون فيها سوى الموتة الاُولى من الموت أمّا الموتة الاُولى فقد ذاقوها و محال أن تعود و تذاق وهي اُولى .

و اُجيب ببعض وجوه اُخر لا يعبأ به ، وأنت خبير بأنّ شيئاً من الوجهين لا يوجّه اتّصاف الموتة بالاُولى و قد تقدّم في تفسير قوله : « إن هي إلّا موتتنا الاُولى » الآية وجوه في ذلك .

و أمّا الإشكال الثاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدّم لما أنّ هناك موتتين الموتة الاُولي و هي الناقلة للإنسان من الدنيا إلى البرزخ والموتة الثانية

و هي الناقلة له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان « إلّا » في قوله : « إلّا الموتة الأولى » بمعنى سوى والمجموع بدلاً من الموت كانت الآية مسوقة لنفي غير الموتة الأولى وهي الموتة الثانية الّتي هي موتة البرزخ فلا موت في جنّة الآخرة لا موتة الدنيا لأنّها تحقّقت لهم قبلا ولا غيرموتة الدنيا الّتي هي موتة البرزخ ، و يتبيّن بهذا وجه تقييد الموتة بالاُولى .

و قوله : « و وقاهم عذاب الجحيم » الوقاية حفظ الشيء ممّا يؤذيه و يضرّه فالمعنى و حفظهم من عذاب الجحيم ، و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تتميم لقسمة المكاره أي إنّهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار و من نشأة الجنّة إلى نشأة غيرها وهوالموت و مصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقيّة وهي عذاب الجحيم .

قوله تعالى : « فضلاً من ربّك ذلك هو الفوز العظيم » حال ممّا تقدّم ذكره من الكرامة والنعمة ، و يمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أومفعولاً له ، و على أيّ حال هو تفضّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنّه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكّم عليه شيء ، و إنّما هو وعد وعده لعباده ثمّ أخبر أنّه لا يخلف وعده ، و قد تقدّم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة .

و قوله : « ذلك هو الفوز العظيم » الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزاً عظيماً لكونه آخر ما يسعد به الإنسان .

قوله تعالى : « فإنّما يسّرناه بلسانك لعلّهم يتذكّرون » تفريع على جميع ما تقدّم من أوّل السورة إلى هنا و فذلكة للجميع ، والتيسير التسهيل ، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم العربيّة .

والمعنى فإنّما سهّلنا القرآن ـ أي فهم مقاصده ـ بالعربيّة لعلّهم ـ أي لعلّ قومك ـ يتذكّرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله : « إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون » الزخرف : ٣ .

و قيل : المراد من تيسير الكتاب بلسان النبيّ صلّى الله عليه وآله إجراؤه على لسانه و هو اُمّي لا يقرء ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوّته ، و هو بعيد من سياق الفذلكة .

قوله تعالى : « فارتقب إنّهم مرتقبون » كأنّه متفرّع على ما يتفرّع على الآية السابقة ، و محصّل المعنى أنّا يسّرناه بالعربيّة رجاء أن يتذكّروا فلم يتذكّروا بل هم في شكّ يلعبون و ينتظرون العذاب الّذي لا مردّ له من المكذّبين فانتظر العذاب إنّهم منتظرون له .

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكّم ، ومن سخيف القول قول من يقول إنّ في الآية أمراً بالمتاركة و هي منسوخة بآية السيف .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبّع » روى سهل بن ساعد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : لا تسبّوا تبّعاً فإنّه كان قد أسلم .

أقول : و روى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن ابن عبّاس أيضاً ، و أيضاً عن ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبيّ صلّى الله عليه .

و فيه و روى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج : كونوا ههنا حتّى يخرج هذا النبيّ ، أمّا أنا فلو أدركته لخدمته و خرجت معه .

و في الدرّ المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال : لم يمت تبّع حتّى صدّق بالنبيّ صلّى الله عليه لما كان يهود يثرب يخبرونه .

أقول : والأخبار في أمر تبّع كثيرة ، و في بعضها أنّه أوّل من كسى الكعبة .

و في الكافي بإسناده عن زيد الشحّام قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام و نحن في الطريق في ليلة الجمعة : إقرء فإنّها ليلة الجمعة قرآناً فقرأت « إنّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيأ ولا هم ينصرون إلّا من رحم الله » فقال أبو عبد الله

عليه السلام : نحن والله الّذي استثنى الله فكنّا نغني عنهم .

أقول : يشير عليه السلام إلى الشفاعة و قد أخذ الاستثناء عن « مولى » الأوّل .

و في تفسير القمي : ثمّ قال : « إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم » نزلت في أبي- جهل بن هشام ، و قوله : « كالمهل » قال : المهل الصفر المذاب « يغلي في البطون كغلي الحميم » و هو الّذي قد حمي و بلغ المنتهى .

أقول : « و من طرق أهل السنّة أيضاً روايات تؤيّد نزول الآية في أبي جهل .

﴿ سورة الجاثية مكيّة و هي ستّ و ثلاثون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ (٢) اِنَّ فِى السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ لَاٰيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ
وَ مَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَ مَا اَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ
تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلٰى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَ اِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْأً اتَّخَذَهَا هُزُواً
اُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا
شَيْأً وَ لَامَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)
هٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)
اَللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوٰاتِ وَ مَا فِى
الْاَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة دعوة عامّة على الإنذار تفتتح بآيات الوحدانيّة ثمّ تذكر تشريع الشريعة للنبيّ صلّى الله عليه وآله و تشير إلى لزوم اتّباعها له ولغيره بما أنّ أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتّباع الشريعة و اجتراحهم السيّآت بالإعراض عن الدين ، ثمّ تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم و هو يوم القيامة .

و في خلال مقاصدها إنذار و وعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والّذين اتّخذوا إلههم هواهم و أضلّهم الله على علم .

و من طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال و استنساخها .

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها و استثنى بعضهم قوله تعالى : « قل للّذين آمنوا » الآية ولا شاهد له .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » : الظاهر أنّ « تنزيل الكتاب » من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول ، و «من الله» متعلّق بتنزيل ، والمجموع خبر لمبتدء محذوف .

والمعنى هذا كتاب منزّل من الله العزيز الحكيم ، وقد تقدّم الكلام في مفردات الآية فيما تقدّم .

قوله تعالى : « إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » آية الشيء علامته الّتي تدلّ عليه و تشير إليه ، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض و سائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالّة عليه تعالى .

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أنّ في الشيء آية له و اُخرى يعدّه بنفسه آية كقوله تعالى : « إنّ في خلق السماوات والأرض و اختلاف الليل والنهار لآيات » آل عمران : ١٩٠ و قوله : « و من آياته

خلق السماوات والأرض » الروم : ٢٢ ونظائرهما كثيرة ، ويستفاد من اختلاف التعبير الّذي فيها أنّ معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله : « إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات » و قوله : « إنّ في السماوات والأرض لآيات » الآية أنّ المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير .

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده و أنّ لوجوده جهة أو جهات كلّ واحدة منها آية من الآيات و لو اُخذت نفس الشيء لم يستقم إلّا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى : « و في الأرض آيات للموقنين » الذاريات : ٢٠ ولو اُخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلّا أن يقال : والأرض آية للموقنين و ضاع المراد و هو أنّ في وجود الأرض جهات كلّ واحدة منها آية وحدها.

فمعنى قوله : « إنّ في السماوات والأرض » إلخ أنّ لوجود السماوات والأرض جهات دالّة على أنّ الله تعالى هو خالقها المدبّر لها وحده لا شريك له فإنّها بحاجتها الذاتيّة إلى من يوجدها و عظمة خلقتها و بداعة تركيبها و اتّصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصّة بكلّ واحد تحت نظام عامّ يجمعها و يحكم فيها تدلّ على أنّ لها خالقاً هو وحده ربّها المدبّر أمرها فلولا أنّ هناك من يوجدها لم توجد من رأس ، ولولا أنّ مدبّرها واحد لتناقضت النظامات و تدافعت واختلف التدبير .

و ممّا تقدّم يظهر أنّ قول بعضهم : إنّ قوله : « في السماوات » بتقدير مضاف محذوف والتقدير في خلق السماوات ، تكلّف من غير ضرورة تدعو إليه .

قوله تعالى : « و في خلقكم و ما يبثّ من دابّة آيات لقوم يوقنون » البثّ التفريق والإثارة و بثّه تعالى للدوابّ خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان : « ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ .

و معنى الآية و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرّقه الله من دابّة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين .

و خلق الإنسان على كونه موجوداً أرضيّاً له ارتباط بالمادّة نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات والأرض لأنّه مركّب من بدن أرضيّ مؤلّف من موادّ كونيّة عنصريّة تفسد بالموت بالتفرّق والتلاشي و أمر آخر وراء ذلك علويّ غير ماديّ لا يفسد بالموت بل يتوفّى ويحفظ عندالله ، وهو الّذي يسمّيه القرآن بالروح قال تعالى: « و نفخت فيه من روحي » الحجر ٢٩ ، و قال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثمّ من علقة ثمّ مضغة ثمّ تتميم خلق بدنه : « ثمّ أنشأناه خلقا آخر » المؤمنون : ١٤ ، وقال « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » الم السجدة : ١١ .

فالناظر في خلق الإنسان ناظر في آية ملكوتيّة وراء الآيات المادّيّة و كذا الناظر في خلق الدوابّ ولها نفوس ذوات حياة وشعور و إن كانت دون الإنسان في حياتها و شعورها كما أنّها دونه في تجهيزاتها البدنيّة ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنّه واحد لا شريك له في ربوبيّته واُلوهيّته .

قوله تعالى : « واختلاف الليل والنهار» إلى آخر الآية هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض .

وقوله : « و اختلاف الليل والنهار » يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً منظّماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرّر بتكرّر السنين يدبّر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض و يربّيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى : « و قدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

و قوله : « و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها »المراد بالرزق الّذي ينزّله الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبّب مجازاً أو لأنّ المطر أيضاً من الرزق فانّ مياه الأرض من المطر ، والمراد بالسماء جهة العلو أوالسحاب مجازاً ، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد و النّمو ولا يخلو التعرّض للإحياء بعدالموت من تلويح إلى المعاد .

و قوله : « و تصريف الرياح » أي تحويلها و إرسالها من جانب إلى جانب ، و

لتصريفها فوائد عامّة كثيرة من أعمّها سوق السحب إلى أقطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات والروائح المنتنة .

وقوله : « آيات لقوم يعقلون » أي يميّزون بين الحقّ والباطل والحسن والقبيح بالعقل الّذي أودعه الله سبحانه فيهم .

و قد خصّ كلّ قبيل من الآيات بقوم خاص فخصّت آية السماوات والأرض بالمؤمنين و آية الإنسان و سائر الحيوان بقوم يوقنون ، و آية اختلاف الليل و النهار والأمطار و تصريف الرياح بقوم يعقلون .

و لعلّ الوجه في ذلك أنّ آية السماوات والأرض تدلّ بدلالة بسيطة ساذجة على أنّها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتّفاق وصدفة بل لها موجد أوجدها مع مالها من الآثار والأفعال الّتي يتحصّل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع و ربّ الكلّ ، والإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج والمؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك و ينتفعون به .

و أمّا أنّه خلق الإنسان و سائر الدوابّ الّتي لها حياة و شعور فإنّهما من حيث أرواحها و نفوسها الحيّة الشاعرة من عالم وراء عالم المادّة و هو المسمّى بالملكوت و قد خصّ القرآن كمال إدراكه ومشاهدته بأهل اليقين كما قال : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

و أمّا آية اختلاف الليل والنهار والأمطار المحيية للأرض و تصريف الرياح فإنّها لتنوّع أقسامها و تعدّد جهاتها و ارتباطها بالأرض والأرضيّات و كثرة فوائدها وسعة منافعها تحتاج إلى تعقّل فكريّ تفصيليّ عميق ولا تنال بالفهم البسيط الساذج و لذلك خصّت بقوم يعقلون والآيات آيات لجميع الناس لكن لمّا كان المنتفع بها بعضهم خصّت بهم .

و قد عبّر عن أهل اليقين والعقل بقوم يوقنون وبقوم يعقلون وعن أهل الإيمان بالمؤمنين لأنّ بساطة آية أهل الإيمان تفيد أنّ المراد بالإيمان أصله و هو ثابت فيهم

فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين و العقل فإنّهما لدقّتهما و علوّ منالهما تدركان شيأ فشيأ فناسبتا التعبير بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرار التجدّدي .

و قيل في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أوّلا أهل الإيمان ثمّ الإيقان ثمّ العقل أنّه على ترتيب الترقّي فإنّ الإيقان مرتبة خاصّة في الإيمان فهو بعد الإيمان والعقل مدار الإيمان والإيقان ونعني العقل المؤيّد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كلّ وجه و في استحكامه كلّ خير. وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث [١] .

و فيه أنّ مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أوّل المراتب على أنّ ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين ممّا لا سبيل إلى تصوّره .

و قيل في وجه الترتيب : أنّ تمام النظر في الثاني يضطرّ إلى النظر في الأوّل لأنّ السماوات و الأرض من أسباب تكوّن الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله ، و كذلك النظر في الثالث يضطرّ إلى النظر في الأوّلين أمّا الأوّل فظاهر ، و أمّا الثاني فلأنّه العلّة الغائيّة فلابدّ أن يكون جامعاً أي إنّ الثالث و هو المعلول يتوقّف في معرفته على ذكر علّته الغائيّة قبله .

و فيه أنّه على تقدير صحّته وجه لترتّب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعني الإيمان و الإيقان و العقل . على أنّ الثالث أيضا كالأوّل من أسباب تكوّن الحيوان فيجب أن يتقدّم على الثاني ، و بوجه آخر الثاني علّة غائيّة للأوّل فيجب أن يتقدّم على الأوّل كما تقدّم على الثالث .

و قيل : إنّ السبب في ترتيب هذه الفواصل أنّه قيل : إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، و إن كنتم لستم بمؤمنين و كنتم من طلاب الجزم و اليقين فافهموا هذه

---

(١) هذا الوجه مستفاد من الكشاف ، و ما يتلوه لصاحب الكشف ، والوجه الاخير للرازى فى التفسير الكبير .

الدلائل ، و إن كنتم لستم بمؤمنين و لاموقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل .

وفيه أنّه على تقدير صحّته وجه لترتّب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثة على أنّ لازمه أن لا يختصّ شيء من الآيات الثلاث بواحدة من الصفات الثلاث بل يكون الجميع للجميع و السياق لا يساعد عليه . على أنّ ظاهر كلامه أنّه فسّر اليقين بالجزم و هو العلم فلا يبقى للعقل إلّا الحكم الظنّي و لا يعبأ به في المعارف الاعتقاديّة .

قوله تعالى : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملاً فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن كان هناك علم قال تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقال : « و أضلّه الله على علم » الجاثية : ٢٣ .

و الآيات هي العلامات الدالّة فآيات الله الكونيّة هي الاُمور الكونيّة الدالّة بوجودها الخارجيّ على كونه تعالى واحداً في الخلق متّصفا بصفات الكمال منزّها عن كلّ نقص وحاجة ، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به تعالى كما تدلّ هي عليه .

و الآيات القرآنيّة آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونيّة الدالّة عليه سبحانه أو على معارف اعتقاديّة أو أحكام عمليّة أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر بها فإنّ مضامينها دالّة عليه و من عنده ، و الإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالتها و يلزمه الإيمان بمدلولها .

و الآيات المعجزة أيضا إمّا آيات كونيّة و دلالتها دلالة الآيات الكونيّة وإمّا غير كونيّة كالقرآن في إعجازه و مرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونيّة .

و قوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك » الإشارة إلى الآيات القرآنيّة المتلوّة عليه صلّى الله عليه وآله ، و يمكن أن تكون إشارة إلى الآيات الكونيّة المذكورة في الآيات الثلاث السابقة بعناية الاتّحاد بين الدالّ و المدلول .

و قوله : فبأيّ حديث بعد الله و آياته يؤمنون » قيل : هو من قبيل قولك :

أعجبني زيد و كرمه ، و إنّما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد و زيد من حيث كرمه ، فمعنى الآية فبأيّ حديث بعد آيات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون ؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأيّ حديث بعده يؤمنون ؟

و قيل : الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأيّ حديث بعد حديث الله و آياته يؤمنون ، و الأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونيّة و لذا قال الطبرسيّ بعد ذكر هذا المعنى : و الفرق بين الحديث الّذي هو القرآن و بين الآيات أنّ الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيّن الحقّ من الباطل ، و الآيات هي الأدلّة الفاصلة بين الصحيح و الفاسد . انتهى و أوّل الوجهين ألطف .

قوله تعالى : « ويل لكلّ أفّاك أثيم » الويل الهلاك ، و الأفّاك مبالغة من الإفك و هو الكذب ، و الأثيم من الإثم بمعنى المعصية و المعنى ليكن الهلاك على كلّ كذّاب ذي معصية .

قوله تعالى : « يسمع آيات الله تتلى عليه ثمّ يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها » الخ صفة لكلّ أفّاك أثيم ، و « ثمّ » للتراخي الرتبيّ و تفيد معنى الاستبعاد،والإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه .

و المعنى يسمع آيات الله ـ و هي آيات القرآن ـ تقرء عليه ثمّ يلازم الكفر و الحال أنّه مستكبر لا يتواضع للحقّ كأن لم يسمع تلك الآيات فبشّره بعذاب أليم .

قوله تعالى : « و إذا علم من آياتنا شيأ اتّخذها هزؤا » الخ ظاهر السياق أنّ ضمير « اتّخذها » للآيات ، و جعل الهزء متعلّقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله و المعنى و إذا علم ذلك الأفّاك الأثيم المصرّ المستكبر بعض آياتنا استهزء بآياتنا جميعا .

و قوله : « اُولئك لهم عذاب مهين » أي مذلّ مخز ، و توصيف العذاب بالإهانة مقابلة لاستكبارهم و استهزائهم ، و الإشارة باُولئك إلى كلّ أفّاك ، و قيل في الآية بوجوه اُخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها .

قوله تعالى : « من ورائهم جهنّم و لا يغني عنهم ما كسبوا شيأ و لاما اتّخذوا من دون الله أولياء » الخ لمّا كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحقّ غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنّم وراءهم مع أنّها قدّامهم و هم سائرون نحوها متوجّهون إليها .

و قيل : وراءهم بمعنى قدّامهم قال في المجمع : وراء اسم يقع على القدّام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك . انتهى و في قوله : «من ورائهم جهنّم » قضاء حتم .

و قوله : « و لايغني عنهم ما كسبوا شيأ» المراد بما كسبوا ما حصّلوه في الدنيا من مال و نحوه ، و تنكير « شيأ » للتحقير أي و لا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار في الدنيا شيأ يسيراً حقيراً .

و قوله : « و لا ما اتّخذوا من دون الله أولياء » «ما» مصدريّة و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الّذين اتّخذوهم أرباباً آلهة و زعموا أنّهم لهم شفعاء أو الأصنام .

و قوله : « ولهم عذاب عظيم » تأكيد لوعيدهم و قد أوعدهم الله سبحانه أوّلا بقوله : « ويل لكلّ أفّاك » إلخ ، و ثانياً بقوله : « فبشّره بعذاب أليم » وثالثاً بقوله: «اُولئك لهم عذاب مهين» ورابعاً بقوله «من ورائهم جهنّم » إلخ وخامساً بقوله : « ولهم عذاب عظيم » ، و وصف عذابهم في خلالها بأنّه أليم مهين عظيم .

قوله تعالى : « هذا هدى والّذين كفروا بآيات ربّهم لهم عذاب من رجز أليم» الإشارة بقوله : « هذا هدى » إلى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز ـ كما قيل ـ أشدّ العذاب و أصله الاضطراب .

والآية في مقام الردّ لما رموا به القرآن و عدّوه مهاناً بالهزء والسخريّة و خلاصة وعيد من كفر بآياته .

قوله تعالى : « الله الّذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره » إلخ لمّا ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم والاستهزاء

بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشدّ العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن و يكفر ، و ذكر بعض آيات ربوبيّته الّتي فيها من عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أوّلا تسخير البحر لهم ثمّ ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلّا من انسلخ عن الفطرة الإنسانيّة و نسي التفكّر الّذي هو من أجلى خواصّ الإنسان .

فقوله : « الله الّذي سخّر لكم البحر » اللام في « لكم » للغاية أي سخّر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان ، و يمكن أن تكون للتعدية فيكون الإنسان يسخّر البحر بإذن الله .

و قوله : « لتجري الفلك فيه بأمره » غاية لتسخير البحر ، و جريان الفلك فيه بأمره ، هو إيجاده الجريان بكلمة كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة إليه تعالى و قوله : « ولتبتغوا من فضله » أي و لتطلبوا بركوبه عطيّته تعالى و هو رزقه .

و قوله : « ولعلّكم تشكرون » أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة الّتي هي تسخير البحر .

قوله تعالى : « و سخّر لكم ما في السماوات و ما في الأرض جميعاً منه » إلخ هذا من الترقّي بعطف العامّ على الخاصّ ، والكلام في « لكم » كالكلام في مثله في الآية السابقة ، و قوله : « جميعاً » تأكيد لما في السماوات والأرض أو حال منه .

و قوله : « سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً » معنى تسخيرها للإنسان أنّ أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويّها و سفليّها ولا يزال المجتمع البشريّ يتوسّع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها و التوسّل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكلّ مسخّر له .

و قوله : « منه » من للابتداء ، والضمير لله تعالى و هو حال ممّا في السماوات والأرض ، والمعنى سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدءً منه

حاصلاً من عنده فذوات الأشياء تبتدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصّها وآثارها بخلقه و من خواصّها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى : « الله يبدؤ الخلق ثمّ يعيده » الروم : ١١ وقال: « إنّه هو يبدىء و يعيد » البروج : ١٣ .

و قد ذكروا لقوله : « منه » معاني اُخر لا يخلو شيء منها عن التكلّف تركنا التعرّض لها .

و قوله : « إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون » وجه تعلّقها بالتفكّر ظاهر .

☆ ☆ ☆

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْأً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩).

﴿بيان﴾

لمّا ذكر آيات الوحدانيّة و أشار فيها بعض الإشارة إلى المعاد وكذا إلى النبوّة في ضمن ذكر تنزيل الكتاب و إيعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر في هذه الآيات تشريع الشريعة للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، و توسّل إلى ذلك بمقدّمتين تربطانه بما تقدّم من الكلام إحداهما دعوة المؤمنين إلى أن يكفّوا عن التعرّض لحال الكفّار الّذين لا يرجون أيّام الله فإنّ الله مجازيهم لأنّ الأعمال مسؤل عنها صالحة أو طالحة ، وهذا هو السبب لتشريع الشريعة ، والثانية أنّ إنزال الكتاب والحكم والنبوّة ليس ببدع فقد آتي الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة و آتاهم البيّنات الّتي لا يبقى معها

في دين الله ريب لمرتاب إلّا أنّ علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم و سيقضي الله بينهم.

ثمّ ذكر سبحانه تشريع الشريعة له و أمره باتّباعها و نهاه عن اتّباع أهواء الجاهلين.

قوله تعالى: «قل للّذين آمنوا يغفروا للّذين لا يرجون أيّام الله» إلخ أمر منه تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفّار فيصير تقدير الآية قل لهم: اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى: «قل لعبادي الّذين آمنوا يقيموا الصلاة» إبراهيم: ٣١.

والآية مكّيّة واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين المستهزئين بآيات الله المهدّدة لهم بأشدّ العذاب و كأنّ المؤمنين بالنبيّ صلّى الله عليه وآله كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم و إهانتهم للنبيّ و استهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله و من أرسله به و يدعوهم إلى رفض ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممّن حقّت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقة فأمر الله سبحانه نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم و عدم التعرّض لحالهم فإنّ وبال أعمالهم سيلحق بهم و جزاء ما كسبوه سينالهم.

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله: «قل للّذين آمنوا يغفروا» الصفح والإعراض عنهم بترك مخاصمتهم و مجادلتهم، والمراد بالّذين لا يرجون أيّام الله هم الّذين ذكروا في الآيات السابقة فإنّهم لا يتوقّعون لله أيّاماً لا حكم فيها ولا ملك إلّا له تعالى كيوم الموت والبرزخ و يوم القيامة و يوم عذاب الاستئصال.

و قوله: «ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون» تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة و محصّله ليصفحوا عنهم ولا يتعرّضوا لهم، فلا حاجة إلى ذلك لأنّ الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله: «فذرني والمكذّبين أُولي النعمة و مهّلهم قليلاً إنّ لدينا أنكالاً و جحيماً» المزمّل: ١٣، و قوله: «ثمّ ذرهم في خوضهم يلعبون» الأنعام: ٩١، و قوله: «فذرهم يخوضوا و يلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون» المعارج: ٤٢، و قوله: «فاصفح عنهم و قل سلام فسوف

يعلمون » الزخرف : ٨٩ .

و معنى الآية : مر الّذين آمنوا أن يعفوا و يصفحوا عن اُولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الّذين لا يتوقّعون أيّام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيّامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيّام الله حتّى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيّامه .

وفي قوله : « ليجزي قوماً » وضع الظاهر موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ليجزيهم ،والنكتةفيه مع كون « قوماً » نكرة غير موصوفة تحقير أمرهم و عدم العناية بشأنهم كأنّهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا يهتمّ بشيء من أمرهم .

و بما تقدّم من تقرير معنى الآية تتّصل الآية و ما بعدها بما قبلها و تندفع الإشكالات الّتي أوردوها عليها و اهتمّوا بالجواب عنها ، و يظهر فساد المعاني المختلفة الّتي ذكروها لها و من أراد الاطّلاع عليها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثمّ إلى ربّكم ترجعون » في موضع التعليل لقوله : « ليجزي قوماً » إلخ و لذا لم يعطف و ليس من الاستئناف في شيء .

و محصّل المعنى ليجزيهم الله بما كسبوا فإنّ الأعمال لا تذهب سُدىً و بلا أثر بل من عمل صالحاً انتفع به و من أساء العمل تضرّر به ثمّ إلى ربّكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً .

قوله تعالى : « و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة » إلخ لمّا بيّن أنّ للأعمال آثاراً حسنة أو سيّئة تلحق صاحبيها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبيّ صلّى الله عليه وآله إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى : « و على الله قصد السبيل و منها جائر » النحل : ٩ .

فنبّه على ذلك بقوله الآتي : « ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر » إلخ و قدّم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوّة و رزقهم من الطيّبات وتفضيلهم و إيتائهم البيّنات ليؤذن به أنّ الإفاضة الإلهيّة بالشريعة و النبوّة

والكتاب ليست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم.

فقوله: « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة » المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى عليه السلام و أمّا الإنجيل فلا يتضمّن الشريعة و شريعته شريعة التوراة، و أمّا زبور داود فهي أدعية و أذكار، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعّده أنّ الكتاب لم يطلق في القرآن إلّا على ما يشتمل على الشريعة.

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: « و أنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» البقرة: ٢١٣ وقال في التوراة: « يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » المائدة: ٤٤ فالحكم من لوازم الكتاب كما أنّ النبوّة من لوازمه.

والمراد بالنبوّة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جمّاً غفيراً من الأنبياء كما في الأخبار و قصّ في كتابه جماعة من رسلهم.

وقوله: « و رزقناهم من الطيّبات » أي طيّبات الرزق ومن ذلك المنّ والسلوى.

و قوله: « و فضّلناهم على العالمين » إن كان المراد جميع العالمين فقد فضّلها من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضّلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: « و آتيناهم بيّنات من الأمر » إلى آخر الآية المراد بالبيّنات الآيات البيّنات التي تزيل كلّ شكّ و ريب و تمحوه عن الحقّ و يشهد بذلك تفريع قوله: « فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم ».

والمراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و « من » بمعنى في والمعنى و أعطيناهم دلائل بيّنة في أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى عليه السلام.

و قيل: المراد به أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى آتيناهم آيات من أمر النبيّ و علامات مبيّنة لصدقه كظهوره في مكّة و مهاجرته منها إلى يثرب و نصرة أهله وغير ذلك

ممّا كان مذكوراً في كتبهم .

و قوله : « فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » يشير إلى أنّ ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين و اختلاط الباطل بالحقّ لم يكن عن شبهة أو جهل و إنّما أوجدها علماؤهم بغياً و كان البغي دائراً بينهم .

و قوله : « إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » إشارة إلى أنّ اختلافهم الّذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحقّ لا يذهب سدىً و سيؤثّر أثره و يقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم .

قوله تعالى : « ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ولا تتّبع أهواء الّذين لا يعلمون » الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله و يشاركه فيه اُمّته ، و الشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين ، والمعنى بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصّة من أمر الدين الإلهيّ وهي الشريعة الإسلاميّة الّتي خصّ الله بها النبيّ صلى الله عليه و آله و اُمّته .

و قوله : « فاتّبعها » إلخ أمر للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم باتّباع ما يوحى إليه من الدين و أن لا يتّبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الإلهيّ .

و يظهر من الآية أوّلاً أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مكلّف بالدين كسائر الاُمّة .

و ثانياً أنّ كلّ حكم عمليّ لم يستند إلى الوحي الإلهيّ ولم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم .

قوله تعالى : « إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيأ » إلخ ، تعليل للنهي عن اتّباع أهواء الّذين لا يعلمون ، والإغناء من شيء رفع الحاجة إليه ، والمحصّل أنّ لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلّا هو والذريعة إلى ذلك اتّباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الّذين اتّبعت أهواءهم شيأ من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيأ من الإغناء .

و قوله : « و إنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله وليّ المتّقين » الّذي يعطيه السياق أنّه تعليل آخر للنهي عن اتّباع أهواء الجاهلين ، وأنّ المراد بالظالمين المتّبعون

لأهوائهم المبتدعة و بالمتّقين المتّبعون لدين الله .

والمعنى أنّ الله وليّ الّذين يتّبعون دينه لأنّهم متّقون والله وليّهم ، والّذين يتّبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى وليّاً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنّهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتّبع دين الله يكن لك وليّاً ولا تتّبع أهواءهم حتّى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيأ .

و تسمية المتّبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله : « أن لعنة الله على الظالمين الّذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالآخرة هم كافرون» الأعراف : ٤٥ .

☆ ☆ ☆

هٰذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون (٢٠) أم
حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا
الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون (٢١) و خلق الله
السموات والارض بالحق و لتجزى كل نفس بما كسبت و هم لا
يظلمون (٢٢) أفرأيت من اتخذ الٰهه هوٰيه و أضله الله علىٰ علم و
ختم علىٰ سمعه و قلبه و جعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من
بعد الله أفلا تذكرون (٢٣) و قالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت
و نحيا و ما يهلكنا الا الدهر و ما لهم بذٰلك من علم ان هم الا
يظنون (٢٤) و اذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا
أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (٢٥) قل الله يحييكم ثم يميتكم
ثم يجمعكم الى يوم القيمة لا ريب فيه و لٰكن أكثر الناس لا
يعلمون (٢٦) و لله ملك السموات والارض و يوم تقوم الساعة
يومئذ يخسر المبطلون (٢٧) و ترى كل امة جاثية كل امة تدعى
الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون (٢٨) هٰذا كتابنا ينطق
عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (٢٩) فأما الذين آمنوا

وَ عَمِلُوا الصّٰالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)
وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ
قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَ إِذٰا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ السّٰاعَةُ لاٰ رَيْبَ
فِيهٰا قُلْتُمْ مٰا نَدْرِي مَا السّٰاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢)
وَ بَدٰا لَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣)
وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسٰيكُمْ كَمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا وَ مَأْوٰيكُمُ النّٰارُ
وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (٣٤) ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ هُزُواً وَ
غَرَّتْكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا فَالْيَوْمَ لاٰ يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)
فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ
الْكِبْرِيٰاءُ فِي السَّمٰوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

﴿ بيان ﴾

لمّا أشار إلى جعل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على شريعة من الأمر و هو تشريع الشريعة الاسلاميّة أشار في هذه الآيات إلى أنّها بصائر للنّاس يبصرون بها ما يجب عليهم أن يسلكوه من سبيل الحياة الطيّبة في الدنيا و تتلوها سعادة الحياة الآخرة ، و هدى ورحمة لقوم يوقنون بآيات الله .

وأشار إلى أنّ الّذي يدعو مجترحي السيّآت أن يستنكفوا عن التشرّع بالشريعة إنكارهم المعاد فيحسبون أنّهم و المتشرّعون بالدين سواء في الحياة و الممات وأن لا أثر

للتشرّع بالشريعة فلا ثمرة للعمل الصالح الّذي تهدي إليه الشريعة إلّا إتعاب النفس بالتقيّد من غير موجب . فبرهن تعالى على بطلان حسبانهم بإثبات المعاد ثمّ أردفه بوصف المعاد و ما يثيب به الصالحين يومئذ و ما يعاقب به الصالحين أهل الجحود والإجرام ، و عند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح .

قوله تعالى : « هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون » الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الّذي هو الشريعة أوإلى القرآن بما يشتمل على الشريعة، والبصائر جمع بصيرة و هي الإدراك المصيب للواقع ، والمراد بها مايبصر به ، و إنّماكانت الشريعة بصائر لأنّها تتضمّن أحكاماً و قوانين كلّ منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة .

والمعنى هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكلّ منها الناس و يهتدون إلى السبيل الحقّ و هو سبيل الله و سبيل السعادة فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة « هذا بصائر للناس» كقوله بعد ذكر آيات الوحدانيّة في أوّل السورة : « هذا هدى والّذين كفروا » إلخ .

و قوله : « و هدى و رحمة لقوم يوقنون » أي دلالة واضحة و إفاضة خير لهم ، و المراد بقوم يوقنون: الّذين يوقنون بآيات الله الدالّة على اُصول المعارف فإنّ المعهود في القرآن تعلّق الإيقان بالاُصول الاعتقاديّة .

و تخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لايخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرّد التبصّر ، و بالرحمة الرحمة الخاصّة بمن اتّقى و آمن برسوله بعد الإيمان بالله قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم » الحديد : ٢٨ ، و قال: « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين الّذين يؤمنون بالغيب ـ إلى أن قال ـ و بالآخرة هم يوقنون » البقرة : ٤ ، و للرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاً ثمّ للرحمة الخاصّة بأهل الإيمان أيضاًمراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكلّ مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها .

و أمّا الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فانّ القرآن بما يشتمل على الشريعة رحمة للناس كافّة كما أنّ الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعاً قال تعالى : « و ما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧ و قد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة .

قوله تعالى : « أم حسب الّذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم » الخ قال في **المجمع** : الاجتراح الاكتساب يقال : جرح و اجترح وكسب واكتسب و أصله من الجراح لأنّ لذلك تأثيراً كتأثير الجراح . قال : و السيّئة الفعلة القبيحة الّتي يسوء صاحبها باستحقاق الذمّ عليها . انتهى .

و الجعل بمعنى التصيير ، و قوله : « كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات » في محلّ المفعول الثاني للجعل والتقدير كائنين كالّذين آمنوا الخ .

و جزم الزمخشريّ في الكشّاف على كون الكاف في « كالّذين » اسماً بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله : « نجعلهم » و قوله : « سواء » بدلا منه .

وقوله : « سواء » بالنصب على القراءة الدائرة وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستويا أو متساويا ، وقوله : « محياهم » مصدر ميميّ و فاعل « سواء » و ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين ، و « مماتهم » معطوف على « محياهم » و حاله كحاله .

والآية مسوقة سوق الإنكار و « أم » منقطعة ، و المعنى بل أحسب وظنّ الّذين يكتسبون السيّئات أن نصيّرهم مثل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات مستوياً محياهم ومماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة اُولئك و موتهم كموتهم فيكون الايمان و التشرّع بالدين لغواً لا أثر له في حياة ولا موت و يستوي وجوده وعدمه .

و قوله : « ساء ما يحكمون » ردّ لحسبانهم المذكور و حكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيّئات و الّذين آمنوا وعملوا الصالحات ومساءة الحكم كناية عن بطلانه .

فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات :

أمّا أنّهما لا يتساويان في الحياة فلأنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحياة على بصيرة من أمرهم وهدى و رحمة من ربّهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة و المسيء صفر الكفّ من ذلك وقال تعالى في موضع آخر : « فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى و من أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا » طه : ١٢٤ . وقال في موضع آخر : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

و أمّا أنّهما لا يتساويان في الممات فلأنّ الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعداماً للشيء و بطلاناً للنفس الانسانيّة كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع إلى الله سبحانه و انتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة الّتي هي دار البقاء و عالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة وغيره في شقاء و عذاب .

وقد أشار سبحانه إليه فيما تقدّم من كلامه بقوله : « كذلك يحيي الله الموتى » و قوله : « ثمّ إلى ربّكم ترجعون » و غير ذلك ، وسيتعرّض له بقوله : « و خلق الله السماوات و الأرض بالحقّ » الخ .

والآية من حيث تركيب ألفاظها والمعنى المتحصّل منها معارك الآراء بين المفسّرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة و الّذي يعطيه السياق و يساعد عليه هو ما قدّمناه ، ولا كثير فائدة في التعرّض لوجوه اُخر ذكروها فمن أراد الاطّلاع عليها فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى : « و خلق الله السماوات و الأرض بالحقّ و لتجزى كلّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » الظاهر أنّ المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في « بالحقّ » للملابسة فكون خلق العالم بالحقّ كونه حقّاً لا باطلا ولعباً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه .

وقوله : « ولتجزى » الخ عطف على « بالحقّ » و الباء في قوله : « بما كسبت » للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب و إن كان معصية فالعقاب ، وقوله : « وهم لا يظلمون » حال من كلّ نفس أي و لتجزي كلّ نفس بما كسبت بالعدل .

فيؤل معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات و الأرض بالحقّ و بالعدل فكون الخلق بالحقّ يقتضي أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كلّ نفس ما تستحقّه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا و المسيء يجزى جزاء سيّأ و إذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة اُخرى .

و بهذا البيان إنّ الآية تتضمّن حجّتين على المعاد إحداهما ما اُشير إليه بقوله : « و خلق الله السماوات و الأرض بالحقّ » ويسلك من طريق الحقّ ، و الثانية ما اُشير إليه بقوله : « و لتجزى » الخ و يسلك من طريق العدل .

فتؤل الحجّتان إلى ما يشتمل عليه قوله : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظنّ الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » ص : ٢٨ .

و الآية بما فيها من الحجّة تبطل حسبانهم أنّ المسيء كالمحسن في الممات فإنّ حديث المجازاة بالثواب و العقاب على الطاعة و المعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع و العاصي في الممات ، و لازم ذلك إبطال حسبانهم أنّ المسيء كالمحسن في الحياة فإنّ ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل و يتزوّد من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين .

قوله تعالى : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه الله على علم » إلى آخر الآية ظاهر السياق أنّ قوله : « أفرأيت» مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممّن حاله هذا الحال ؟

و المراد بقوله : « اتّخذ إلهه هواه » حيث قدّم « إلهه » على « هواه» أنّه يعلم أنّ له إلها يجب أن يعبده ــ و هو الله سبحانه ــ لكنّه يبدّل له من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه ، و لذلك عقّبه بقوله : « وأضلّه الله على علم » أي إنّه ضالّ عن السبيل و هو يعلم .

و معنى اتّخاذ الإله العبادة و المراد بها الإطاعة فإنّ الله سبحانه عدّ الطاعة

عبادة كما في قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين و أن اعبدوني » يس : ٦٠ و قوله : « اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله » التوبة : ٣١ ، وقوله : « ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ .

و الاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلّا إظهار الخضوع و تمثيل أنّ العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلّا ما أراده و رضيه معبوده فمن أطاع شيأً فقد اتّخذه إلهاً و عبده فمن أطاع هواه فقد اتّخذ إلهه هواه و لا طاعة إلّا لله أو من أمر بطاعته .

فقوله : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » أي ألا تعجب ممّن يعبد هواه بإطاعته و اتّباعه و هو يعلم أنّ له إلهاً غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنّه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه .

و قوله : « و أضلّه الله على علم » أي هو ضالّ بإضلال منه تعالى يضلّه به مجازاة لاتّباعه الهوى حال كون إضلاله مستقرّاً على علم هذا الضالّ ، و لا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما في قوله تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، و ذلك أنّ العلم لا يلازم الهدى و لا الضلال يلازم الجهل بل الّذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقّبه الاهتداء و أمّا إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتّباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم .

و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد بالعلم هو علمه تعالى و المعنى و أضلّه الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق .

و قوله : « و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة » كالعطف التفسيري لقوله : « و أضلّه الله على علم » و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحقّ و لا يعقله ، و جعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحقّ من آيات الله و محصّل الجميع أن لا يرتّب على السمع و القلب و البصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحقّ إذا أدركه لاستكبار من نفسه و إتبّاع للهوى ، و قد عرفت أنّ الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه .

و قوله : « فمن يهديه من بعد الله » الضمير لمن اتّخذ إلهه هواه و التفريع على ما تحصّل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضلّه الله على علم إلخ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى : « قل إنّ هدى الله هو الهدى » البقرة : ١٢٠ و قال : « و من يضلل الله فماله من هاد » المؤمن : ٣٣ .

و قوله : «أفلا تذكّرون » أي أفلا تتفكّرون في حاله فتتذكّروا أنّ هؤلاء لاسبيل لهم إلى الهدى مع اتّباع الهوى فتتّعظوا .

قوله تعالى : « و قالوا ما هي إلّا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلّا الدهر » إلى آخر الآية قال الراغب: الدهر في الأصل اسم لمدّة العالم من مبدءِ وجوده إلى انقضائه و على ذلك قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » ثمّ يعبّر به عن كلّ مدّة كثيرة ، و هو خلاف الزمان فإنّ الزمان يقع على المدّة القليلة والكثيرة . انتهى

والآية على ما يعطيه السياق - سياق الاحتجاج على الوثنيّين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد - حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريّين الناسبين للحوادث وجوداً و عدماً إلى الدهر المنكرين للمبدءِ والمعاد جميعاً إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة .

فقولهم : « ما هي إلّا حياتنا الدنيا » الضمير للحياة أي لاحياة لنا إلّا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدّعيه الدين الإلهيّ من البعث والحياة الآخرة ، و هذا هو القرينة المؤيّدة لأن يكون المراد بقوله : « نموت و نحيا » يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمرّ بذلك بقاء النسل الإنسانيّ بموت الأسلاف وحياة الأخلاف ويؤيّد ذلك بعض التأييد قوله بعده : « و ما يهلكنا إلّا الدهر » المشعر بالاستمرار .

فالمعنى و قال المشركون : ليست الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأخلاف و ما يهلكنا إلّا الزمان - الّذي بمروره يبلى كلّ جديد و يفسد كلّ كائن و يميت كلّ حيّ - فليس الموت انتقالاً من دار إلى دار منتهياً إلى البعث والرجوع إلى الله .

و لعلّ هذا كلام بعض الجهلة من وثنيّة العرب و إلّا فالعقيدة الدائرة بين الوثنيّة هي التناسخ وهو أنّ نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلّقت بأبدان اُخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلّقت ببدن جديد تتنعّم فيه و تسعد ، و إن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلّقت ببدن لاحق تشقى فيه و تعذّب جزاء لعملها السيّىء وهكذا ، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكه .

و لهذا أعني كون القول بالتناسخ دائراً بين الوثنيّة ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد بالآية قولهم بالتناسخ والمعنى «إن هي إلّا حياتنا الدنيا » فلسنا نخرج من الدنيا أبداً « نموت » عن حياة دنيا « و نحيا » بعد الموت بالتعلّق ببدن جديد و هكذا « و ما يهلكنا إلّا الدهر » .

و هذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذيلا : « و ما يهلكنا إلّا الدهر » إلّا أن يوجّه بأنّ مرادهم من نسبة الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيلة يتوسّل بها الملك الموكّل على الموت إلى الإماتة ، و كذا لا تلائمه حجّتهم المنقولة ذيلاً : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » الظاهرة في أنّهم يرون آباءهم معدومين باطلي الذوات .

و ذكر في معنى الآية وجوه اُخر لا يعبأ بها كقول بعضهم : المعنى نكون أمواتاً لا حياة فيها و هو قبل ولوج الروح ثمّ نحيى بولوجها على حدّ قوله تعالى : « وكنتم أمواتاً فأحياكم » البقرة : ٢٨ .

و قول بعضهم : المراد بالحياة بقاء النسل مجازاً والمعنى نموت نحن و نحيا ببقاء نسلنا . إلى غير ذلك ممّا قيل .

و قوله : « و ما لهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنّون» أي إنّ قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنّما هو ظنّ يظنّونه و ذلك أنّهم لا دليل لهم يدلّ على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلّة على ثبوته .

قوله تعالى : « و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات ما كان حجّتهم إلّا أن قالوا ائتوا

بآبائنا إن كنتم صادقين » تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولاً بغير علم .

والمراد بالآيات البيّنات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد و كونها بيّنات وضوح دلالتها على ثبوته بلاشكّ و تسمية قولهم : « ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » مع كونه اقتراحاً جزافيّاً بعد قيام الحجّة إنّما هومن باب التهكّم فإنّه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنّه قيل : ما كانت حجّتهم إلّا اللاحجّة .

والمعنى و إذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنّها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلّا بجزاف من القول و هو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين .

قوله تعالى : « قل الله يحييكم ثمّ يميتكم ثمّ يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه و لكنّ أكثر الناس لايعلمون - إلى قوله - والأرض » ما ذكر من اقتراحهم الحجّة على مطلوب قامت عليه الحجّة و إن كان اقتراحاً جزافيّاً لا يستدعي شيأ من الجواب لكنّه سبحانه أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يجيبهم بإثبات إمكانه الّذي كانوا يستبعدونه .

ومحصّله أنّ الّذي يحييكم لأوّل مرّة ثمّ يميتكم ثمّ يجمعكم إلى يوم القيامة الّذي لا ريب فيه هو الله سبحانه و لله ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرّف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه ويتصرّف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثمّ الجزاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » قال الراغب: الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال : خسر فلان ، وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارته قال تعالى : « تلك إذاً كرّة خاسرة » و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجيّة كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر ، وفي المقتنيات النفسيّة كالصحّة والسلامة والعقل والإيمان والثواب و هو الّذي جعله الله تعالى الخسران المبين .

قال: وكلّ خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلّق بالمقتنيات الماليّة والتجارات البشريّة .

و قال : والإبطال يقال في إفساد الشيء و إزالته سواء كان ذلك الشيء حقّاً أو باطلا قال تعالى : « ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل » و قد يقال فيمن يقول شيأ لا حقيقة له نحو « و لئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون » ، و قوله تعالى: « خسر هنالك المبطلون » أي الّذين يبطلون الحقّ . انتهى

والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعليّة ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء و ظهوره ، و بذلك صحّ جعل الساعة مظروفاً لليوم و هما واحد ، والأشبه أن يكون قوله : « يومئذ » تأكيداً لقوله : « يوم تقوم الساعة » .

والمعنى و يوم تقوم الساعة و هي يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الّذين أبطلوا الحقّ و عدلوا عنه .

قوله تعالى : « وترى كلّ اُمّة جاثية كلّ اُمّة تدعى إلى كتابها » إلخ الجثوّ البروك على الركبتين كما أنّ الجذوّ البروك على أطراف الأصابع .

والخطاب عامّ لكلّ من يصحّ منه الرؤية و إن كان متوجّهاً إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمراد بالدعوة إلى الكتاب الدعوة إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادة قوله بعده : « اليوم تجزون ما كنتم تعملون» .

والمعنى وترى أنت و غيرك من الرائين كلّ اُمّة من الاُمم جالسة على الجثوّ جلسة الخاضع الخائف كلّ اُمّة منهم تدعى إلى كتابها الخاصّ بها و هي صحيفة الأعمال و قيل لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون .

و يستفاد من ظاهر الآية أنّ لكلّ اُمّة كتاباً خاصّاً بهم كما أنّ لكلّ إنسان كتاباً خاصّاً به قال تعالى : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » أسرى : ١٣ .

قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون» قال في الصحاح : و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كلّه بمعنى ، و النُسخة اسم المنتسخ منه . انتهى و قال الراغب : النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقّبه كنسخ الشمس الظلّ و نسخ الظلّ الشمس والشيب الشباب ـ إلى أن قال ـ و نسخ الكتاب نقل صورته

المجرّدة إلى كتاب آخر و ذلك لا يقتضي إزالة الصورة الاُولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادّة اُخرى كاتّخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة ، والاستنساخ التقدّم بنسخ الشيء والترشّح للنسخ . انتهى

ومقتضى ما نقل أنّ المفعول الّذي يتعدّى إليه الفعل في قولنا : استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه ، و لازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله : « إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » كتاباً و أصلاً و إن شئت فقل : في أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو اُريد به ضبط الأعمال الخارجيّة القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل : إنّا كنّا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ ، ولا دليل على كون « يستنسخ » بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم .

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيّة بما أنّها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال .

و هذا هو المعنى الّذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه‌السلام ومن طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس ، و سيوافيك في البحث الروائيّ التالي .

و على هذا فقوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ » من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة ، و هو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون في معنى « و يقال لهم هذا كتابنا » إلخ .

والإشارة بهذا - على ما يعطيه السياق - إلى صحيفة الأعمال و هي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدّم وإضافة الكتاب إليه تعالى نظراً إلى أنّه صحيفة الأعمال من جهة أنّه مكتوب بأمره تعالى و نظراً إلى أنّه اللوح المحفوظ من جهة التشريف و قوله : « ينطق عليكم بالحقّ » أي يشهد على ما عملتم و يدلّ عليه دلالة واضحة ملابساً للحقّ .

وقوله : « إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحقّ أي إنّ كتابنا هذا دالّ على عملكم بالحقّ من غير أن يتخلّف عنه لأنّه اللّوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعيّة .

ولولا أنّ الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لايداخله شكّ ولايحتمل منهم التكذيب لكذّبوه قال تعالى : «يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خيرمحضراً وما عملت من سوءتودّ لو أنّ بينها و بينه أمداً بعيداً » آل عمران : ٣٠ .

و للقوم في الآية أقوال اُخر :

منها ما قيل : إنّ الآية من كلام الملائكة لامن كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحقّ إنّا كنّا نكتب ما كنتم تعملون .

و فيه أنّ كونه من كلام الملائكة بعيد من السياق على أنّ كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة .

و منها أنّ الآية من كلام الله ، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال ، و قيل : إلى اللّوح المحفوظ ، والاستنساخ بمعنى اللاستكتاب مطلقاً .

قوله تعالى : « أمّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين » تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب ، والسعداء المثابون هم الّذين آمنوا و عملوا الصالحات والأشقياء المعاقبون هم الّذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهيّة تسعد من استقرّ فيها و منها الجنّة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر ، والباقي واضح .

قوله تعالى : « و أمّا الّذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين » المراد بالّذين كفروا المتلبّسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهادة قوله : « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » إلخ .

و الفاء في « أفلم تكن » للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرّع عليه هو جواب لمّا والتقدير فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالآيات الحجج الإلهيّة الملقاة

إليهم عن وحي و دعوة ، والمجرم هو المتلبّس بالإجرام و هو الذنب .

والمعنى وأمّا الّذين كفروا جاحدين للحقّ مع ظهوره فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ألم تكن حججي تقرء و تبيّن لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوماًمذنبين.

قوله تعالى : « و إذا قيل إنّ وعد الله حقّ والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة » إلخ المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعثوالجزاء فيكون قوله : « والساعة لا ريب فيها » من عطف التفسير ، و يمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدرىّ .

و قولهم : « ما ندري ما الساعة» معناه أنّه غير مفهوم لهم والحال أنّهم أهل فهم و دراية فهوكناية عنكونه أمراً غير معقول و لو كان معقولاً لدروه .

و قوله : « إن نظنّ إلّا ظنّاً وما نحن بمستيقنين » أي ليست ممّا نقطع به ونجزم بل نظنّ ظنّاً لا يسعنا أن نعتمد عليه ففي قولهم : ما ندري ما الساعة إلخ غبّ ماتليت عليهم من الآيات البيّنة أفحش المكابرة مع الحقّ .

قوله تعالى : « و بدا لهم سيّآت ما عملوا و حاق بهم ما كانوا به يستهزءون » إضافة السيّآت إلى ما عملوا بيانيّة أو بمعنى من ، و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أي ظهر لهم أعمالهم السيّئة أو السيّآت من أعمالهم فالآية في معنى قوله : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

فالآية من الآيات الدالّة على تمثّل الأعمال ، و قيل : إنّ في الكلام حذفا و التقدير و بدالهم جزاء سيّآت ما عملوا .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا بهيستهزءون » أي و حلّ بهم العذاب الّذيكانوا يسخرون منه في الدنيا إذا اُنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل .

قوله تعالى : « و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا و مأواكم النار و مالكم من ناصرين » النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكّره و تركهم التأهّب للقائه ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ذلكم بأنّكم اتّخذتم آيات الله هزوا و غرّتكم الحياة الدنيا» الخ الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيّآت و حلول العذاب و الهزء السخريّة الّتي يستهزء بها و الباء للسببيّة .

والمعنى ذلكم العذاب الّذي يحلّ بكم بسبب أنّكم اتّخذتم آيات الله سخريّة تستهزؤن بها و بسبب أنّكم غرّتكم الحياة الدنيا فأخلدتم إليها و تعلّقتم بها .

و قوله : « فاليوم لا يخرجون منها و لاهم يستعتبون » صرف الخطاب عنهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، و يتضمّن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود في النار و عدم قبول العذر منهم .

و الاستعتاب طلب العتبى و الاعتذار ، ونفي الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر .

قوله تعالى : « فللّه الحمد ربّ السماوات وربّ الأرض ربّ العالمين» تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدّم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما و المدبّر لأمر الجميع و من بديع تدبيره خلق الجميع بالحقّ المستتبع ليوم الرجوع إليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعي لجعل الشرائع الّتي تسوق إلى السعادة والثواب و يتعقّبه الجمع ليوم الجمع ثمّ الجزاء و استقرار الجميع على الرحمة و العدل بإعطاء كلّ شيء ما يستحقّه فلم يدبّر إلّا تدبيراً جميلا و لم يفعل إلّا فعلا محموداً فله الحمد كلّه .

و قد كرّر « الربّ » فقال : ربّ السماوات وربّ الأرض ثمّ أبدل منهما قوله : « ربّ العالمين » ليأتي بالتصريح بشمول الربوبيّة للجميع فلوجيء بربّ العالمين و اكتفي به أمكن أن يتوهّم أنّه ربّ المجموع لكن للسماوات خاصّة ربّ آخر و للأرض وحدها ربّ آخر كما ربّما قال بمثله الوثنيّة ، و كذا لو اكتفي بالسماوات و الأرض لم يكن صريحاً في ربوبيّته لغيرهما ، و كذا لو اكتفي بإحداهما .

قوله تعالى : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض و هو العزيز الحكيم » الكبرياء على ما عن الراغب : الترفّع عن الانقياد ، وعن ابن الأثير : العظمة و الملك و في المجمع السلطان القاهر و العظمة القاهرة و العظمة والرفعة .

و هي على أيّ حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل في العظمة غير الحسيّة و مرجعه إلى كمال وجوده ولاتناهي كماله .

و قوله : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض » أي له الكبرياء في كلّ مكان فلايتعالى عليه شيء فيهما و لايستصغره شيء وتقديم الخبر في «له الكبرياء» يفيد الحصر كما في قوله : « فلله الحمد » .

و قوله : « و هو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير في الدنيا و الآخرة و الباني خلقه و تدبيره على الحكمة و الإتقان .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » قال : نزلت في قريش كلّما هووا شيأ عبدوه .

و في الدرّ المنثور أخرج النسائيّ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رآى أحسن منه أخذه و ألقى الآخر فأنزل الله « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » .

و في المجمع في قوله تعالى : « و ما يهلكنا إلّا الدهر » و قد روي في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : لاتسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر .

أقول : قال الطبرسيّ بعد إيراد الحديث : و تأويله أنّ أهل الجاهليّة كانوا ينسبون الحوادث المجحفة و البلايا النازلة إلى الدهر فيقولون : فعل الدهر كذا ، و كانوا يسبّون الدّهر فقال صلى الله عليه وآله : إنّ فاعل هذه الاُمور هو الله فلاتسبّوا فاعلها انتهى و يؤيّد هذا الوجه الرواية التالية .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير و البيهقيّ في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تبارك و تعالى : لايقل ابن آدم يسبّ الدّهر يا خيبة الدهر فإنّي أنا الدهر اُرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبدالرحيم القصير عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : سألته عن « ن والقلم » قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر و كان أشد بياضاً من الثلج و أحلى من الشهد .

ثم قال للقلم: اُكتب . قال : يا رب ماأكتب ؟ قال : اكتب ما كان وماهو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رق أشد بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت . ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلن ينطق أبداً .

فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً ؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام ؟ و أحدكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل ؟ و هو قوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

أقول : قوله عليه‌السلام : فكتب القلم في رق إلخ تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق والرق ما يكتب فيه شبه الكاغد ـ على ما ذكره الراغب ـ و قد تقدم الحديث عنه عليه‌السلام أن القلم ملك واللوح ملك ، و قوله : فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم ، و قوله : ثم ختم على فم القلم إلخ كناية عن كون ما كتب في الرق قضاء محتوماً لا يتغير ولا يتبدل ، و قوله : أولستم عرباً إلخ إشارة إلى ما تقدم توضيحه في تفسير الآية .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون و هو الدواة و خلق القلم فقال : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر أورزق مرزوق حلال أوحرام ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا و مقامه فيهاكم ، وخروجه منها كيف ؟

ثم جعل على العباد حفظة و على الكتاب خزاناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فإ ذافني ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فيقول لهم الخزنة : مانجد لصاحبكم عندنا شيأ فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا .

قال ابن عبّاس : ألستم قوماً عرباً ؟ تسمعون الحفظة يقولون : إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » و هل يكون الاستنساخ إلّا من أصل ؟

أقول : والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من اُمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم فإنّما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من اُمّ الكتاب .

و عن كتاب سعد السعود لابن طاوس قال بعد ذكر الملكين الموكّلين بالعبد : وفي رواية أنّهما إذا أرادا النزول صباحاً و مساءً ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللّوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً و مساءً بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخ الّتي انتسخ لهما حتّى يظهر أنّه كان كما نسخ منه .

و في المجمع في قوله تعالى: « وله الكبرياء في السماوات والأرض » وفي الحديث يقول الله : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في نار جهنّم .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن مسلم و أبي داود و ابن ماجه و غيرهم عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

﴿ سورة الأحقاف مكيّة وهي خمس و ثلاثون آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والارض الا بالحق وأجل مسمى والذين
كفروا عما انذروا معرضون (٣) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله
اروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات ائتوني
بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين (٤) ومن أضل
ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيمة وهم عن
دعائهم غافلون (٥) واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم
كافرين (٦) و اذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق
لما جاءهم هذا سحر مبين (٧) أم يقولون افتريه قل ان افتريته فلا
تملكون لي من الله شيأ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني
و بينكم و هو الغفور الرحيم (٨) قل ما كنت بدعاً من الرسل
و ما أدري ما يفعل بي ولابكم ان اتبع الا ما يوحى الي و ما أنا
الا نذير مبين (٩) أرأيتم ان كان من عند الله و كفرتم به و شهد
شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لايهدي
القوم الظالمين (١٠) و قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً

مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)
وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا
عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤).

بيان

غرض السورة إنذار المشركين الرادّين للدعوة إلى الإيمان بالله و رسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد «ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ» ثمّ يعود إليه عودة بعد عودة كقوله: «و إذا حشر الناس» و قوله: «والّذي قال لوالديه اُفّ لكما أتعدانني أن اُخرج» و قوله: «و يوم يعرض الّذين كفروا على النار أذهبتم طيّباتكم» وقوله: «و يوم يعرض الّذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ» و قوله في مختتم السورة: «كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار بلاغ» الآية.

و فيها احتجاج على الوحدانيّة والنبوّة، و إشارة إلى هلاك قوم هود و هلاك القرى الّتي حول مكّة و إنذارهم بذلك، و إنباء عن حضور نفر من الجنّ عند النبيّ صلّى الله عليه و آله و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم إلى قومهم منذرين لهم والسورة مكّيّة كلّها إلّا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله: قوله تعالى: «أم يقولون افتراه» إلخ و قوله: «قل أرأيتم إن كان من عند الله» الآية.

قوله تعالى: «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم» تقدّم تفسيره.

قوله تعالى : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ وأجل مسمّى » إلخ المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علويّه وسفليّه ، والباء في « بالحقّ » للملابسة ، والمراد بالأجل المسمّى ما ينتهي إليه أمد وجود الشيء ، والمراد به في الآية الأجل المسمّى لوجود مجموع العالم و هو يوم القيامة الّذي تطوى[١] فيه السماء كطيّ السجلّ للكتب و تبدّل الأرض[٢] غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهّار .

والمعنى ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويّة والسفليّة إلّا ملابساً للحقّ له غاية ثابتة و ملابساً لأجل معيّن لا يتعدّاه وجوده و إذا كان له أجل معيّن يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو المعاد الموعود ، و قد تكرّر الكلام فيما تقدّم في معنى كون الخلق بالحقّ .

وقوله : « والّذين كفروا عمّا اُنذروا معرضون » المراد بالّذين كفروا هم المشركون بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أنّ المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد ، و« ما » في « عمّا » مصدريّة أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى والمشركون الّذين كفروا بالمعاد عمّا اُنذروا به ـ و هو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله ـ معرضون منصرفون .

قوله تعالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله » إلى آخر الآية « أرأيتم » بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام الّتي كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر اُولي العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال اُولي العقل وحجّة الآية و ما بعدها مع ذلك تجري في كلّ إله معبود من دون الله .

و قوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض » أروني بمعنى أخبروني و « ما » اسم اسم استفهام و « ذا » بعده زائدة والمجموع مفعول « خلقوا » و من الأرض متعلّق به .

---

(١) اشارة الى الاية ١٠٤ من سورة الانبياء .

(٢) اشارة الى الاية ٤٨ من سورة ابراهيم .

و قوله : « أم لهم شرك في السماوات » أي شركة في خلق السماوات فإنّ خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤل عنه .

توضيح ذلك أنّهم وإن لم ينسبوا إليها إلّا تدبير الكون و خصّوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى : « و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله » الزمر: ٣٨ وقال : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله » الزخرف : ٨٧ لكن لمّا كان الخلق لا ينفكّ عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم عمّا لأربابهم الّذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق .

و قوله : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » الإشارة بهذا إلى القرآن ، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماويّ كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض .

والأثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قال : و أثرت العلم رويته آثره أثراً و أثارة و أثرة وأصله تتبّعت أثره انتهى . وعليه فالأثارة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أنّ لآلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض ، و فسّره غالب المفسّرين بمعنى البقيّة و هو قريب ممّا تقدّم .

والمعنى ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماويّ من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقيّة من علم اُورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنّهم شركاء لله سبحانه .

قوله تعالى : « ومن أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » إلخ الاستفهام إنكاريّ ، و تحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أنّ يوم القيامة أجل مسمّى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة .

و قوله : « و هم عن دعائهم غافلون » صفة اُخرى من صفات آلهتهم مضافة إلى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلا لعدم الاستجابة فإنّ عدم استجابتهم معلول كونهم لا يملكون لعبّادهم شيأ قال تعالى : « قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا

نفعاً » المائدة : ٧٦ .

بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة و تمهيداً لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم و كفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم و سيطّلعون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم .

و في الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتّى الجمادات فإنّ الأصنام من الجماد وقد نسب إليها الغفلة والغفلة من شؤن ذوي الشعور لا تطلق إلّا على ما من شأن موصوفه أن يشعر .

قوله تعالى: « حتّى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الحشر إخراج الشيء عن مقرّه بإزعاج ، والمراد بعث الناس عن قبورهم و سوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبّادهم بالتبرّي منهم كما قال تعالى : « و يوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ وقال حكاية عنهم : « تبرّأنا إليك ماكانوا إيّانا يعبدون » القصص : ٦٣ ، و قال : فكفى بالله شهيداً بيننا و بينكم أن كنّا عن عبادتكم لغافلين » يونس : ٢٩ .

و في سياق الآيتين تلويح إلى أنّ هذه الجمادات الّتي لا تظهر لنا في هذه النشأة أنّ لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أنّ لها حياة و تظهر آثارها و قد تقدّم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » الم السجدة : ٢١ .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الّذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم هذا سحر مبين » الآية والّتي بعدها مسوقتان للتوبيخ ، والمراد بالآيات البيّنات آيات القرآن تتلى عليهم، ثمّ بدّلها من الحقّ الّذي جاءهم حيث قال : « للحقّ لمّا جاءهم » ـ و كان مقتضى الظاهر أن يقال : « لها » ـ للدلالة على أنّها حقّ جاءهم لا مسوّغ لرميها بأنّها سحر مبين و هم يعلمون أنّها حقّ مبين فهم متحكّمون مكابرون للحقّ الصريح .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيأ »

إلخ « أم » منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنّه كلامه .

وقوله : « قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيأ » أي إن افتريت القرآن لأجلكم آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء و لستم تقدرون على دفع عذابه عنّي فكيف أفتريه عليه لأجلكم ، والمحصّل أنّي على يقين من أمر الله و أعلم أنّه يأخذ المفتري عليه أو يعاجل في عقوبته و أنّكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفتري عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم ؟ أي لست بمفتر عليه .

و يتبيّن بذلك أنّ جزاء الشرط في قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي » إلخ محذوف و قد اُقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع والتقدير إن افتريته آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم يمنع عنه ، وليس من قبيل وضع المسبّب موضع السبب كما قيل .

و قوله : « هو أعلم بما تفيضون فيه » الإفاضة في الحديث الخوض فيه و « ما » موصولة يرجع إليه ضمير « فيه » أو مصدريّة و مرجع الضمير هو القرآن ، والمعنى الله سبحانه أعلم بالّذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء على الله أوالمعنى هو أعلم بخوضكم في القرآن .

و قوله : « كفى به شهيداً بيني و بينكم » احتجاج ثان على نفي الافتراء و أوّل الاحتجاجين قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيأ » و قد تقدّم بيانه آنفاً ، و معنى الجملة أنّ شهادة الله سبحانه في كلامه بأنّه كلامه و ليس افتراء منّي يكفي في نفي كوني مفترياً به عليه ، و قد صدّق سبحانه هذه الدعوى بقوله : « لكن الله يشهد بما أنزله عليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ وما في معناه من الآيات ، و أمّا أنّه كلامه فيكفي في ثبوته آيات التحدّي .

و قوله : « و هو الغفور الرحيم » تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمّنه تحكّمهم الباطل من نفي الرسالة كأنّه قيل : إنّ قولكم : «افتراه» يتضمّن دعويين : دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان الرسالة - والوثنيّون ينفونها مطلقاً - أمّا الدعوى الاُولى فيدفعه أوّلاً أنّه إن افتريته فلا تملكون

إلخ و ثانياً أنّ الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي .

و أمّا الدعوى الثانية فيدفعها أنّ الله سبحانه غفور رحيم ، و من الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلّا التائبين الراجعين إليه الصالحين لذلك و ذلك بأن يهديهم إلى صراط يقرّبهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحطّ السيّآت والاستقرار في دار السعادة الخالدة ، وكونه واجباً في حكمته لأنّ فيهم صلاحية هذا الكمال و هو الجواد الكريم قال تعالى : « وما كان عطاء ربّك محظوراً » أسرى : ٢٠ ، و قال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ والسبيل إلى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولا يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته و رحمته .

قوله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » إلخ البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله و أفعاله و لذا فسّره بعضهم بأنّ المعنى ما كنت أوّل رسول اُرسل إليكم لا رسول قبلي ، و قيل : المعنى ما كنت مبدعاً في أقوالي و أفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرسل .

والمعنى الأوّل لا يلائم السياق و لا قوله المتقدّم : « و هو الغفور الرحيم » بالمعنى الّذي تقدّم توجيهه فثاني المعنيين هو الأنسب ، و عليه فالمعنى لست اُخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أوفعل بل أنا بشر مثلهم فيّ من آثار البشريّة ما فيهم و سبيلهم في الحياة سبيلي .

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لو لا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنّة يأكل منها » الفرقان : ٨ .

و قوله : « و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » نفي لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله : « و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسّني السوء » الأعراف : ١٨٨ ، والفرق بين الآيتين أنّ قوله : « و لو كنت أعلم الغيب » إلخ نفي للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له بمسّ السوء و عدم الاستكثار من الخير ، و قوله : « و ما أدري

ما يفعل بي ولا بكم » نفي للعلم بغيب خاصّ وهو ما يفعل به و بهم من الحوادث الّتي يواجهونها جميعاً ، و ذلك أنّهم كانوا يزعمون أنّ المتلبّس بالنبوّة لو كان هناك نبيّ يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبيّة كما يظهر من اقتراحاتهم المحكيّة في القرآن فأمر صلى الله عليه وآله أن يعترف - مصرّحاً به - أنّه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن نفسه العلم بالغيب ، و أنّ ما يجري عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه .

فقوله : « و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء ممّا يصيبه و يصيبهم ممّا هو تحت أستار الغيب .

و نفي الآية العلم بالغيب عنه صلى الله عليه وآله لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » آل عمران : ٤٤ يوسف : ١٠٢ و قوله : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » هود : ٤٩ ، وقوله : « عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول » الجنّ : ٢٧ ، و من هذا الباب قول المسيح عليه السلام : « و اُنبّئكم بما تأكلون و ما تدّخرون في بيوتكم » آل عمران : ٤٩ ، و قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يوسف : ٣٧ .

وجه عدم المنافاة أنّ الآيات النافية للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء عليهم السلام إنّما تنفيه عن طبيعتهم البشريّة بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشريّة أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصّتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كلّ نفع و دفع كلّ شرّ كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب و هذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهيّ من طريق الوحي كما أنّ إتيانهم بالمعجزات فيما اُتوا بها ليس عن قدرة نفسيّة فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله تعالى و أمر قال تعالى: « قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولاً » الإسراء : ٩٣ جواباً عمّا اقترحوا عليه من الآيات ، و قال : « قل إنّما الآيات عند الله و إنّما أنا نذير مبين » العنكبوت : ٥٠

و قال : « و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق » المؤمن : ٧٨ .

و يشهد بذلك قوله بعده متّصلا به : « إن أتّبع إلّا مايوحى إليّ » فإنّ اتّصاله بما قبله يعطي أنّه في موضع الإضراب والمعنى إنّي ما أدري شيأ من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي و إنّما أتّبع ما يوحى إليّ من ذلك .

و قوله : « و ما أنا إلّا نذير مبين » تأكيد لجميع ما تقدّم في الآية من قوله: «ما كنت بدعا » إلخ و « و ما أدري » إلخ و قوله : « إن أتّبع » إلخ

﴿ بحث فلسفي ودفع شبهة ﴾

تظافرت الأخبار من طرق أئمّة أهل البيت أنّ الله سبحانه علّم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة عليهم السلام علم كلّ شيء ، و فسّر ذلك في بعضها أنّ علم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من طريق الوحي و أنّ علم الأئمّة عليهم السلام ينتهي إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله .

و اُورد عليه أنّ المأثور من سيرتهم أنّهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشة سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين إليها على مايرشد إليه الأسباب الظاهرية و يهدي إليه السبل العاديّة فربّما أصابوا مقاصدهم وربّما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا ، ولو علموا الغيب لم يخيبوا في سعيهم أبداً فالعاقل لا يترك سبيلا يعلم يقيناً أنّه مصيب فيه و لا يسلك سبيلا يعلم يقيناً أنّه مخطيء فيه .

و قد اُصيبوا بمصائب ليس من الجائز أن يلقي الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما اُصيب النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم اُحد بما اُصيب ، و اُصيب عليّ عليه السلام في مسجد الكوفة حين فتك به المراديّ لعنه الله و اُصيب الحسين عليه السلام فقتل في كربلاء و اُصيب سائر الأئمّة بالسمّ فلو كانوا يعلمون ما سيجري عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو محترم ، والإشكال كما ترى مأخوذ من الآيتين : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » «و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

و يردّه أنّه مغالطة بالخلط بين العلوم العاديّة وغير العاديّة فالعلم غير العاديّ بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجيّة.

توضيح ذلك أنّ أفعالنا الاختياريّة كما تتعلّق بإرادتنا كذلك تتعلّق بعلل وشرائط اُخرى ماديّة زمانيّة و مكانيّة إذا اجتمعت عليها تلك العلل والشرائط و تمّت بالإرادة تحقّقت العلّة التامّة و كان تحقّق الفعل عند ذلك واجباً ضروريّاً إذ من المستحيل تخلّف المعلول عن علّته التامّة.

فنسبة الفعل و هو معلول إلى علّته التامّة نسبة الوجوب والضرورة كنسبة جميع الحوادث إلى عللها التامّة، ونسبته إلى إرادتنا وهي جزء علّته نسبة الجواز والإمكان.

فتبيّن أنّ جميع الحوادث الخارجيّة و منها أفعالنا الاختياريّة واجبة الحصول في الخارج واقعة فيها على صفة الضرورة ولا ينافي ذلك كون أفعالنا الاختياريّة ممكنة بالنسبة إلينا مع وجوبها على ما تقدّم.

فإذا كان كلّ حادث ومنها أفعالنا الاختياريّة بصفة الاختيار معلولاً له علّة تامّة يستحيل معها تخلّفه عنها كانت الحوادث سلسلة منتظمة يستوعبها الوجوب لا يتعدّى حلقة من حلقاتها موضعها ولا تتبدّل من غيرها، و كان الجميع واجباً من أوّل يوم سواء في ذلك ما وقع في الماضي ومالم يقع بعد، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع لم يؤثّر ذلك في إخراج حادث منها و إن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حدّ الإمكان.

فإن قلت: بل يقع هذا العلم اليقينيّ في مجرى أسباب الأفعال الاختياريّة كالعلم الحاصل من الطرق العاديّة فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العاديّة فيصير سبباً للفعل أوالترك حيث يبطل معه العلم العاديّ.

قلت: كلّا فإنّ المفروض تحقّق العلّة التامّة للعلم العاديّ مع سائر أسباب الفعل الاختياريّ فمثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفّار يستيقنون بأنّ مصيرهم مع الجحود إلى النار ومع ذلك يصرّون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العاديّ بوجوب الفعل قال تعالى في قصّة آل فرعون: « و جحدوا بها

واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

و بهذا يندفع ما يمكن أن يقال : لا يتصوّر علم يقيني بالخلاف مع عدم تأثيره في الإرادة فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقّق علم على هذا الوصف .

وجه الاندفاع أنّ مجرّد تحقّق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقّق الإرادة مستندة إليه و إنّما هو العلم الّذي يتعلّق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مرّ في جحود أهل الجحود و إنكارهم الحقّ مع يقينهم به و مثله الفعل بالعناية فإنّ سقوط الواقف على جذع عال ، منه على الأرض بمجرّد تصوّر السقوط لا يمنع عنه علمه بأنّ في السقوط هلاكه القطعيّ .

و قد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأنّ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام تكاليف خاصّة بكلّ واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك و إن كان ذلك منّا إلقاء النفس في التهلكة و هو حرام ، و إليه إشارة في بعض الأخبار .

و أجاب بعضهم عنه بأنّ الّذي يتنجّز التكاليف من العلم هو العلم من الطرق العاديّة و أمّا غيره فليس بمنجّز ، ويمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدّم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن و استكبرتم » إلخ ضمائر « كان » و « به » و « مثله » على ما يعطيه السياق للقرآن ، و قوله : « و شهد شاهد من بني إسرائيل » إلخ معطوف على الشرط و يشاركه في الجزاء ، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهيّة و هو كتاب التوراة الأصليّة الّتي نزلت على موسى عليه السلام ، و قوله : «فآمن و استكبرتم » أي فآمن الشاهد الإسرائيليّ المذكور بعد شهادته .

و قوله : « إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل للجزاء المحذوف دالّ عليه ، والظاهر أنّه ألستم ضالّين لا ما قيل : إنّه ألستم ظلمتم لأنّ التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنّما يلائم ضلالهم لا ظلمهم و إن كانوا متّصفين بالوصفين جميعاً .

والمعنى قل للمشركين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنّكم

كفرتم به و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم ألستم في ضلال ؟ فإنّ الله لا يهدي القوم الظالمين .

والّذي شهد على مثاله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ، والآية على هذا مدنيّة لا مكّيّة لأنّه ممّن آمن بالمدينة ، و قول بعضهم : من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله « و شهد شاهد من بني إسرائيل فآمن » لتحقّق الوقوع والقصّة واقعة في المستقبل سخيف لأنّه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلّموا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صدقه فيما يخبرهم به من الاُمور المستقبلة .

و في معنى الآية أقوال اُخر منها أنّ المراد ممّن شهد على مثله فآمن هو موسى عليه السلام شهد على التوراة فآمن به وإنّما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآية مكّيّة ، وأنّه إنّما أسلم عبدالله بن سلام بالمدينة .

و فيه أوّلا عدم الدليل على كون الآية مكّيّة و لتكن القصّة دليلا على كونها مدنيّة ، وثانياً بُعد أن يجعل موسى الكليم عليه السلام قريناً لهؤلاء المشركين الأجلاف يقاسون به فيقال ما محصّله إنّ موسى عليه السلام آمن بالكتاب النازل عليه و أنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة .

و ممّا قيل أنّ المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » الشوري : ١١ ، و هو في البعد كسابقه .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا للّذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه » إلى آخر الآية قيل : اللاّم في قوله : « للّذين آمنوا » للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤل إلى معنى في ، و ضمير « كان » و « إليه » للقرآن من جهة الإيمان به .

والمعنى و قال الّذين كفروا في الّذين آمنوا ـ أي لأجل إيمانهم ـ : لو كان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا ـ أي المؤمنون ـ إليه .

و قال بعضهم : إنّ المراد بالّذين آمنوا بعض المؤمنين و بالضمير العائد إليه في

في قوله : سبقونا » البعض الآخر ، واللاّم متعلّق بقال والمعنى و قال الّذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيراً ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون إليه ، و فيه أنّه بعيد من سياق الآية .

وقال آخرون: إنّ المراد بالّذين آمنوا المؤمنون جميعاً لكن في قوله : ماسبقونا التفاتا والأصل ما سبقتمونا وهو في البعد كسابقه و ليس خطاب الحاضرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء .

و قوله : « و إذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ضمير « به » للقرآن و كذا الإشارة بهذا إليه والإفك الافتراء أي و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أي الّذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم ، و قولهم : هذا إفك قديم كقولهم : أساطير الأوّلين .

قوله تعالى : « و من قبله كتاب موسى إماماً و رحمة و هذا كتاب مصدّق لساناً عربياً » إلخ الظاهر أنّ قوله : « ومن قبله » إلخ جملة حاليّة والمعنى فسيقولون هذا إفك قديم والحال أنّ كتاب موسى حال كونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدّق له حال كونه لساناً عربيّاً ليكون منذراً للّذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً ؟

و كون التوراة إماماً و رحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتّبعونها في أعمالهم و رحمة للّذين آمنوا بها و اتّبعوها في إصلاح نفوسهم .

قوله تعالى : « إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا » إلى آخر الآية المراد بقولهم ربّنا الله إقرارهم و شهادتهم بانحصار الربوبيّة في الله سبحانه و توحّده فيها ، و باستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ و انحراف و التزامهم بلوازمه العمليّة .

و قوله : « فلا خوف عليهم و لاهم يحزنون » أي ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل ، و لا مكروه محقّق يحزنون به من عقاب أو هول ، فالخوف

إنّما يكون من مكروه ممكن الوقوع ، و الحزن من مكروه محقّق الوقوع ، والفاء في قوله : « فلاخوف » الخ لتوهّم معنى الشرط فإنّ الكلام في معنى من قال ربّنا الله ثمّ استقام فلاخوف الخ .

قوله تعالى : « اُولئك أصحاب الجنّة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » المراد بصحابة الجنّة ملازمتها ، و قوله : « خالدين فيها» حال مؤكّدة لمعنى الصحابة .

و المعنى اُولئك الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا ملازمون للجنّة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات و القربات .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » قال : عنى بالكتاب التوراة و الإنجيل « و أثارة من علم » فإنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبرانيّ و ابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمان عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله « أو أثارة من علم» قال : الخطّ .

أقول : لعلّ المراد بالخطّ كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله : « أو أثارة من علم » أنّه حسن الخطّ و في بعض آخر أنّه جودة الخطّ وهو أجنبيّ من سياق الاحتجاج الّذي في الآية .

و في العيون في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه عليه السلام حدّثني أبي عن جدّي عن آبائه عن الحسين بن عليّ عليهما السلام قال : اجتمع المهاجرون و الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إنّ لك يا رسول الله مؤنة في نفقتك و فيمن يأتيك من الوفود ، و هذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها بارّاً مأجوراً أعط ما شئت و احكم ما شئت من غير حرج .

قال : فأنزل الله تعالى إليه الروح الأمين فقال : يا محمّد « قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى » يعني أن تودّ واقرابتي من بعدي فخرجوا فقال المنافقون : ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلّا ليحثّنا على قرابته من بعده ، و إن هو إلّا شيء افتراه في مجلسه و كان ذلك من قولهم عظيما .

فأنزل الله عزّ و جلّ هذه الآية « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيأ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني و بينكم وهو الغفورالرحيم» فبعث إليهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : هل من حدث ؟ فقالوا : إي والله يا رسول الله لقد قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه فتلا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وآله الآية فبكوا و اشتدّ بكاؤهم فأنزل الله تعالى « و هو الّذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيّآت و يعلم ما تفعلون » .

و في الدرّ المنثور أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عبّاس في قوله : « و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم » قال : نسختها هذه [1] الآية الّتي في الفتح فخرج إلى الناس فبشّرهم بالّذي غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر .

فقال رجل من المؤمنين : هنيئالك يا نبيّ الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فما ذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب « و بشّر المؤمنين و المؤمنات بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً » و قال :« ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتهاالأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيّآتهم و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » فبيّن الله ما به يفعل و بهم .

أقول : الرواية لا يخلو من شيء :

أمّا أوّلا فلما تقدّم بيانه في تفسير الآية أعني قوله : « و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم » أنّها أجنبيّة عن العلم بالغيب الّذي هو من طريق الوحي بدلالة صريحةمن القرآن فلاينفي بها العلم بالمغفرة من طريق الوحي حتّى تنسخها آية سورة الفتح .

---

(١) يريد قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تاخر » الفتح : ٢ .

و أمّا ثانيا فلأنّ ظاهر الروايةأنّ الذنب الّذي تصرّح بمغفرته آية سورةالفتح هو الذنب بمعنى مخالفة الأمر و النهي المولويين و سيأتي في تفسير سورة الفتح إن-شاء الله تعالى - أنّ الذنب في الآية لغير هذا المعنى .

و أمّا ثالثا فلأنّ الآيات الدالّة علىدخول المؤمنين الجنّة كثيرة جدّا فيمكّيّة السور و مدنيّتها و لا تدلّ آيتا سورة الأحزاب على أزيد ممّا يدلّ عليه سائرالآيات فلاوجه لتخصيصهما بالدلالة على دخول المؤمنين الجنّة و شمول المغفرة لهم .

على أنّ سورة الأحزاب نازلة قبل سورة الفتح بزمان .

و فيه أخرج أبويعلى و ابن جرير و الطبرانيّ و الحاكم و صحّحه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعيّ قال : انطلق النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم و أنا معه حتّى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم .

فقال لهم رسول‌الله صلى الله عليه و آله و سلم أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله‌إلّاالله و أنّ محمّدا رسول الله يحبط الله عن كلّ يهوديّ تحت أديم السماء الغضب الّذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثمّ ردّ عليهم فلم يجبه أحد فثلّث فلم يجبه أحد فقال : أبيتم فوالله لأنا الحاشر و أنا العاقب و أنا المقفي آمنتم أو كذّبتم .

ثمّ انصرف و أنا معه حتّى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال : كماأنت يا محمّد فأقبل فقال ذلك الرجل : أيّ رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : و الله لا نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله و لا أفقه منك و لامن أبيك و لا من جدّكفقال : إنّي أشهد بالله أنّه النبيّ الّذي تجدونه في التوراة و الإنجيل ، قالوا : كذبت ثمّ ردّوا عليه و قالوا شرّا فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم .

فخرجنا و نحن ثلاث : رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أنا و ابن‌سلام فأنزل الله : « قل‌أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به وشهد شاهد من بني‌إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين» .

أقول : و في نزول الآية في عبدالله بن سلام روايات اُخرى من طرق أهل السنّة

غير هذه الرواية ، و سياق الآية و خاصّة قوله : « من بني إسرائيل » لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل ، و قد عدّ الإنجيل في الرواية من كتبهم و ليس من كتبهم و اليهود لا يصدّقونه .

و في بعض الروايات أنّ الآية نزلت في ابن يامين من علمائهم حين شهد و أسلم فكذّبته اليهود و الإشكال السابق على حاله .

✫ ✫ ✫

و وصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها و وضعته
كرها و حمله و فصاله ثلثون شهرا حتى اذا بلغ أشده و بلغ أربعين
سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التى أنعمت علي و على
والدي و أن أعمل صالحا ترضيه و أصلح لي في ذريتي اني تبت
اليك و اني من المسلمين (١٥) أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما
عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذى
كانوا يوعدون (١٦) والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج
و قد خلت القرون من قبلي و هما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد
الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين (١٧) أولئك الذين حق
عليهم القول في امم قدخلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا
خاسرين (١٨) و لكل درجات مما عملوا و ليوفيهم أعمالهم و هم
لا يظلمون (١٩) و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم
طيباتكم في حياتكم الدنيا و استمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب
الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق و بما كنتم تفسقون (٢٠).

﴿بيان﴾

لمّا قسّم الناس في قوله : « لينذر الّذين ظلموا و بشرى للمحسنين » إلى ظالمين و محسنين واُشير فيه إلى أنّ للظالمين ما يخاف و يحذر و للمحسنين ما يسرّ الإنسان و يبشّر به عقّب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه ، و أنّ الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له و هم الّذين يتقبّل أحسن أعمالهم و يتجاوزعن سيّآتهم في أصحاب الجنّة ، و قوم خاسرين حقّ عليهم القول في اُمم قدخلت من قبلهم من الجنّ والإنس .

و مثّل الطائفة الاُولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له باراً بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه والعمل الصالح وإصلاح ذرّيّته ، والطائفة الثانية بمن كان عاقّاً لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر فيزجرهما و يعدّ ذلك من أساطير الأوّلين .

قوله تعالى : « و وصّينا الإنسان بوالديه إحساناً » إلى آخر الآية الوصيّة على ما ذكره الراغب هو التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ والتوصية تفعيل من الوصيّة قال تعالى : « ووصّى بها إبراهيم بنيه » البقرة : ١٣٢ فمفعوله الثاني الّذي يتعدّى إليه بالباء من قبيل الأفعال فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلّق بهما و هو الإحسان إليهما .

و على هذا فتقدير الكلام : ووصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحساناً .

و في إعراب « إحساناً » أقوال اُخر كقول بعضهم : إنّه مفعول مطلق على تضمين « وصّينا » معنى أحسنّا والتقدير وصّينا الإنسان محسنين إليهما إحساناً ، و قول بعضهم : إنّه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاءً ذا إحسان ، و قول بعضهم : هومفعول له والتقدير وصّيناه بهما لإحساننا إليهما إلى غيرذلك ممّا قيل .

و كيف كان فبرّ الوالدين والإحسان إليهما من الأحكام العامّة المشرّعة في جميع الشرائع كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم أن

لا تشركوا به شيأ وبالوالدين إحساناً» الأنعام : ١٥١ ولذلك قال : « ووصّينا الإنسان» فعمّمه لكلّ إنسان .

ثمّ عقّبه سبحانه بالإشارة إلى ماقاسته اُمّه في حمله ووضعه و فصاله إشعاراً بملاك الحكم و تهييجاً لعواطفه و إثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال : « حملته اُمّه كرهاً ووضعته كرهاً و حمله و فصاله ثلاثون شهراً » أي حملته اُمّه حملاً ذا كره أي مشقّة و ذلك لما في حمله من الثقل ، و وضعته وضعاً ذاكره و ذلك لما عنده من ألم الطلق .

و أمّا قوله : « و حمله و فصاله ثلاثون شهراً » فقد اُخذ فيه أقلّ مدّة الحمل وهو ستّة أشهر، والحولان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدّة الرضاع قال تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين » البقرة : ٢٣٣ ، و قال : « و فصاله في عامين » لقمان : ١٤ .

والفصال التفريق بين الصبيّ و بين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعناية أنّه في آخر الرضاع ولا يتحقّق إلّا بانقضاء عامين .

و قوله : « حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة » بلوغ الأشدّ بلوغ زمان من العمر تشتدّ فيه قوى الإنسان ، و قد مرّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشدّ في تفسير قوله : « و لمّا بلغ أشدّه آتيناه حكما و علما » يوسف : ٢٢ و بلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل .

و قوله : « قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ و على والديّ و أن أعمل صالحاً ترضاه » الإيزاع الإلهام ، و هذا الإلهام ، ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ بل هو إلهام عمليّ بمعنى البعث والدعوة الباطنيّة إلى فعل الخير و شكر النعمة و بالجملة العمل الصالح .

و قد أطلق النعمة الّتي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهريّة كالحياة والرزق والشعور والإرادة والباطنيّة كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكّل عليه والتفويض إليه ففي قوله : « ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك » إلخ سؤال أن يلهمه الثناء

عليه بإظهار نعمته قولا وفعلا : أمّا قولاً فظاهر ، وأمّا فعلا فباستعمال هذه النعم استعمالا يظهر به أنّها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبوديّة والمملوكيّة من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً .

و تفسير النعمة بقوله : « الّتي أنعمت عليّ و على والديّ » يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختصّ به من النعمة و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما .

و قوله : « و أن أعمل صالحاً ترضاه » عطف على قوله : « أن أشكر » إلخ سؤال متمّم لسؤال الشكر على النعم فإنّ الشكر يحلّي ظاهر الأعمال ، والصلاحية الّتي يرتضيها الله تعالى تحلّي باطنها و تخلّصها له تعالى .

و قوله : « و أصلح لي في ذرّيّتي » الإصلاح في الذرّيّة إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجرّ إلى إصلاح نفوسهم ، وتقييد الإصلاح بقوله : « لي » للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذرّيّته له في برّه و إحسانه كما كان هو لوالديه .

و محصّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته وصالح العمل و أن يكون بارّاً محسناً بوالديه و يكون ذرّيّته له كما كان هو لوالديه ، و قد تقدّم (١) غير مرّة أنّ شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤل معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل .

و قوله : « إنّي تبت إليك و إنّي من المسلمين » أي الذين يسلّمون الأمر لك فلا تريد شيأ إلّا أرادوه بل لا يريدون إلّا ما أردت .

والجملة في مقام التعليل لما يتضمّنه الدعاء من المطالب ، ويتبيّن بالآية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله : « اُولئك الّذين نتقبّل عنهم » إلخ ، أنّ التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين ـ بفتح اللّام ـ ذاتاً والمخلصين ـ بكسر اللّام ـ عملاً أمّا إخلاص الذات

(١) تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والآية ١٧ من سورة الاعراف .

فقد تقدّمت الإشارة إليه آنفاً ، و أمّا إخلاص العمل فلأنّ العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلّا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم قال تعالى : « ألا لله الدين الخالص » الزمر : ٣ .

قوله تعالى : « اُولئك الّذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيّئاتهم في أصحاب الجنّة » إلخ التقبّل أبلغ من القبول ، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنّها هي المقبولة المتقبّلة و أمّا المباحات فإنّها و إن كانت ذات حسن لكنّها ليست بمتقبّلة كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيّده مقابلة تقبّل أحسن ماعملوا بالتجاوز عن السيّئات فكأنّه قيل: إنّ أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات و هي أحسن أعمالهم فنتقبّلها و سيّئات فنتجاوز عنها و ما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول و غيره .

و قوله : « في أصحاب الجنّة » متعلّق بقوله : « نتجاوز» أي نتجاوز عن سيّئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيّئاتهم من أصحاب الجنّة ، فهو حال من ضمير « عنهم » .

و قوله : « وعد الصدق الّذي كانوا يوعدون » أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الّذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل ، أو المراد أنّه ينجّز لهم بهذا التقبّل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الّذي كانوا يوعدونه في الدنيا .

قوله تعالى : « والّذي قال لوالديه اُفّ لكما أتعدانني أن اُخرج و قد خلت القرون من قبلي » لمّا ذكر الإنسان الّذي تاب إلى الله و أسلم له و سأله الخلوص والإخلاص و برّ والديه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الّذي يكفر بالله ورسوله والمعاد و يعقّ والديه إذا دعواه إلى الايمان و أنذراه بالمعاد .

فقوله : « والّذي قال لوالديه اُفّ لكما » الظاهر أنّه مبتدء في معنى الجمع وخبره قوله بعد: « اُولئك الّذين » إلخ و« اُفّ » كلمة تبرّم يقصد بها إظهار التسخّط والتوجّع و « أتعدانني أن اُخرج» الاستفهام للتوبيخ والمعنى أتعدانني أن اُخرج من قبري فاُحيا و اُحضر للحساب أي أتعدانني المعاد « و قد خلت القرون من قبلي » أي

والحال أنّه هلكت اُمم الماضون العائشون من قبلي ولم يُحي منهم أحد ولا بُعث .

و هذا على زعمهم حجّة على نفي المعاد و تقريره أنّه لو كان هناك إحياء وبعث لاُحيي بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حدّ الإحصاء عدداً في أزمنة طويلة لا أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبّهوا أنّ القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم و إحياءً في الدنيا والّذي وعدهالله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام لنشأة اُخرى غير الدنيا .

وقوله : « وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنّ وعد الله حقّ » الاستغاثة طلب الغوث من الله أي والحال أنّ والديه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامة الحجّة و استمالته إلى الإيمان و يقولان له : ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعده تعالى بالمعاد إنّ وعد الله بالمعاد من طريق رسله حقّ .

ومنه يظهرأنّ مرادهما بقولهما ! «آمن» هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند الله ، و قولهما : « إنّ وعد الله حقّ » المراد به المعاد ، و تعليل الأمر بالإيمان به لغرض الانذار والتخويف .

و قوله : « فيقول ما هذا إلّا أساطير الأوّلين » الإشارة بهذا إلى الوعد الّذي ذكراه و أنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعدالّذي تنذرانني به أو ليس هذا الّذي تدعوانني إليهإلّا خرافاتالأوّلين و هم الاُمم الأوّليّة الهمجيّة .

قوله تعالى : « اُولئك الّذين حقّ عليهم القول » إلخ تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة .

قوله تعالى : « و لكلّ درجات ممّا عملوا » إلى آخر الآية أي لكلّ من المذكورين و هم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل و مراتب مختلفة صعوداً و حدوراً فللجنّة درجات و للنار دركات .

و يعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك قال : « لهم درجات ممّا عملوا » فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم .

و قوله : « و ليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » اللاّم للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات اُخرى محذوفة لم يتعلّق بذكرها غرض ، وإنّما جعلت غاية لقوله: «هم درجات » لأنّه في معنى وجعلناهم درجات ، والمعنى وجعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآية من الآيات الدالّة على تجسّم الأعمال ، و قيل : الكلام على تقدير مضاف والتقدير و ليوفّيهم اُجور أعمالهم .

قوله تعالى : ويوم يعرض الّذين كفروا على النار » إلخ عرض الماء على الدابّة وللدابّة وضعه بمرئى منها بحيث إن شاءت شربته ، وعرض المتاع على البيع وضعه موضعاً لا مانع من وقوع البيع عليه .

و قوله : « و يوم يعرض الّذين كفروا على النار » قيل : المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم : عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع .

و فيه أنّ قوله في آخر السورة « و يوم يعرض الّذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ قالوا بلى و ربّنا قال فذوقوا العذاب » لا يلائمه تلك الملاءمة حيث فرّع ذوق العذاب على العرض فهو غيره .

و قيل : إنّ في الآية قلباً والأصل عرض النار على الّذين كفروا لأنّ من الواجب في تحقّق معنى العرض أن يكون في المعروض عليه شعور بالمعروض والنار لا شعور لها بالّذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب ، والمراد عرض النار على الّذين كفروا .

و وجّهه بعض المفسّرين بأنّ المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما في قولنا : عرضت الماء على الدابّة و عرضت الطعام على الضيف ، و لمّا كان الأمر في عرض النار على الّذين كفروا بالعكس فإنّهم هم المسيّرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار .

و فيه نظر أمّا ما ذكر من أنّ المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور و إدراك بالمعروض حتّى يرغب إليه أو يرغب عنه و النار لا شعور لها ففيه أوّلاً أنّه

ممنوع كما يؤيّده قولهم : عرضت المتاع على البيع ، وقوله تعالى : « إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال » الأحزاب : ٧٢ ، و ثانياً أنّا لا نسلّم خلوّ نار الآخرة عن الشعور ففي الأخبار الصحيحة أنّ للجنّة والنار شعوراً و يشعر به قوله : « يوم نقول لجهنّم هل امتلأت فتقول هل مزيد » ق : ٣٠ ، و غيره من الآيات .

و أمّا ما قيل من أنّ المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلّم لزومه ولا اطّراده فهو منقوض بقوله : « إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض » الآية الأحزاب : ٧٢ .

على أنّ في كلامه تعالى ما يدلّ على الإتيان بالنّار إلى الّذين كفروا كقوله : وجيىء يومئذ بجهنّم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى » الفجر : ٢٣ .

فالحقّ أنّ العرض و هو إظهار عدم المانع من تلبّس شيء بشيء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كلّ منهما أصلاً معروضاً عليه والآخر فرعاً معروضاً فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى : « و عرضنا جهنّم يومئذ للكافرين عرضاً » الكهف : ١٠٠ فتارة يؤخذ الكفّار معروضين للنار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذّبهم كما في قوله : « النار يعرضون عليها غدوّاً و عشيّاً » المؤمن : ٢٦ و قوله : « يعرض الّذين كفروا على النار » الآية .

و على هذا فالأشبه تحقّق عرضين يوم القيامة : عرض جهنّم للكافرين حين تبر زلهم ثمّ عرضهم على جهنّم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها قال تعالى : « و سيق الّذين كفروا إلى جهنّم زمراً » الزمر : ٧١ .

و قوله : « أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » على تقدير القول أي يقال لهم : « أذهبتم » إلخ و الطيّبات الاُمور الّتي تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذّ بها الإنسان ، و إذهاب الطيّبات إنفادها بالاستيفاء لها ، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيّؤ لها .

والمعنى يقال لهم حين عرضهم على النار : أنفدتم الطيّبات الّتي تلتذّون بها في

حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيّبات فلم يبق لكم شيء تلتذّون به في الآخرة .

و قوله : « فاليوم تجزون عذاب الهون بماكنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ و بما كنتم تفسقون » تفريع على إذهابهم الطيّبات ، و عذاب الهون العذاب الّذي فيه الهوان والخزي .

والمعنى فاليوم تجزون العذاب الّذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا عن الحقّ و قبال فسقكم و تولّيكم عن الطاعات ، و هما ذنبان أحدهما متعلّق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحقّ والثاني متعلّق بالعمل و هو الفسق .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدئليّ قال : رفع إلى عمر امرأة ولدت لستّة أشهر فسأل عنها أصحاب النبيّ فقال عليّ : لا رجم عليها ألا ترى أنّه يقول : و حمله وفصاله ثلاثون شهراً ، وقال : و فصاله في عامين ، وكان الحمل ههنا ستّة أشهر فتركها عمر . قال: ثمّ بلغنا أنّها ولدت آخر لستّة أشهر .

أقول : و روى القصّة المفيد في الإرشاد .

و فيه أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهنيّ قال : تزوّج رجل منّا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستّة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفّان فأمر برجمها فبلغ ذلك عليّاً فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستّة أشهر و هل يكون ذلك ؟ قال عليّ : أمّا سمعت الله تعالى يقول : وحمله و فصاله ثلاثون شهراً و قال : حولين كاملين فكم تجده بقي إلّا ستّة أشهر ؟

فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا . عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، و كان من قولها لاُختها : لا تحزني فو الله ما كشف فرجي أحد قطّ غيره . قال : فشبّ الغلام بعد فاعترف الرجل به و كان أشبه الناس به . قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه .

و في التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله أبي و أنا حاضر عن قول الله عزّ وجلّ : « حتّى إذا بلغ أشدّه » قال : الاحتلام .

و في الخصال عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا بلغ العبد ثلاثاً و ثلاثين سنة فقد بلغ أشدّه ، و إذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى و أربعين فهو في النقصان ، و ينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع .

أقول : لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشدّ ممّا يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام و هو غالباً في الستّ عشرة أوّل مرتبة منها والثلاث والثلاثين و هي بعد مضيّ ستّ عشرة اُخرى المرتبة الثانية وقد تقدّم في نظيرة الآية من سورة يوسف بعض أخبار اُخر .

و اعلم أنّه قد وردت في الآية أخبار تطبّقها على الحسين بن عليّ عليه السلام وولادته لستّة أشهر و هي من الجري .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إنّي لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إنّ الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقليّة ؟ إنّ أبا بكر و الله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلّا رحمة و كرامة لولده .

فقال مروان : ألست الّذي قال لوالديه : اُفّ لكما ؟ فقال عبد الرحمان : ألست ابن اللعين الّذي لعن أباك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

قال : و سمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمان كذا و كذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت . نزلت في فلان بن فلان .

و فيه أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في الّذي قال لوالديه اُفّ لكما الآية قال : هذا ابن لأبي بكر .

أقول : و روي ذلك أيضاً عن قتادة والسدّي ، و قصّة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة . قال في روح المعاني بعد ردّ رواية مروان : و وافق بعضهم كالسهيلي

في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمان ، و على تسليم ذلك لا معنى للتعيير لاسيّما من مروان فا نّ الرجل أسلم و كان من أفاضل الصحابة و أبطالهم ، وكان له في الاسلام غناء يوم اليمامة و غيره ، والإسلام يجبّ ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعيّر بما كان يقول . انتهى

و فيه أنّ الروايات لو صحّت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله: « اُولئك الّذين حقّ عليهم القول - إلى قوله - إنّهم كانوا خاسرين » و لم ينفع شيء ممّا دافع عنه به .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و يوم يعرض الّذين كفروا - إلى قوله - و استمتعتم بها » قال : أكلتم و شربتم و ركبتم ، و هي في بني فلان « فاليوم تجزون عذاب الهون » قال : العطش .

و في المحاسن با سناده عن ابن القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال : اُتي يعني النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بخبيص (١) فأبى أن يأكله فقيل : أتحرّمه ؟ فقال : لا و لكنّي أكره أن تتوق إليه نفسي ثمّ تلا الآية « أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا » .

و في المجمع في الآية وقد روي في الحديث أنّ عمر بن الخطّاب قال : استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخلت عليه في مشربة اُمّ إبراهيم و إنّه لمضطجع على خصفة و إنّ بعضه على التراب و تحت رأسه وسادة محشوّة ليفا فسلّمت عليه ثمّ جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبيّ الله و صفوته و خيرته من خلقه وكسرى و قيصر على سرير الذهب و فرش الحرير والديباج ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اُولئك قوم عجّلت طيّباتهم و هي وشيكة الانقطاع ، وإنّما اُخّرت لنا طيّباتنا .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور بطرق عنه .

---

(١) نوع من الحلواء .

☆ ☆ ☆

وَ اذْكُرْ اَخا عادٍ اذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اَلَّا تَعْبُدُوا الَّا اللهَ انِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (٢٢) قالَ اِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما اُرْسِلْتُ بِهِ وَ لٰكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هٰذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِاِذْنِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرىٰ اِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما اِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ اَفْئِدَةً فَما أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ اِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللّٰهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرىٰ وَصَرَّفْنَا الْاٰياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ اِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨).

﴿بيان﴾

لمّا قسّم الناس على قسمين و انتهى الكلام إلى الإنذار عقّب ذلك بالإشارة إلى قصّتين قصّة قوم عاد و هلاكهم و معها الإشارة إلى هلاك القرى الّتي حول مكّة و

قصّة إيمان قوم من الجنّ صرفهم الله إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فاستمعوا القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين و إنّما أورد القصّتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم ، و هذه الآيات المنقولة تتضمّن اُولى القصّتين .

قوله تعالى : « و اذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف و قدخلت النذر من بين يديه و من خلفه » إلخ أخو القوم هوالمنسوب إليهم من جهة الأب ، والمراد بأخي عاد هود النبيّ عليه السلام ، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقّن أنّه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقيا منهم ، واختلفوا أين هو ؟ فقيل : واد بين عمان و مهرة ، و قيل رمال بين عمّان إلى حضرموت ، و قيل : رمال مشرفة على البحر بالشّحر من أرض اليمن و قيل غير ذلك .

و قوله : « و قدخلت النذر من بين يديه و من خلفه » النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيده السياق ، و أمّا تعميم بعضهم النذر للرسل و نوّابهم من العلماء ففي غير محلّه .

و فسّروا « من بين يديه » بالّذين كانوا قبله و « من خلفه » بالّذين جاؤا بعده و يمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه ، و من خلفه من كان قبله ، والأولى على الأوّل أن يكون المراد بخلوّ النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كناية عن مجيئه إليهم و إنذاره لهم على فترة من الرسل .

و قوله : « أن لا تعبدوا إلّا الله » تفسير للإنذار و فيه إشارة إلى أنّ أساس دينه الّذي يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد .

وقوله : « إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل لدعوتهم إلى التوحيد، والظاهر أنّ المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدلّ على ذلك ماسيأتي من قولهم : « فائتنا بما تعدنا » و قوله : « بل هو ما استعجلتم به » والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا » إلخ جواب القوم له قبال إنذاره ، و قوله : « لتأفكنا عن آلهتنا» بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى قالوا أجئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا و افتراء .

و قوله : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنّه عليه السلام كاذب في دعوته آفك في إنذاره .

قوله تعالى : « قال إنّما العلم عند الله و اُبلّغكم ما اُرسلت به » إلخ جواب هود عن قولهم ردّاً عليهم فقوله : « إنّما العلم عند الله » قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنّه من الغيب الّذي لا يعلم حقيقته إلّا الله جلّ شأنه ، و هو كناية عن أنّه عليه السلام لاعلم له بأنّه ما هو ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ و لذلك عقّبه بقوله : «و اُبلّغكم ما اُرسلت به » أي إنّ الّذي حمّلته و اُرسلت به إليكم هو الّذي اُبلّغكموه ولا علم لي بالعذاب الّذي اُمرت بإنذاركم به ما هو ؟ و كيف هو ؟ و متى هو ؟ و لا قدرة لي عليه .

و قوله : « و لكنّي أراكم قوماً تجهلون » إضراب عمّا يدلّ عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه ، والمعنى لاعلم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكنّي أراكم قوماً تجهلون فلا تميّزون ما ينفعكم ممّا يضرّكم و خيركم من شرّكم حين تردّون دعوة الله وتكذّبون بآياته و تستهزؤن بما يوعدكم به من العذاب .

قوله تعالى : « فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » الخ صفة نزول العذاب إليهم بادىء ظهوره عليهم .

و العارض هو السحاب يعرض في الاُفق ثمّ يطبق السماء وهو صفة العذاب الّذي يرجع إليه ضمير « رأوه » المعلوم من السياق ، وقوله : « مستقبل أوديتهم » صفة اُخرى له ، و الأودية جمع الوادي ، و قوله : « قالوا هذا عارض ممطرنا » أي استبشروا ظنّاً منهم أنّه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا : هذا الّذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيّانا .

و قوله : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم» ردّ لقولهم : «هذا عارض ممطرنا » بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبيّن أوّلا على طريق التهكّم أنّه العذاب الّذي استعجلتم به حين قلتم : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » و زاد في البيان ثانيا بقوله : «ريح فيها عذاب أليم » .

و الكلام من كلامه تعالى و قيل : هو كلام لهود النبيّ عليه السلام .

قوله تعالى : « تدمّر كلّ شيء بإذن ربّها فأصبحوا لا يرى إلّا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين » التدمير الإهلاك ، و تعلّقه بكلّ شيء و إن كان يفيد عموم التدمير لكنّ السياق يخصّصه بنحو الإنسان والدواب والأموال فالمعنى إنّ تلك الريح ريح تهلك كلّ ما مرّت عليه من إنسان و دواب و أموال .

و قوله : « فأصبحوا لا يرى إلّا مساكنهم » بيان لنتيجة نزول العذاب ، وقوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » إعطاء ضابط كلّي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلّي بالفرد الممثّل به و التشبيه في الشدّة أي إنّ سنّتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الّذي قصصناه من الشدّة فهو كقوله تعالى : « و كذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد » هود . ١٠٣ .

قوله تعالى : « و لقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه » إلخ موعظة لكفّار مكّة مستنتجة من القصّة .

و التمكين إقرار الشيء و إثباته في المكان ، و هو كناية عن إعطاء القدرة و الاستطاعة في التصرّف و «ما» في «فيما» موصولة أو موصوفة و « إن » نافية ، و المعنى و لقد جعلنا قوم هود في الّذي - أو في شيء - ما مكّنّاكم معشر كفّار مكّة و من يتلوكم فيه من بسطة الأجسام و قوّة الأبدان والبطش الشديد و القدرة القوميّة .

و قوله : « و جعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة » أي جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرّهم و هو السمع و الأبصار و ما يميّزون به ما ينفعهم ممّا يضرّهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضرّ بما قدروا كما أنّ لكم ذلك .

و قوله : فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم و لا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله » ما في « فما أغنى » نافية لا استفهاميّة ، و « إذ » ظرف متعلّق بالنفي الّذي في قوله : «فما أغنى» .

و محصّل المعنى أنّهم كانوا من التمكّن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الاتّقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيأ عند ما جحدوا

آيات الله فما الّذي يؤمّنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله .

و قيل : معنى الآية و لقد مكّنّاهم في الّذي أو في شيء ما مكّنّاكم فيه من القوّة و الاستطاعة وجعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة ليستعملوها فيما خلقت له ويسمعوا كلمة الحقّ و يشاهدوا آيات التوحيد و يعتبروا بالتفكّر في العبر ، و يستدلّوا بالتعقّل الصحيح على المبدء و المعاد فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه هذا و لعلّ الّذي قدّمناه من المعنى أنسب للسياق .

و قد جوّزوا في مفردات الآية وجوهاً لم نوردها لعدم جدوى فيها .

و قد تقدّم في نظائر قوله : « سمعاً و أبصاراً و أفئدة » أنّ إفراد السمع ـ والمراد منه الجمع ـ لمكان مصدريّته في الأصل نظير الضيف و القربان و الجنب قال تعالى : « ضيف إبرهيم المكرمين » الذاريات : ٢٤ و قال : « إذ قرّبا قربانا » المائدة : ٢٧ ، و قال : « و إن كنتم جنباً » المائدة : ٦ .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » عطف على قوله : « ما أغنى عنهم » الخ .

قوله تعالى : « و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى » تذكرة إنذارية متفرّعة على العظة الّتي في قوله : « ولقد مكّنّاهم » الخ فهي معطوفة عليه على ما يفيده السياق لا على قوله : « و اذكر أخاعاد » .

و قوله : « و صرّفنا الآيات لعلّهم يرجعون » أي و صيّرنا الآيات المختلفة من معجزة أيّدنا بها الأنبياء و وحي أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكّروا بها و نقم ابتليناهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلّهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى عبادته .

و الضمير في « لعلّهم يرجعون » راجع إلى القرى و المراد بها أهل القرى .

قوله تعالى : « فلو لا نصرهم الّذين اتّخذوا من دون الله قرباناً آلهة » إلخ ظاهر السياق أنّ آلهة مفعول ثان لا تّخذوا و مفعوله الأوّل هو الضمير الراجع إلى

الموصول و « قرباناً » بمعنى ما يتقرّب به ، والكلام مسوق للتهكّم والمعنى فلو لا نصرهم الّذين اتّخذوهم آلهة حال كونهم متقرّباً بهم إلى الله كما كانوا يقولون : « ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى » .

و قوله : « بل ضلّوا عنهم » أي ضلّ الآلهة عن أهل القرى و انقطعت رابطة الاُلوهيّة والعبوديّة الّتي كانوا يزعمونها ويرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم .

و قوله : « و ذلك إفكهم و ما كانوا يفترون » مبتدء و خبر والإشارة إلى ضلال آلهتهم ، والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف ، و « ما » مصدريّة ، والمعنى و ذلك الضلال أثر إفكهم و افترائهم .

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز والإشارة إلى إهلاكهم بعد تصريف الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك ، و محصّل المعنى أنّ هذا الّذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو حقيقة زعمهم أنّ الآلهة يشفعون لهم و يقرّبونهم من الله زعمهم الّذي أفكوه و افتروه ، والكلام مسوق للتهكّم .

✡ ✡ ✡

وَ اذْ صَرَفْنا اليْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا الِىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا انَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى الَى الْحَقِّ وَ الىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولٰئِكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذى خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ بَلىٰ انَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِماكُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا الَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ الَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (٣٥) .

﴿بيان﴾

هذه هي القصّة الثانية عقّبت بها قصّة عاد ليعتبر بها قومه صلى الله عليه وآله إن اعتبروا ، و فيه تقريع للقوم حيث كفروا به صلى الله عليه وآله و بكتابه النازل على لغتهم و هم يعلمون أنّها

آية معجزة و هم مع ذلك يماثلونه في النوعيّة البشريّة و قد آمن الجنّ بالقرآن إذ استمعوا إليه و رجعوا إلى قومهم منذرين .

قوله تعالى : « و إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن » إلى آخر الآية الصرف ردّ الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان ، والنفر - على ماذكره الراغب - عدّة من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على مافوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان و على الجنّ كما في الآية و « يستمعون القرآن » صفة نفر ، والمعنى و اذكر إذ وجّهنا إليك عدّة من الجنّ يستمعون القرآن .

و قوله : « فلمّا حضروه قالوا أنصتوا » ضمير « حضروه » للقرآن بما يلمح إليه من المعنى الحدثيّ والإنصات السكوت للاستماع أي فلمّا حضروا قراءة القرآن و تلاوته قالوا أي بعضهم لبعض : اسكتوا حتّى نستمع حقّ الاستماع .

و قوله : « فلمّا قضي ولّوا إلى قومهم منذرين » ضمير « قضي » للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته ، والتولية الانصراف و « منذرين » حال من ضمير الجمع في « ولّوا » أي فلمّا اُتمّت القراءة و فرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوّفين لهم من عذاب الله .

قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً اُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه » إلخ حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم ، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن ، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام و كتابه ، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماويّة السابقة .

و قوله : « يهدي إلى الحقّ و إلى طريق مستقيم » أي يهدي من اتّبعه إلى صراط الحقّ و إلى طريق مستقيم لا يضلّ سالكوه عن الحقّ في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « يا قومنا أجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم » المراد بداعي الله هو النبيّ صلى الله عليه وآله قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » يوسف : ١٠٨ ، و قيل : المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد .

والظاهر أنّ « من » في « يغفر لكم من ذنوبكم » للتبعيض والمراد مغفرة بعض الذنوب و هي الّتي اكتسبوها قبل الإيمان قال تعالى : « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

و قيل : المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنّها مغفورة بالتوبة والإيمان توبة و أمّا حقوق الناس فإنّها غير مغفورة بالتوبة ، و ردّ بأنّ الإسلام يجبّ ماقبله.

قوله تعالى : « و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء » إلخ أي و من لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض بردّ دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه و يمدّونه في ذلك والمحصّل أنّ من لم يجب داعي الله في دعوته فإنّما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا و لا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله ، ولذلك أتمّ الكلام بقوله : « اُولئك في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « أولم يروا أنّ الله الذي خلق السماوات والأرض و لم يعي بخلقهنّ بقادر » إلخ الآية و ما بعدها إلى آخر السورة متّصلة بما تقدّم من قوله تعالى : « و يوم يعرض الّذين كفروا على النار أذهبتم » إلخ و فيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة و هو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدّم .

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة ، والعيّ العجز و التعب ، والأوّل أفصح على ما قيل ، والباء في « بقادر » زائدة لوقوعها موقعاً فيه شائبة حيّز النفي كأنّه قيل : أليس الله بقادر .

والمعنى أو لم يعلموا أنّ الله الّذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهنّ أو لم يتعب بخلقهنّ قادر على إحياء الموتى ـ وهو تعالى مبدء وجود كلّ شيء وحياته ـ بلى هو قادر لأنّه على كلّ شيء قدير ، وقد أوضحنا هذه الحجّة فيما تقدّم غير مرّة .

قوله تعالى : « و يوم يعرض الّذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ » إلى آخر الآية تأييد للحجّة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عمّا سيجري على منكري المعاد يوم القيامة ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فاصبر كما صبر اُولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » إلى آخر الآية تفريع على حقّيّة المعاد على ما دلّت عليه الحجّة العقليّة و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه .

والمعنى فاصبر علي جحود هؤلاء الكفّار و عدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اُولوالعزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فانّهم سيلاقون اليوم بمافيه من العذاب و ليس اليوم عنهم ببعيد و إن استبعدوه .

و قوله : « كأنّهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار » تبيين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنّهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هيّيء لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلّا ساعة من نهار .

و قوله : « بلاغ فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون » أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوّة فهل يهلك بهذا الّذي بلّغه الله من الإهلاك إلّا القوم الفاسقون الخارجون عن زيّ العبوديّة .

و قد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يصبر كما صبر اُولو العزم من الرسل و فيه تلويح إلى أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم منهم فليصبر كصبرهم، و معنى العزم ههنا إمّا الصبر كما قاله بعضهم لقوله تعالى : « ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الاُمور » الشورى: ٤٣ و إمّا العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوّح إليه قوله : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي و لم نجد له عزما » طه : ١١٥ و إمّا العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة .

و علي المعنى الثالث و هو الحقّ الّذي تذكره روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام

هم خمسة : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلى الله عليه و آله و عليهم لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً وما أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم و موسى و عيسى » الشورى : ١٣ و قد مرّ تقريب معنى الآية .

و عن بعض المفسّرين أنّ جميع الرسل اُولو عزم ، و قد أخذ « من الرسل » بياناً لاُولي العزم في قوله : « اُولوالعزم من الرسل » و عن بعضهم أنّهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام (الآية ٨٣ ـ ٩٠) لأنّه تعالى قال بعد ذكرهم : « فبهداهم اقتده » .

و فيه أنّه تعالى قال بعد عدّهم « و من آبائهم و ذرّيّاتهم و إخوانهم » ثمّ قال: : « فبهداهم اقتده » ولم يقل ذلك بعد عدّهم بلافصل .

و عن بعضهم أنّهم تسعة : نوح و إبراهيم والذبيح و يعقوب و يوسف و أيّوب و موسى و داود و عيسى ، و عن بعضهم أنّهم سبعة : آدم و نوح و إبراهيم و موسى وداود و سليمان و عيسى ، و عن بعضهم أنّهم ستّة و هم الّذين اُمروا بالقتال : نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان ، و ذكر بعضهم أنّ الستّة هم نوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيّوب ، و عن بعضهم أنّهم خمسة و هم : نوح و هود و إبراهيم و شعيب و موسى ، و عن بعضهم أنّهم أربعة : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ، و ذكر بعضهم أنّ الأربعة هم نوح و إبراهيم وهود ومحمّد صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين .

و هذه الأقوال بين ما لم يستدلّ عليه بشيء أصلاً و بين ما استدلّ عليه بما لا دلالة فيه ، و لذا أغمضنا عن نقلها ، و قد تقدّم في أبحاث النبوّة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في اُولي العزم من الرسل فراجعه إن شئت .

« بحث روائي »

في تفسير القمي في قوله تعالى : « و إذ صرفنا إليك نفراً من الجن » الآيات كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج من مكة إلى سوق عكاظ ، و معه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجبه أحد و لم يجد أحداً يقبله ثم رجع إلى مكة .

فلما بلغ موضعاً يقال له : وادي مجنة [١] تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استمعوا له فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض : « أنصتوا » يعني اسكتوا « فلما قضي » أي فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من القرآن « ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا » إلى آخر الآيات .

فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و أسلموا و آمنوا و علمهم رسول الله صلى الله عليه وآله شرائع الإسلام فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وآله « قل اُوحي إلي أنه استمع نفر من الجن » السورة كلها فحكى الله قولهم و ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم ، و كانوا يعودون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في كل وقت فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم و يفقههم فمنهم مؤمنون و كافرون و ناصبون و يهود و نصارى و مجوس ، و هم ولد الجان .

أقول : والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيرة مختلفة اختلافاً شديداً ، ولا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها و لذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي و سيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى .

و فيه سئل العالم عليه السلام عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة ؟ فقال : لا و لكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن و فساق الشيعة .

---

(١) المجنة محل الجن .

أقول : و روي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنّة ، و رواية القمّي مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنّة و عمومات الكتاب تدلّ على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجنّ .

و في الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : سادة النبيّين والمرسلين خمسة : و هم اُولو العزم من الرسل و عليهم دارت الرحى : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله و على جميع الأنبياء .

و فيه بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ أوّل وصيّ كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم ، و ما من نبيّ مضى إلّا وله وصيّ .

و كان جميع الأنبياء مائة ألف و عشرين ألف نبيّ : منهم خمسة اُولوالعزم : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله و عليهم . الحديث .

أقول : كون اُولي العزم خمسة ممّا استفاضت عليه الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام فهو مرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعن الباقر والصادق والرضا عليهم السلام بطرق كثيرة .

و عن روضة الواعظين للمفيد : قيل للنبيّ صلى الله عليه وآله : كم بين الدنيا والآخرة ؟ قال: غمضة عين قال الله عزّ وجلّ : « كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار بلاغ » الآية .

﴿سورة محمّد مدنيّة و هي ثمان و ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذٰلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦).

﴿بيان﴾

تصف السورة الّذين كفروا بما يخصّهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيّئة و تصف الّذين آمنوا بصفاتهم الطيّبة و أعمالهم الحسنة ثمّ تذكر ما يعقّب صفات هؤلاء من النعمة والكرامة و صفات اُولئك من النقمة والهوان و على الجملة فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم و أعمالهم في الدنيا و ما يترتّب عليها في الأُخرى ، و فيها بعض ما يتعلّق بالقتال من الأحكام .

و هي سورة مدنيّة على ما يشهد به سياق آياتها .

قوله تعالى : « الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم » فسّر الصدّ بالاعراض عن سبيل الله و هو الاسلام كما عن بعضهم ، و فسّر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بماكان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر .

و ثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية و خاصّة ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم وغيرهم .

فالمراد بالّذين كفروا كفّار مكّة ومن تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس عن الايمان بالنبيّ صلّى الله عليه وآله و يفتّنونهم ، وصدّوهم أيضاً عن المسجد الحرام .

و قوله : « أضلّ أعمالهم » أي جعل أعمالهم ضالّة لا تهتدي إلى مقاصدها الّتي قصدت بها و هي بالجملة إبطال الحقّ و إحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرّر منه تعالى من قوله : « والله لا يهدي القوم الكافرين » البقرة : ٢٦٤ و قد وعد سبحانه بإحياء الحقّ و إبطال الباطل كما في قوله : « ليحقّ الحقّ و يبطل الباطل و لو كره المجرمون » الأنفال : ٨ .

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول إلى الغاية ، و عدّ ذلك ضلالا من الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : « والّذين آمنوا و عملوا الصالحات و آمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم » إلخ ظاهر إطلاق صدر الآية أنّ المراد بالّذين آمنوا إلخ مطلق من آمن و عمل صالحاً فيكون قوله : « و آمنوا بما نزّل على محمّد » تقييداً احترازيّاً لا تأكيداً و ذكراً لما تعلّقت به العناية في الايمان .

و قوله : « و هو الحقّ من ربّهم » جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نزّل .

و قوله : «كفّر عنهم سيّآتهم وأصلح بالهم » قال في المجمع : البال الحال والشأن والبال القلب أيضاً يقال : خطر ببالي كذا ، والبال لايجمع لأنّه أبهم أخواته من الحال والشأن . انتهى .

وقدقوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيّئات و إصلاح البال في هذه

الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم و عملهم الصالح إلى غاية السعادة ، و إنّما يتمّ ذلك بتكفير السيّئات المانعة من الوصول إلى السعادة ، و لذلك ضمّ تكفير السيّآت إلى إصلاح البال .

والمعنى ضرب الله الستر على سيّئاتهم بالعفو والمغفرة ، وأصلح حالهم في الدنيا و الآخرة أما الدنيا فلأنّ الدين الحقّ هو الدين الّذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانيّة الّتي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تقتضي إلّا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيويّ ، و أمّا في الآخرة فلأنّها عاقبة الحياة الدنيا و إذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى : « والعاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .

قوله تعالى : «ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل و أنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم » الخ تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفّار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيّئاتهم .

و في تقييد الحقّ بقوله : « من ربّهم» إشارة إلى أنّ المنتسب إليه تعالى هو الحقّ ولا نسبة للباطل إليه و لذلك تولّى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحقّ الّذي اتّبعوه ، و أمّا الكفّار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أمّا انتساب ضلالهم إليه في قوله : « أضلّ أعمالهم » فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة .

و في الآية إشارة إلى أنّ الملاك كلّ الملاك في سعادة الإنسان و شقائه اتّباع الحقّ و اتّباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحقّ إليه تعالى دون الباطل .

و قوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبيّن لهم أوصافهم على ما هي عليه ، و في الإتيان باسم الاشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضرب به من المثل .

قوله تعالى : « فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرقاب » إلى آخر الآية تفريع على ما تقدّم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنّه قيل : إذا كان المؤمنون أهل الحقّ والله ينعم عليهم بما ينعم والكفّار أهل الباطل والله يضلّ أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا

الكفّار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيى الحقّ الذي عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الّذي عليه الكفّار .

فقوله : « فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرقاب » المراد باللقاء اللقاء في القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه والتقدير فاضربوا الرقاب ـ أي رقابهم ـ ضربا و ضرب الرقبة كناية عن القتل ، لأنّ أيسر القتل و أسرعه ضرب الرقبة به .

و قوله : « حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » في المجمع : الاثخان إكثار القتل و غلبة العدوّ و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتدّ عليه و أثخنه الجراح . انتهى و في المفردات : وثقت به أثق ثقة سكنت إليه و اعتمدت عليه ، و أوثقته شددته ، والوثاق ـ بفتح الواو ـ والوثاق ـ بكسر الواو ـ اسمان لما يوثق به الشيء . انتهى و « حتّى » غاية لضرب الرقاب ، والمعنى فاقتلوهم حتّى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق و إحكامه فالمراد بشدّ الوثاق الأسر فالآية في ترتّب الأسر فيها على الاثخان في معنى قوله تعالى : « ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض » الأنفال : ٦٧ .

وقوله : « فإمّا منّاً بعد وإمّا فداء » أي فأسروهم و يتفرّع عليه أنكم إمّا تمنّون عليهم منّاً بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقّونهم وإمّا تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى .

وقوله : « حتّى تضع الحرب أوزارها » أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة الّتي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال .

وقد تبيّن بما تقدّم من المعنى ما في قول بعضهم إنّ هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض » الأنفال : ٦٧ لأنّ هذه السورة متأخّرة نزولاً عن سورة الأنفال فتكون ناسخة لها .

وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان

والآية المبحوث عنها تأمر بالأسر بعد الإثخان .

وكذا ما قيل : إنّ قوله : « فشدّوا الوثاق » الخ منسوخ بآية السيف « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٤ ، وكأنّه مبنيّ على كون العامّ الوارد بعد الخاصّ ناسخا له لا مخصّصاً به والحقّ خلافه وتمام البحث في الاُصول ، وفي الآية أيضاً مباحث فقهيّة محلها علم الفقه .

وقوله : « ذلك » أي الأمر ذلك أي إنّ حكم الله هو ما ذكر في الآية .

وقوله : « ولو شاء الله لانتصر منهم » الضمير للكفّار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم .

وقوله : « ولكن ليبلو بعضكم ببعض » استدراك من مشيّة الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفّار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفّار بالمؤمنين فيتميّز أهل الشقاء منهم ممّن يوفّق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحقّ .

وقد ظهر بذلك أنّ قوله : « ليبلو بعضكم ببعض » تعليل للحكم المذكور في الآية ، والخطاب في « بعضكم » لمجموع المؤمنين والكفّار ووجه الخطاب إلى المؤمنين .

وقوله : « والّذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم » الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عامّ أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة الّتي أتوا بها في سبيل الله .

وقيل : المراد بقوله : « والّذين قتلوا في سبيل الله » شهداء يوم اُحد ، وفيه أنّه تخصيص من غير مخصّص والسياق سياق العموم .

قوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » الضمير للّذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيّآتهم فيصلحون لدخول الجنّة .

وإذا انضمّت هذه الآية إلى قوله تعالى : « ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربّهم » آل عمران : ١٦٩ ظهر أنّ المراد بإصلاح بالهم إحياؤهم

حياة يصلحون بها للحضور عند ربّهم بانكشاف الغطاء .

وقال في المجمع : والوجه في تكرير قوله : « بالهم » أنّ المراد بالأوّل أنّه أصلح بالهم في الدين والدنيا ، وبالثاني أنّه يصلح حالهم في نعيم العقبى فالأوّل سبب النعيم والثاني نفس النعيم . انتهى . والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدّمناه أنّ قوله تعالى : « ويصلح بالهم » على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله : « سيهديهم » دون ما ذكره ، وقوله الآتي : « ويدخلهم الجنّة » على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله : « ويصلح بالهم » دون ما ذكرناه .

قوله تعالى : « ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم » غاية هدايته لهم ، وقوله : « عرّفها لهم » حال من إدخاله إيّاهم الجنّة أي سيدخلهم الجنّة والحال أنّه عرّفها لهم إمّا بالبيان الدنيويّ من طريق الوحي والنبوّة وإمّا بالبشرى عند القبض أو في القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عليّ قال : سورة محمّد آية فينا و آية في بني اُميّة .

أقول : و روى القمّي في تفسيره عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام مثله .

و في المجمع في قوله : « فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرقاب » الخ المرويّ عن أئمّة الهدى عليهم السلام : أنّ الاُسارى ضربان : ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتّى ينزفوا ، ولا يجوز المنّ ولا الفداء .

والضرب الآخر الّذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها و انقضى القتال فالإمام مخيّر فيهم بين المنّ والفداء إمّا بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب

فاذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « والّذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم » قال : نزل فيمن قتل من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم اُحد .

أقول : قدعرفت أنّ الآية عامّة ، وسياق الاستقبال في قوله : « سيهديهم ويصلح بالهم » إلخ إنّما يلائم العموم و كون الكلام مسوقا لضرب القاعدة .

و قد روي أنّ قوله تعالى : « حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » ناسخ لقوله : « و ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى » الآية ، و أيضاً أنّ قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ناسخ لقوله : « فشدّوا الوثاق فإمّا منّا بعد و إمّا فداء » وقدعرفت فيما تقدّم عدم استقامة النسخ .

☆ ☆ ☆

يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت
اقدامكم (٧) والذين كفروا فتعساً لهم و اضل اعمالهم (٨) ذلك
بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم (٩) افلم يسيروا فى الارض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين
امثالها (١٠) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا و ان الكافرين لا
مولى لهم (١١) ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات
تجرى من تحتها الانهار و الذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما
تأكل الانعام والنار مثوى لهم (١٢) و كأين من قرية هى اشد قوة
من قريتك التى اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم (١٣) افمن كان
على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا اهواءهم (١٤) مثل
الجنة التى وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن و انهار من
لبن لم يتغير طعمه و انهار من خمر لذة للشاربين و انهار من عسل
مصفى و لهم فيها من كل الثمرات و مغفرة من ربهم كمن هو خالد
فى النار و سقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم (١٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات جارية على السياق السابق .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم » تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه و إعلاءً لكلمة الحقّ لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليُظهروا نجدة وشجاعه .

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم و غلبتهم على عدوّهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفّار و إدارة الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم ، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاصّ على العامّ و تخصيص تثبيت الأقدام ، و هو كناية عن التشجيع و تقوية القلوب ، لكونه من أظهر أفراد النصر .

قوله تعالى : « والّذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم » ذكر ما يفعل بالكفّار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم .

والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله : « تعساً لهم » أي تعسوا تعسا و هو و ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله : « قاتلهم الله أنّى يؤفكون » التوبة : ٣٠ : « قتل الإنسان ما أكفره » عبس : ١٧ ، و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإنّ الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه .

قوله تعالى : « ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام الّتي أنزلها الله تعالي على نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمر بإطاعتها والانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتّباعها .

والآية تعليل مضمون الآية السابقة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها » التدمير الإهلاك يقال : دمّره الله أي أهلكه ، ويقال : دمّر الله عليه أي أهلك ما يختصّه من نفس وأهل ودار وعقار فدمّر عليه أبلغ من دمّره كما قيل ، وضمير « أمثالها » للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام.

والمراد بالكافرين الكافرون بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمعنى وللكافرين بك يا محمّد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنّما اُوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحلّ بهم إلّا مثل واحد لأنّهم في معرض عقوبات كثيرة دنيويّة واُخرويّة وإن كان لا يحلّ بهم إلّا بعضها ، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين ، والجملة من باب ضرب القاعدة .

قوله تعالى : « ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم » الإشارة بذلك إلى ما تقدّم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم ، ولا يصغى إلى ما قيل : إنّه إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ، وكذا ما قيل : إنّه إشارة إلى نصر المؤمنين ، وذلك لأنّ الآية متعرّضة لحال الطائفتين المؤمنين والكفّار جميعا .

والمولى كأنّه مصدر ميميّ اُريد به المعنى الوصفيّ فهو بمعنى الوليّ ولذلك يطلق على سيّد العبد ومالكه لأنّ له ولاية التصرّف في اُمور عبده ، ويطلق على الناصر لأنّه يلي التصرّف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنّه المالك الّذي يلي اُمور خلقه في صراط التكوين ويدبّرها كيف يشاء قال تعالى: « ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع » آلم السجدة : ٤ ، وقال: « وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ » يونس : ٣٠ ، وهو تعالى مولى لأنّه يلي تدبير اُمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم والجنّة ويوفّقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم ، والمولويّة بهذا المعنى الثاني تختصّ بالمؤمنين ، لأنّهم هم الداخلون في حظيرة العبوديّة المتّبعون لما يريده منهم ربّهم دون الكفّار .

وللمؤمنين مولى ووليّ هو الله سبحانه كما قال : « ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا » ، وقال : « الله وليّ الّذين آمنوا » البقرة : ٢٥٧ ، وأمّا الكفّار فقد اتّخذوا

الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكّم : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » البقرة : ٢٥٧ ، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال : « وأنّ الكافرين لامولى لهم » ثمّ نفى ولايتهم مطلقا تكوينا وتشريعا مطلقا فقال : « أم اتّخذوا من دونه أولياء فالله هو الوليّ » الشورى : ٩ ، وقال : « إن هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم » النجم : ٢٣ .

فمعنى الآية أنّ نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفّار وإضلاله أعمالهم و عقوبته لهم إنّما ذلك بسبب أنّه تعالى مولى المؤمنين ووليّهم ، وأنّ الكفّار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجّيهم من عقوبته .

وقد تبيّن بما تقدّم ضعف ما قيل : إنّ المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلّا كان منافيا لقوله تعالى : « وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ » يونس : ٣٠ ، ووجه الضعف ظاهر .

قوله تعالى : « إنّ الله يدخل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار والّذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفّار من حيث العاقبة والآخرة وهي أنّ المؤمنين يدخلون الجنّة والكفّار يقيمون في النار .

وقد اُشير في الكلام إلى منشإ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلّاً من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله : « الّذين آمنوا وعملوا الصالحات » وإلى صفة الكفّار بقوله : « يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أنّ المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحقّ حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانيّة ، وأمّا الكفّار فلا عناية لهم بإصابة الحقّ ولا تعلّق لقلوبهم بوظائف الإنسانيّة ، وإنّما همّهم بطنهم وفرجهم يتمتّعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلّا ذلك ولا غاية لهم وراءه .

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكا يريده منهم ربّهم

و يهديهم إليه و لذلك يدخلهم في الآخرة جنّات تجري من تحتها الأنهار ، وأُولئك أي الكفّار ما لهم من وليّ و إنّما وكلوا إلى أنفسهم و لذلك كان مثواهم و مقامهم النار .

وإنّما نسب دخول المؤمنين الجنّات إلى الله نفسه دون إقامة الكفّار في النار قضاء لحقّ الولاية المذكورة فله تعالى عناية خاصّة بأوليائه ، وأمّا المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أيّ وادهلكوا .

قوله تعالى : «وكأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد : « أهلكناهم » إلخ والقرية الّتي أخرجته صلّى الله عليه وآله هي مكّة .

و في الآية تقوية لقلب النبيّ صلّى الله عليه وآله و تهديد لأهل مكّة و تحقير لأمرهم أنّ الله أهلك قرى كثيرة كلّ منها أشدّ قوّة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم .

قوله تعالى : « أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله و اتّبعوا أهواءهم » السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفّار يدلّ على أنّ المراد بمن كان على بيّنة من ربّه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بيّنة من ربّهم كونهم على دلالة بيّنة من ربّهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هي الحجّة البرهانيّة فهم إنّما يتّبعون الحجّة القاطعة على ما هو الحريّ بالإنسان الّذي من شأنه أن يستعمل العقل و يتّبع الحقّ .

وأمّا الّذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيّئة الّتي زيّنها لهم الشيطان وتعلّقت بها أهواؤهم و عملوا السيّئات ، فكم بين الفريقين من فرق .

قوله تعالى : « مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون » إلى آخر الآية يفرّق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما و هو في الحقيقة توضيح ما مرّ في قوله : « إنّ الله يدخل الّذين آمنوا » الخ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية .

فقوله : « مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون » المثل بمعنى الصفة ـ كما قيل ـ أي صفة الجنّة الّتي وعد الله المتّقين أن يدخلهم فيها ، و ربّما حمل المثل على معناه

المعروف و استفيد منه أنّ الجنّة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدّها اللفظ و إنّما تقرّب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوّح إليه قوله تعالى : «فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة أعين» السجدة : ١٧ .

و قد بدّل قوله في الآية السابقة : «الّذين آمنوا و عملوا الصالحات» في هذه الآية من قوله : «المتّقون» تبديل اللازم من الملزوم فإنّ تقوى الله يستلزم الإيمان به وعمل الصالحات من الأعمال .

و قوله : «فيها أنهار من ماء غير آسن» أي غير متغيّر بطول المقام ، و قوله : «و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» كما في ألبان الدنيا ، و قوله : «و أنهار من خمر لذّة للشاربين» أي لذيذة للشاربين ، واللذّة إمّا صفة مشبهة مؤنّثة وصف للخمر ، و إمّا مصدر وصفت به الخمر مبالغة ، وإمّا بتقدير مضاف أي ذات لذّة ، و قوله : «وأنهار من عسل مصفّى» أي خالص من الشمع والرغوة والقذى و سائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب ، و قوله : «ولهم فيها من كلّ الثمرات» جمع للتعميم .

و قوله : «و مغفرة من ربّهم» ينمحي بها عنهم كلّ ذنب و سيّئة فلا تتكدّر عيشتهم بمكدّر ولا ينتغص بمنغّص ، و في التعبير عنه تعالى بربّهم إشارة إلى غشيان الرحمة و شمول الحنان والرأفة الإلهية .

و قوله : «كمن هو خالد في النار» قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنّة الّتي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الّذي يقطّع أمعاءهم و ما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه ، و إنّما يسقونه و هم مكرهون كما في قوله : «و سقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم» ، و قيل : قوله : «كمن هو خالد» الخ بيان لقوله في الآية السابقة : «كمن زيّن» الخ و هو كما ترى .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله » قال أبوجعفر عليه السلام كرهوا ما أنزل الله في حقّ عليّ عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : «كمن زيّن له سوء عمله » قيل : هم المنافقون و هوالمرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : و يحتمل أن تكون الروايتان من الجري .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم » قال : ليس من هو في هذه الجنّة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدوّ الله كوليّه .

☆ ☆ ☆

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ حَتّٰى اِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
اُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا اُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ
وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتٰيهُمْ
تَقْوٰيهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ الَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَاَنّٰى لَهُمْ اِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرٰيهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا
اللّٰهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ
مَثْوٰيكُمْ (١٩) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاِذَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ
اِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلٰى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْاَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّٰهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ
عَسَيْتُمْ اِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)
اُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَاَصَمَّهُمْ وَ أَعْمٰى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا -
يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلٰى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) اِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلٰى
أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلٰى
لَهُمْ (٢٥) ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي

بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ المَلٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (٢٧) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصّٰابِرِينَ وَ نَبْلُوَ أَخْبارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ شاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢) .

﴿بيان﴾

الآيات جارية على السياق السابق ، و فيها تعرّض لحال الّذين في قلوبهم مرض والمنافقين و من ارتدّ بعد إيمانه .

قوله تعالى : « و منهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين اُوتوا العلم ماذا قال آنفا » الخ آنفاً اسم فاعل منصوب على الظرفيّة أو لكونه مفعولا فيه ، و معناه الساعة الّتي قبيل ساعتك ، و قيل : معناه هذه الساعة و على أيّ حال مأخوذة من الأنف بمعنى الجارحة .

و قوله : « و منهم من يستمع إليك » الضمير للّذين كفروا ، والمراد باستماعهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله إصغاؤهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبيّن لهم من اُصول المعارف و شرائع الدين .

و قوله : « حتّى إذا خرجوا من عندك » الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أنّ إفراده في « يستمع » باعتبار اللفظ .

و قوله : « قالوا للّذين اُوتوا العلم ماذا قال آنفاً » المراد بالذين اُوتوا العلم العلماء بالله من الصحابة ، والضمير في «ماذا قال » للنبيّ صلّى الله عليه وآله .

والاستفهام في قولهم : «ماذاقال آنفاً» قيل : للاستعلام حقيقة لأنّ استغراقهم في الكبر والغرور و اتّباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحقّ كما قال تعالى : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » النساء : ٧٨ وقيل : للاستهزاء ، و قيل : للتحقير كأنّ القول لكونه مشحونا بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصّل ، ولكلّ من المعاني الثلاثة وجه .

و قوله : « اُولئك الّذين طبع الله على قلوبهم » تعريف لهم ، وقوله : « و اتّبعوا أهواءهم » تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير ، و يتحصّل منه أنّ اتّباع الأهواء أمارة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصليّة لا يتوقّف في فهم المعارف الدينيّة والحقائق الإلهيّة .

قوله تعالى : « والّذين اهتدوا زادهم هدىً و آتاهم تقواهم » المقابلة الظاهرة بين الآية و بين الآية السابقة يعطي أنّ المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة و اتّباع الحقّ ، و زيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم ، و قد تقدّم أنّ الهدى والإيمان ذومراتب مختلفة ، والمراد بالتقوى ما يقابل اتّباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله والتجنّب عن ارتكاب المعاصي .

و بذلك يظهر أنّ زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم و إيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل ، و يظهر أيضاً بالمقابلة أنّ الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم و اتّباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح و حرمانهم منه و هذا لا ينافي ما قدّمنا أنّ اتّباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب .

قوله تعالى : « فهل ينظرون إلّا أن تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها » الخ النظر هو الانتظار ، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة ، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقّف عليه وجود الشيء لأنّ تحقّقه علامة تحقّق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالّة عليها .

و سياق الآية سياق التهكّم كأنّهم واقفون موقفا عليهم إمّا أن يتّبعوا الحقّ فتسعد بذلك عاقبتهم ، و إمّا أن ينتظروا الساعة حتّى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكّروا وآمنوا واتّبعوا الحقّ أمّا اتّباع الحقّ اليوم فلم يخضعوا له بحجّة أو بموعظة أو عبرة ، و أمّا انتظارهم مجيء الساعة ليتذكّروا عنده فلا ينفعهم شيأ فإنّها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيأ حتّى يستعدّوا لها بالذكرى و إذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأنّ اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى : « يومئذ يتذكّر الإنسان و أنّى له الذكرى يقول ياليتني قدّمت لحياتي » الفجر :٢٣ .

مضافاً إلى أنّ أشراطها و علاماتها قد جاءت وتحقّقت ، و لعلّ المراد بأشراطها خلق الإنسان و انقسام نوعه إلى صلحاء و مفسدين و متّقين و فجّار المستدعي للحكم الفصل بينهم و نزول الموت عليهم فإنّ ذلك كلّه من شرائط وقوع الواقعة و إتيان الساعة ، و قيل : المراد بأشراط الساعة ظهورالنبيّ صلى الله عليه وآله و هو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر و نزول القرآن و هو آخر الكتب السماويّة .

هذا ما يعطيه التدبّر في الآية من المعنى وهي ـ كما ترى ـ حجّة برهانيّة في عين أنّها مسوقة سوق التهكّم .

و عليه فقوله : « بغتة » حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع و ليتفرّع عليه قوله الآتي : « فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » و ليس قيداً للانتظار حتّى يفيد أنّهم إنّما ينتظرون إتيانها بغتة ، ولدفع هذا التوهّم قيل : «إلّا الساعة أن تأتيهم بغتة » ولم يقل : إلّا أن تأتيهم الساعة بغتة .

و قوله : « فأنّي لهم إذا جاءتهم ذكراهم » أنّى خبر مقدّم و « ذكراهم » مبتدء مؤخّر و « إذا جاءتهم » معترضة بينهما ، والمعنى فكيف يكون لهم أن يتذكّروا إذا

جاءتهم ؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الّذي يعمل فيه و إنّما هو يوم الجزاء .

و للقوم في معنى جُمل الآية و معناها بالجملة أقوال مختلفة تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصّلة .

قوله تعالى : « فاعلم أنّه لا إله إلّا الله و استغفر لذنبك و للمؤمنين والمؤمنات» الخ قيل : هو متفرّع على جميع ما تقدّم في السورة من سعادة المؤمنين و شقاوة الكفّار كأنّه قيل : إذا علمت أنّ الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء و شقاوة اُولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم .

و يمكن أن يكون تفريعاً على ما بيّنه في الآيتين السابقتين أعني قوله : «ومنهم من يستمع إليك - إلى قوله - و آتاهم تقواهم » من أنّه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الّذين اهتدوا إلى توحيده والايمان به فكأنّه قيل : إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانيّة الإله واطلب مغفرة ذنبك و مغفرة اُمّتك من المؤمنين بك والمؤمنات حتّى لاتكون ممّن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه ، و يؤيّد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : « والله يعلم متقلّبكم و مثواكم » .

فقوله : « فاعلم أنّه لا إله إلّا الله » معناه على ما يؤيّده السياق فاستمسك بعلمك أنّه لا إله إلّا الله ، و قوله : « و استغفر لذنبك » تقدّم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم و سيأتي أيضاً في تفسير أوّل سورة الفتح إن شاء الله تعالى .

و قوله: « وللمؤمنين والمؤمنات » أمر بطلب المغفرة للاُمّة من المؤمنين والمؤمنات و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة.

و قوله : « والله يعلم متقلّبكم و مثواكم » تعليل لما في صدر الآية : «فاعلم أنّه » الخ ، والظاهر أنّ المتقلّب مصدر ميميّ بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار والسكون ، والمراد أنّه تعالى يعلم كلّ أحوالكم من متغيّر

و ثابت و حركة و سكون فاثبتوا على توحيده واطلبوا مغفرته ، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يتركْكم و أهواءكم .

و قيل : المراد بالمتقلّب والمثوى التصرّف في الحياة الدنيا والاستقرار في الآخرة و قيل : المتقلّب من الأصلاب إلى الأرحام والمثوى السكون في الأرض .

و قيل : المتقلّب التصرّف في اليقظة والمثوى المنام ، و قيل : المتقلّب التصرّف في المعايش والمكاسب والمثوى الاستقرار في المنازل ، و ما قدّمناه أظهر و أعمّ .

قوله تعالى : « و يقول الّذين آمنوا لولا اُنزلت سورة » إلى آخر الآية لولا تحضيضيّة أي هلّا اُنزلت سورة يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم بتكاليف جديدة يمتثلونها ، والمراد بالسورة المحكمة المبيّنة الّتي لا تشابه فيها ، والمراد بذكر القتال الأمر به .

والمراد بالّذين في قلوبهم مرض ، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فانّ الآية صريحة في أنّ الّذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الّذين آمنوا ، ولا يعمّ الّذين آمنوا للمنافقين إلّا على طريق المساهلة غير اللائقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين : « ألم تر إلى الّذين قيل لهم كفّوا أيديكم و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية » النساء : ٧٧ .

والمغشيّ عليه من الموت هو المحتضر يقال : غشيه غشاوة إذا ستره وغطّاه وغشي على فلان ـ بالبناء للمفعول ـ إذا نابه ما غشي فهمه ، و نظر المغشيّ عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف .

و قوله : « فأولى لهم » لعلّه خبر لمبتدء محذوف والتقدير أولى لهم ذلك أي حريّ بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا ، و عن الأصمعيّ أنّ قولهم : « أولى لك » كلمة تهديد معناه وليك و قارنك ما تكره ، والآية نظيرة قوله تعالى : «أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى » القيامة : ٣٤ .

و معنى الآية ويقول الّذين آمنوا هلّا اُنزلت سورة فإذا اُنزلت سورة محكمة

لا تشابه فيها و اُمروا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شدّة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك .

قوله تعالى : « طاعة و قول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » عزم الأمر أي جدّ و تنجّز .

و قوله : « طاعة و قول معروف »كأنّه خبر لمبتدء محذوف و التقدير أمرنا - أو أمرهم وشأنهم - أي إيمانهم بنا طاعة واثقوناعليها و قول معروف غير منكر قالوا لناوهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله : « آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه والمؤمنون - إلى أن قال - و قالوا سمعنا و أطعنا » البقرة : ٢٨٥ .

و على هذا يتّصل قوله بعده : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » بما قبله اتّصالاً بيّنا، والمعنى أنّ الأمر هوما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعناوأطعنا فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيراً لهم .

و يحتمل أن يكون قوله : « طاعة » الخ خبراً لضمير عائد إلى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم و أطاعوه به لكان خيراً لهم . أمّا كونه طاعة منهم فظاهر ، و أمّا كونه قولا معروفا فلأنّ إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

و قيل : إنّ قوله : « طاعة » الخ مبتدء محذوف الخبر والتقدير طاعة و قول معروف خير لهم و أمثل ، و قيل : مبتدء خبره « فأولى لهم » في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة ؛ و هو قول رديّ ، و أردء منه ما قيل : إنّ « طاعة » الخ صفة لسورة في قوله : « فإذا اُنزلت سورة » و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم » الخطاب للّذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله ، و قد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع ، والاستفهام للتقرير ، والتولّي الإعراض والمراد به

الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك و رفض الدين .

والمعنى فهل يتوقّع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بمافيه و منه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و هتك الأعراض تكالباً على جيفة الدنيا أي إن تولّيتم كان المتوقّع منكم ذلك .

و قد ظهر بذلك أنّ الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « لكان خيراً لهم » و لذا صدّر بالفاء .

و قيل : المراد بالتولّي التصدّي للحكم والولاية والمعنى هل يتوقّع منكم إن جُعلتم ولاة أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدم الحرام و أخذ الرشاء والجور في الحكم هذا ، و هو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « اُولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم » الإشارة إلى المفسدين في الأرض المقطّعين للأرحام و قد وصفهم الله بأنّه لعنهم فأصمّهم و أذهب بسمعهم فلا يسمعون القول الحقّ و أعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحقّ فإنّها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب الّتي في الصدور .

قوله تعالى : « أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها » الاستفهام للتوبيخ و ضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة ، و تنكير « قلوب » كما قيل للدلالة على أنّ المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم .

قال في مجمع البيان : و في هذا دلالة على بطلان قول من قال : لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلّا بخبر و سمع . انتهى

قوله تعالى : « إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم » الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال و هو استعارة اُريد بها الترك بعد الأخذ ، والتسويل تزيين ما تحرص النفس عليه و تصوير القبيح لها في صورة الحسن ؛ والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الآمال .

قوله تعالى : « ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض

الأمر والله يعلم إسرارهم » الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان و إملائه وبالجملة تسلّطه عليهم ، والمراد « بالّذين كرهوا ما نزّل الله » هم الّذين كفروا كما تقدّم في قوله : «والّذين كفروا فتعساً لهم و أضلّ أعمالهم ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله » الآية ٩ من السورة .

و قوله : « سنطيعكم في بعض الأمر » مقول قولهم و وعد منهم للكفّار بالطاعة و هو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الاُمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسرّ إلى من يعده أنّه سيطيعه في بعض الأمر و فيما تيسّر له ذلك ثمّ يكتم ذلك و يقعد متربّصا للدوائر .

و يستفاد من ذلك أنّ هؤلاء كانوا قوما من المنافقين أسرّوا إلى الكفّار ماحكاه تعالى عنهم و وعدوهم الطاعة لهم مهما تيسّر لهم ذلك ، ويؤيّد ذلك قوله تعالى بعد: « والله يعلم إسرارهم » .

و اختلفوا في هؤلاء من هم ؟ فقيل : هم اليهود قالوا للمنافقين : إن أعلنتم الكفر نصرناكم ؛ و قيل : هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين . و يرد على الوجهين جميعاً أنّ موضوع الكلام في الآية المرتدّون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدّوا .

و قيل : هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى : « ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن اُخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً و إن قوتلتم لننصرنّكم » الحشر : ١١ .

و فيه أنّ الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلّف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله صلّى الله عليه وآله بعد تبيّن رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلّهم قوم من المنافقين غيرهم .

قوله تعالى : « فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم »

متفرّع على ما قبله ، والمعنى هذا حالهم اليوم يرتدّون بعد تبيّن الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤن فكيف حالهم إذا توفّتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم و أدبارهم .

قوله تعالى : « ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » الظاهر أنّ المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويلات الشيطان المستتبعة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى : «واتّبعوا أهواءهم » وقال : « الشيطان سوّل لهم و أملى لهم » .

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعليّة والمراد بهما العقاب والثواب .

والإشارة في قوله : « ذلك » إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفّيهم أي سبب عقابهم أنّ أعمالهم حابطة لاتّباعهم ما أسخط الله و كراهتهم رضوانه ، و إذ لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى : « أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم » قال الراغب : الضغن ـ بكسر الضاد ـ والضغن ـ بضمّها ـ الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى والمراد بالّذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلّهم الّذين آمنوا أوّلاً على ضعف في إيمانهم ثمّ مالوا إلى النفاق و ارتدّوا بعد الإيمان فالتدبّر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أنّ قوماً ممّن آمن بالنبيّ صلّى الله عليه وآله كانوا على هذه الصفة كما أنّ قوماً منهم آخرين كانوا منافقين من أوّل يوم آمنوا إلى آخر عمرهم ، و على هذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدّم بملاحظة بادىء أمرهم .

والمعنى بل ظنّ هؤلاء المنافقون الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله .

قوله تعالى : « و لو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » السيماء العلامة والمعنى ولو نشاء لأريناك اُولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم الّتي أعلمناهم بها .

و قوله : « و لتعرفنّهم في لحن القول » قال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه : إمّا بإزالة الإعراب أو التصحيف و هو المذموم ، و ذلك أكثر

استعمالا ، و إمّا بإزالته عن التصريح و صرفه إلى تعريض و فحوى ، و هو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة . انتهى .

فالمعنى و لتعرفنّهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض ، و في جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازيّة .

و قوله : « والله يعلم أعمالكم » أي يعلم حقائقها و أنّها من أيّ القصود والنيّات صدرت فيجازي المؤمنين بصالح أعمالهم و غيرهم بغيرها ففيه وعد للمؤمنين و وعيد لغيرهم .

قوله تعالى : « ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار ، والآية بيان علّة كتابة القتال على المؤمنين ، وهو الاختبار الإلهيّ ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاقّ التكاليف الإلهيّة .

و قوله : « و نبلو أخباركم » كأنّ المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنّها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم ، و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أنّ اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيّرة و قد تقدّم فيما تقدّم أنّ المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك ، وبنظر أدقّ هو علم فعليّ له تعالى خارج عن الذات .

قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئا وسيحبط أعمالهم » المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفّار مكّة ومن يلحق بهم لأنّهم الّذين صدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول وعادوه أشدّ المعاداة بعد ما تبيّن لهم الهدى .

وقوله : « لن يضرّوا الله شيئا » لأنّ كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلّا إلى نفسه ولا يضرّ إلّا إيّاه ، وقوله : « وسيحبط أعمالهم » أي مساعيهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله ، وقيل : المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة

على شيء من أعمالهم ، والمعنى الأوّل أنسب للسياق لأنّ فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطييب نفوسهم أنّهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التالية .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » الخ عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قال : إنّا كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والبخاريّ ومسلم والترمذيّ عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبّابة والوسطى .

اقول : وروي هذا اللفظ عنه صلى الله عليه وآله بطرق اُخرى عن أبي هريرة وسهل بن مسعود .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة والبخاريّ ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن ساُحدّثك عن أشراطها .

إذا ولدت الأمة ربّتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رؤس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها .

وفي العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل يقول فيه لعبدالله بن سلام وقد سأله عن مسائل : أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

اقول : ولعلّ المراد به غير ظاهره ، والأخبار في أشراط الساعة من طرق الشيعة وأهل السنّة فوق حدّ الإحصاء ، وقد مرّت في آخر الجزء الخامس من الكتاب رواية سلمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله ورواية حمران عن الصادق عليه السلام وهما روايتان جامعتان في الباب .

وفي المجمع قد صحّ الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال : كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله إنّي لأخشى أن يدخلني لساني النار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فأين أنت من الاستغفار ؟ إنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائيّ وابن حبّان وابن مردويه عن الأغرّ المزنيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّه ليغان على قلبي ، وإنّي لأستغفر الله كلّ يوم مائة مرّة .

وفيه في قوله تعالى : « فهل عسيتم إن تولّيتم » الآية أخرج البيهقيّ عن جابر ابن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الرحم معلّقة بالعرش لها لسان ذلق تقول: اللهمّ صل من وصلني ، واقطع من قطعني .

اقول: والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة ، وقد مرّ شطر منها في تفسير أوّل سورة النساء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أفلا يتدبّرون القرآن » الآية أفلا يتدبّرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحقّ عن أبي عبدالله وأبي الحسن عليهما السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمّد بن عمارة قال : سألت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام فقلت له : يابن رسول الله أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل له رضىً وسخط ؟ قال : نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ولتعرفنّهم في لحن القول » الآية عن أبي سعيد الخدريّ قال : لحن القول بغضهم عليّ بن أبي طالب . قال : كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم عليّ بن أبي طالب .

قال في المجمع : وروي مثل ذلك عن جابر بن عبدالله الأنصاري .

وقال : وعن عبادة بن الصامت قال : كنّا نبور أولادنا بحبّ عليّ بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشدة .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ ببغض عليّ بن أبيطالب .

وفي أمالي الطوسيّ بإسناده إلى عليّ عليه السلام أنّه قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه : قلت « المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلّم ظهر فأنزل الله « ولتعرفنّهم في لحن القول » .

☆ ☆ ☆

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوهٰا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغٰانَكُمْ (٣٧) هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ (٣٨) .

(بيان)

لمّا وصف حال الكفّار و أضاف إليه وصف حال الّذين في قلوبهم مرض و تثاقلهم في أمر القتال و حال من ارتدّ منهم بعد ، رجع يحذّر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم فيفاوضوا المشركين ويميلوا إليهم فيتّبعوا ما أسخط الله ويكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم بالحبط ، و في الآيات موعظة لهم بالترغيب والترهيب والتطميع والتخويف ، و بذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » الآية و إن كانت في نفسها مستقلّة في مدلولها مطلقة في معناها حتّى استدلّ

الفقهاء بقوله فيها : « ولا تبطلوا أعمالكم » على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنّها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرّضة لأمر القتال ، و كذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق و خاصّة ما في ظاهر قوله : « إنّ الّذين كفروا » إلخ من التعليل و ما في قوله : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم » الخ من التفريع و بالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدلّ على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرّع من الحكم و إيجاب طاعة الرسول فيما بلّغ عن الله سبحانه ، و فيما يُصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الدينيّ ، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به اُولئك الّذين انجرّ أمر بعضهم أن ارتدّوا بعد ما تبيّن لهم الهدى .

فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرّع وأنزل من حكم القتال ، و من طاعة الرسول طاعته فيما بلّغ منه وفيما أمر بهمنه ومن مقدّماته بماله من الولاية فيه و بإبطال الأعمال التخلّف عن حكم القتال كما تخلّف المنافقون و أهل الردّة .

وقيل : المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنّهم على الله و رسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى : « يمنّون عليك أن أسلموا » و قيل : إبطالها بالرياء والسمعة ، و قيل : بالعجب ، و قيل بالكفر والنفاق ، و قيل : المراد إبطال الصدقات بالمنّ والأذى كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » . البقرة : ٢٦٤ وقيل : إبطالها بالمعاصي و قيل : بخصوص الكبائر .

و يرد على هذه الأقوال جميعا أنّ كلّ واحد منها على تقدير صحّته و تسليمه مصداق من مصاديق الآية مع الغضّ من وقوعها في السياق الّذي تقدّمت الإشارة إليه و أمّا من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلّا القتال كما مرّ .

قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر الله لهم » ظاهر السياق أنّه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنّكم او لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتّباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللحوق بأهل الكفر والصدّ و لا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبدا .

والمراد بالصد عن سبيل الله الاعراض عن الايمان أو منع الناس أن يؤمنوا .

قوله تعالى : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون والله معكم و لن يتركم أعمالكم » تفريع على ما تقدم ، و قوله : « فلا تهنوا » من الوهن بمعنى الضعف والفتور ، و قوله : « وتدعوا إلى السلم » معطوف على « تهنوا » واقع في حيز النهي أي ولا تدعوا إلى السلم، والسلم بفتح السين الصلح ، وقوله: « وأنتم الأعلون » جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح ، و قوله : « و أنتم الأعلون» جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون ، والمراد بالعلو الغلبة و هي استعارة مشهورة .

و قوله : « والله معكم » معطوف على « و أنتم الأعلون » يبين سبب علوهم و يعلله فالمراد بمعيته تعالى لهم معية النصر دون المعية القيومية التي يشير إليها قوله تعالى : « و هو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

و قوله : « و لن يتركم أعمالكم » قال في المجمع: يقال : وتره يتره وتراً إذا نقصه و منه الحديث (١) فكأنه وتر أهله و ماله ، و أصله القطع و منه الترة القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره انتهى .

فالمعنى لن ينقصكم أعمالكم أي يوفي أجرها تاما كاملا ، و قيل : المعنى لن يضيع أعمالكم ، و قيل : ولن يظلمكم ، والمعاني متقاربة .

ومعنى الآية إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذا السبيل وكان مؤدياً إلى الحرمان من مغفرة الله أبدا فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئا من اُجوركم بل يوفيكموها تامة كاملة .

وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله : « فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اُجوركم

---

(١) و هو ما عن النبي صلى الله عليه و آله « من فاتته صلاة العصر فكانما وتر أهله و ماله » عن الجوامع .

ولا يسألكم أموالكم » ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنّها لعب ولهو - وقد مرّ معنى كونها لعباً ولهواً - .

وقوله : « وإن تؤمنوا » الخ أي إن تؤمنوا و تتّقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم أُجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أنّ المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيّده أيضاً الآية التالية .

قوله تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم » الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقّة ، والمراد بالبخل - كما قيل - الكفّ عن الإعطاء ، والأضغان الأحقاد .

والمعنى إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلّها كففتم عن الإعطاء لحبّكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضللتم .

قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل » إلى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنّه قيل : إنّه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنّكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله - وهو بعض أموالكم - فبعضكم يبخل فيظهر به أنّه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم .

وقوله : « ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه » أي يمنع الخير عن نفسه فإنّ الله لا يسأل مالهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم ، وإليه يشير قوله بعده : « والله الغنيّ وأنتم الفقراء » والقصران للقلب أي الله هو الغنيّ دونكم وأنتم الفقراء دون الله .

وقوله : « وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم » قيل : عطف على قوله : « وإن تؤمنوا وتتّقوا » والمعنى إن تؤمنوا وتتّقوا يؤتكم اُجوركم وإن تتولّوا وتعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفّقهم للإيمان دونكم ثمّ لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون ويتّقون وينفقون في سبيل الله .

﴿ بحث روائي ﴾

في ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قال : سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ، ومن قال : لا إله إلّا الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنّة .

فقال رجل من قريش : يا رسول الله إنّ شجرنا في الجنّة لكثير . قال : نعم ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها ، و ذلك أنّ الله عزّ وجلّ يقول : «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

و في تفسير القمّي « و إن جنحوا للسلم كافّة فاجنح لها » قال : هي منسوخة بقوله : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون والله معكم » .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق و عبد بن حميد والترمذيّ و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبرانيّ في الأوسط و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله هذه الآية « وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم » فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الّذين إن تولّينا استبدلوا بنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله على منكب سلمان ثمّ قال : هذا و قومه ، والّذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا لتناوله رجال من فارس .

أقول : و روي بطرق اُخر عن أبي هريرة مثله . و كذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

و في المجمع و روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إن تتولّوا » يا معشر العرب « يستبدل قوماً غيركم » يعني الموالي .

و فيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قد والله أبدل خيراً منهم الموالي .

﴿ سورة الفتح مدنيّة و هي تسع و عشرون آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ الَّذى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا اِيماناً مَعَ اِيمانِهِمْ وَ لِلّهِ جُنُودُ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذٰلِكَ عِنْدَاللهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (٦) وَ لِلّهِ جُنُودُ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ وَ كانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) .

﴿ بيان ﴾

مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصّة صلح الحديبيّة الواقعة في السنة السادسة من الهجرة و ما وقع حولها من الوقائع كقصّة تخلّف الأعراب و صدّ المشركين ، و بيعة الشجرة على ما تفصّله الآثار و سيجيء شطر منها في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

فغرض السورة بيان ما امتنّ تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة، و على المؤمنين ممّن معه، و مدحهم البالغ، والوعد الجميل للّذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات، والسورة مدنيّة.

قوله تعالى: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبينا» كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيد الجملة با إنّ و نسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كلّ ذلك للاعتناء بشأن الفتح الّذي يمتنّ به.

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيّده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم من الفتح في صلح الحديبيّة.

و ذلك أنّ ما سيأتي في آيات السورة من الامتنان على النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين، و مدحهم والرضا عن بيعتهم ووعدهم الجميل في الدنيا بمغانم عاجلة وآجلة وفي الآخرة بالجنّة وذمّ المخلّفين من الأعراب إذا استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يخرجوا معه، وذمّ المشركين في صدّهم النبيّ صلى الله عليه وآله و من معه، و ذمّ المنافقين، و تصديقه تعالى رؤيا نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، و قوله: «فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحا قريبا» - و كاد يكون صريحاً - كلّ ذلك معان مرتبطة بخروجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّة للحجّ و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبيّة.

و أمّا كون هذا الصلح فتحا مبينا رزقه الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فظاهر بالتدبّر في لحن آيات السورة في هذه القصّة فقد كان خروج النبيّ والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير إليه قوله تعالى: «بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا» والمشركون من صناديد قريش ومن يتبعهم على مالهم من الشوكة والقوّة والعداوة مع النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين لم يتوسّط بينهم منذ سنين إلاّ السيف و لم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر و اُحد والأحزاب، و لم يخرج مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلاّ شرذمة قليلون - ألف و أربعمائة - لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم في عقر دارهم.

لكنّ الله سبحانه قلّب الأمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعا فيه متوقّعاً منهم فسألوا النبيّ صلى الله عليه وآله أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين، و على تأمين كلّ من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به، و على أن يرجع النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة عامه هذا ثمّ يقدم إلى مكّة العام القابل فيخلّوا له المسجد والكعبة ثلاثة أيّام.

و هذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيّه صلى الله عليه وآله و كان من أمسّ الأسباب بفتح مكّة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكّة، و فتح في أوائل سنة سبع خيبر و ما والاه و قوي به المسلمون و اتّسع الإسلام اتّساعاً بيّناً و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بلاداً كثيرة، و خرج النبيّ صلى الله عليه وآله لفتح مكّة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً، و قد كان خرج إلى حديبيّة في ألف و أربعمائة على ما تفصّله الآثار.

و قيل: المراد بالفتح فتح مكّة فالمراد بقوله: «إنّا فتحنا لك» إنّا قضينا لك فتح مكّة، و فيه أنّ القرائن لا تساعده.

و قيل: المراد به فتح خيبر، و معناه ـ على تقدير نزول السورة عند مرجع النبيّ صلى الله عليه وآله من الحديبيّة إلى المدينة ـ إنا قضينا لك فتح خيبر، و حال هذا القول أيضاً كسابقه.

وقيل: المراد به الفتح المعنوي وهو الظفر على الأعداء بالحجج البيّنة والمعجزات الباهرة الّتي غلب بها كلمة الحقّ على الباطل و ظهر الإسلام على الدين كلّه، و هذا الوجه و إن كان في نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه.

قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و يتمّ نعمته عليك و يهديك صراطا مستقيما و ينصرك الله نصرا عزيزا» اللاّم في قوله: «ليغفر» للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أنّ الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر، و من المعلوم أن لا رابطة بين الفتح و بين مغفرة الذنب ولا معنى معقولا لتعليله بالمغفرة.

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال: إنّ اللام المكسورة في «ليغفر» لام القسم

والأصل ليغفرنّ حذفت نون التأكيد وبقي ماقبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال .

و كذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكال : «إنّ العلّة هو مجموع المغفرة وماعطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علّة للفتح» كلام سخيف لايغني طائلا فإنّ مغفرة الذنب لا هي علّة أو جزء علّة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتّى يوجّه دخولها في ضمن علله فلا مصحّح لذكرها وحدها ولا مع العلل و في ضمنها .

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولويّ ، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الّذي له تبعة سيّئة كيفما كان ، والمغفرة هي الستر على الشيء ، وأمّا المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولويّ المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنّما لزماهما بحسب عرف المتشرّعين .

وقيام النبيّ صلى الله عليه وآله بالدعوة و نهضته على الكفر والوثنيّة فيما تقدّم على الهجرة و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفّار والمشركين فيما تأخّر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله ذا تبعة سيّئة عند الكفّار والمشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة و مقدرة ، و ما كانوا لينسوا زهوق ملّتهم و انهدام سنّتهم و طريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه غير أنّ الله سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفتح و هو فتح مكّة أو فتح الحديبيّة المنتهي إلى فتح مكّة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله من الذنب و آمنه منهم .

فالمراد بالذنب ـ والله أعلم ـ التبعة السيّئة الّتي لدعوته صلى الله عليه وآله عند الكفّار والمشركين و هو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربّه : « و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ و ما تقدّم من ذنبه هو ما كان منه صلى الله عليه وآله بمكّة قبل الهجرة ، و

ما تأخّر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، و مغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم ، و يؤيّد ذلك ما يتلوه من قوله : « ويتمّ نعمته عليك ـ إلى أن قال ـ و ينصرك الله نصراً عزيزاً » .

و للمفسّرين في الآية مذاهب مختلفة اُخر :

فمن ذلك أنّ المراد بذنبه صلّى الله عليه وآله وسلّم ما صدر عنه من المعصية ، والمراد بما تقدّم منه و ما تأخّر ما صدر عنه قبل النبوّة و بعدها ، و قيل : ما صدر قبل الفتح و ما صدر بعده .

و فيه أنّه مبنيّ على جواز صدور المعصية عن الأنبياء عليهم السلام وهو خلاف مايقطع به الكتاب والسنّة والعقل من عصمتهم عليهم السلام وقد تقدّم البحث عنه في الجزء الثاني من الكتاب و غيره .

على أنّ إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك أنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر مغفرة ما وقع من معصيته و ما لم يقع بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لئلّا يرد الإشكال بأنّ مغفرة ما لم يتحقّق من المعصية لا معنى له .

و فيه مضافاً إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أنّ مغفرة ما سيقع من المعصية قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكاليف عنه صلّى الله عليه وآله عامّة ، و يدفعه نصّ كلامه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى : « إنّا أنزلنا عليك الكتاب بالحقّ فاعبد الله مخلصاً له الدين » الزمر : ٢ ، و قوله : « و اُمرت أن أكون أوّل المسلمين » الزمر : ١٢ إلى غير ذلك من الآيات الّتي تأبى بسياقها التخصيص .

على أنّ من الذنوب والمعاصي مثل الشرك بالله و افتراء الكذب على الله والاستهزاء بآيات الله والإفساد في الأرض و هتك المحارم ، و إطلاق مغفرة الذنوب يشملها ولا معنى لأن يبعث الله عبداً من عباده فيأمره أن يقيم دينه على ساق و يصلح به الأرض فإذا فتح له و نصره و أظهره على ما يريد يجيز له مخالفة ما أمره و هدم ما بناه وإفساد ما أصلحه بمغفرة كلّ مخالفة و معصية منه والعفو عن كلّ ما تقوّله وافترائه على الله ، و

فعله تبليغ كقوله ، وقد قال تعالى: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين» الحاقّة : ٤٦ .

و من ذلك قول بعضهم : إنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه مغفرة ما تقدّم من ذنب أبويه آدم و حوّاء عليهما السلام ببركته صلى الله عليه وآله والمراد بمغفرة ما تأخّر منه مغفرة ذنوب اُمّته بدعائه .

و فيه ورود ما ورد على ما تقدّم عليه .

و من ذلك أنّ الكلام في معنى التقدير و إن كان في سياق التحقيق والمعنى ليغفر لك الله قديم ذنبك و حديثه لو كان لك ذنب .

و فيه أنّه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل .

و من ذلك أنّ القول خارج مخرج التعظيم و حسن الخطاب والمعنى غفر الله لك كما في قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » التوبة : ٤٣ .

و فيه أنّ العادة جرت في هذا النوع من الخطاب أن يورد بلفظ الدعاء . كما قيل .

و من ذلك أنّ المراد بالذنب في حقّه صلى الله عليه وآله ترك الأولى وهو مخالفة الأوامر الإرشاديّة دون التمرّد عن امتثال التكاليف المولويّة ، والأنبياء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي المعروفة كما قيل : حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين .

و من ذلك ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر مغفرة ما تقدّم من ذنوب اُمّته وما تأخّر منها بشفاعته صلى الله عليه وآله ، ولا ضير في إضافة ذنوب اُمّته صلى الله عليه وآله وسلم إليه للاتّصال والسبب بينه و بين اُمّته .

و هذا الوجه والوجه السابق عليه سليمان عن عامّة الإشكالات لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك ما عن علم الهدى رحمه الله أنّ الذنب مصدر ، والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافا إلى المفعول ، والمراد ما تقدّم من ذنبهم

إليك في منعهم إيّاك من مكّة وصدّهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المغفرة على هذا الازالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يزيل الله تعالى ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة فتدخلها فيما بعد .

و هذا الوجه قريب المأخذ ممّا قدّمناه من الوجه ، ولا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفة لظاهر الآية .

و في قوله : « ليغفر لك الله » الخ بعدقوله : « إنّا فتحنا لك » التفات من التكلّم إلى الغيبة ولعلّ الوجه فيه أنّ محصّل السورة امتنانه تعالى على النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين بما رزق من الفتح و إنزال السكينة و النصر و سائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة و يذكر تعالى فيها باسمه و ينسب إليه النصر بما يعبده نبيّه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون و إنّما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم .

و أمّا سياق التكلّم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الاُولى فلمناسبته ذكر الفتح فيها و يجري الكلام في قوله تعالى الآتي : « إنّا أرسلناك شاهداً » الآية .

وقوله : « ويتمّ نعمته عليك » قيل : أي يتمّها عليك في الدنيا باظهارك على عدوّك وإعلاء أمرك وتمكين دينك ، وفي الآخرة برفع درجتك ، وقيل : أي يتمّها عليك بفتح خيبر ومكّة والطائف .

وقوله : « ويهديك صراطاً مستقيما » قيل : أي ويثبّتك على صراط يؤدّي بسالكه إلى الجنّة ، وقيل : أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود .

وقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كلّ جبّار عنيد وعات مريد وقد فعل بنبيّه صلى الله عليه وآله ذلك إذجعل دينه أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان ، وقيل : المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النصر أو عديمه ونصره تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله كذلك كما يظهر بقياس حاله في أوّل بعثته إلى حاله في آخر أيّام دعوته .

والتدبّر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدّم من معنى قوله : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » يعطي أن يكون المراد بقوله : « ويتمّ نعمته عليك » هو تمهيده تعالى له صلى الله عليه وآله لتمام الكلمة وتصفيته الجوّ لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر .

وبقوله : « ويهديك صراطاً مستقيما » هدايته صلى الله عليه وآله بعد تصفية الجوّ له إلى الطريق الموصل إلى الغاية الّذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتّى انتهى إلى فتح مكّة والطائف .

وبقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » نصره له صلى الله عليه وآله وسلم ذاك النصر الظاهر الباهر الّذي قلمّا يوجد ـ أولا يوجد ـ له نظير إذ فتح له مكّة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذلّ اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها ، وأكمل تعالى للناس دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا .

قوله تعالى : « هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الخ الظاهر أنّ المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به ، و لذا علّل إنزالها فيها بقوله : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » وقد تقدّم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى : « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنّها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى : « وأيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ .

وقيل : السكينة هي الرحمة ، وقيل: العقل ، وقيل: الوقار والعصمة لله ولرسوله وقيل : الميل إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله ، وقيل : ملك يسكن قلب المؤمن ، وقيل : شيء له رأس كرأس الهرّة وهذه أقاويل لا دليل على شيء منها .

والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيرا مّا يعبّر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ . وإنّما عبّر عن الخلق

والإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علوّ مبدئه .

وقيل : المراد بالإنزال الإسكان والإقرار من قولهم : نزل في مكان كذا أي حطّ رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا .

وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه ، ولعلّ الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة « في » إذ قال : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » لكنّه عناية كلاميّة لوحظ فيها تعلّق السكينة بالقلوب تعلّق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلّقها تعلّق الوقوع عليها من علوّ في قوله الآتي : « فأنزل السكينة عليهم » الآية وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية .

والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإنّ الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة ، ومن المعلوم أنّ كلّاً من العلم والالتزام المذكورين ممّا يشتدّ ويضعف فالإيمان الّذي هو العلم المتلبّس بالإلتزام يشتدّ ويضعف .

فمعنى الآية الله الّذي أوجد الثبات والاطمئنان الّذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتدّ به الإيمان الّذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل ممّا كان قبل .

﴿ كلام فى الايمان وازدياده ﴾

الإيمان بالشيء ليس مجرّد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: « إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى » سورة محمّد : ٢٥ ، وقوله: « إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى » سورة محمّد : ٣٢ ، وقوله : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ وقوله : « و أضلّه الله على علم » الجاثية : ٢٣ فالآيات ـ كما ترى ـ تثبت الارتداد و الكفر و الجحود والضلال مع العلم .

فمجرّد العلم بالشيء والجزم بكونه حقّاً لا يكفي في حصول الإيمان واتّصاف

من حصل له به ، بل لابدّ من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤدّاه بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة ولو في الجملة ، فالّذي حصل له العلم بأنّ الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديّته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فلم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبوديّة كان عالما وليس بمؤمن .

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل : إنّ الايمان هو مجرّد العلم والتصديق وذلك لما مرّ أنّ العلم ربّما يجامع الكفر .

ومن هنا يظهر أيضا بطلان ما قيل : إنّ الايمان هو العمل ، وذلك لأنّ العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربّما كان ممّن ظهر له الحقّ ظهوراً علميّاً ولا إيمان له على أيّ حال .

وإذ كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث يترتّب عليه آثاره العمليّة ، وكلّ من العلم والالتزام ممّا يزداد وينقص ويشتدّ ويضعف كان الايمان المؤلّف منهما قابلاً للزيادة والنقيصة والشدّة والضعف فاختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريّات الّتي لا يشكّ فيها قط .

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحقّ ويدلّ عليه من النقل قوله تعالى : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » وغيره من الآيات ، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالّة على أنّ الإيمان ذو مراتب .

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجّوا عليه بأنّ الإيمان اسم للتصديق البالغ حدّ الجزم والقطع وهو ممّا لا يتصوّر فيه الزيادة والنقصان فالمصدّق إذا ضمّ إلى تصديقه الطاعات أوضمّ إليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغيّر أصلا .

وأوّلوا ما دلّ من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأنّ الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدّد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجدّدة يزيد وينقص كوقوعه للنبيّ صلّى الله عليه وآله مثلاً على التوالي من غير فترة متخلّلة وفي غيره بفترات

قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلا أو بفترات قليلة .

وأيضا للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به ، وشرائع الدين لمّا كانت تنزّل تدريجا والمؤمنون يؤمنون بما ينزّل منها وكان يزيد عدد الأحكام حينا بعد حين كان إيمانهم أيضا يزيد تدريجا ، وبالجملة المراد بزيادة الإيمان كثرته عددا .

وهو بيّن الضعف ، أمّا الحجّة ففيها أوّلا أنّ قولهم : الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الّذي معه الالتزام كما تقدّم بيانه اللّهمّ إلّا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام .

و ثانيا أنّ قولهم : إنّ هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب و بناؤه على كون الإيمان عرضا و بقاء الأعراض على نحو تجدّد الأمثال لا ينفعهم شيأ فإنّ من الإيمان ما لا تحرّكه العواصف و منه ما يزول بأدنى سبب يعترض و أوهن شبهة تطرء ، وهذا ممّا لا يعلّل بتجدّد الأمثال و قلّة الفترات و كثرتها بل لا بدّ من استناده إلى قوّة الإيمان و ضعفه سواء قلنا بتجدّد الأمثال أم لا .

مضافا إلى بطلان تجدّد الأمثال على ما بيّن في محله .

و قولهم : إنّ المصدّق إذا ضمّ إليه الطاعات أو ضمّ إليه المعاصي لم يتغيّر حاله أصلاً ممنوع فقوّة الإيمان بمزاولة الطاعات و ضعفها بارتكاب المعاصي ممّا لا ينبغي الارتياب فيه ، و قوّة الأثر وضعفه كاشفة عن قوّة مبدء الأثر وضعفه قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ . و قال : « ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السوآى أن كذّبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤن » الروم : ١٠

و أمّا ما ذكروه من التأويل فأوّل التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان و هو الّذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكروه مؤمنا و كافراً حقيقة و هذا ممّا لا يساعده ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

و أمّا قوله تعالى : « ولا يؤمن أكثرهم بالله إلّا و هم مشركون » يوسف : ١٠٦ فهو إلى الدلالة على كون الإيمان ممّا يزيد و ينقص أقرب منه إلى الدلالة على نفيه فإنّ مدلوله أنّهم مؤمنون في حال أنّهم مشركون فإيمانهم إيمان بالنسبة إلى الشرك المحض و شرك بالنسبة إلى الإيمان المحض ، و هذا معنى قبول الإيمان للزيادة والنقصان .

و ثاني التأويلين تفيد أنّ الزيادة في الإيمان و كثرته إنّما هي بكثرة ما تعلّق به و هو الأحكام والشرائع المنزلة من عند الله فهي صفة للإيمان بحال متعلّقه والسبب في اتّصافه بها هو متعلّقه ،ولو كان هذه الزيادة هي المرادة من قوله : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » كان الأنسب أن تجعل زيادة الإيمان في الآية غاية لتشريع الأحكام الكثيرة و إنزالها لا لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين هذا .

و حمل بعضهم زيادة الإيمان في الآية على زيادة أثره وهو النور المشرق منه على القلب .

و فيه أنّ زيادة الأثر و قوّته فرع زيادة المؤثّر و قوّته فلا معنى لاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر .

و ذكر بعضهم أنّ الإيمان الّذي هو مدخول مع في قوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الإيمان الفطريّ والإيمان المذكور قبله هو الإيمان الاستدلالىّ والمعنى ليزدادوا إيمانا استدلاليّاً على إيمانهم الفطريّ .

و فيه أنّه دعوى من غير دليل يدلّ عليه . على أنّ الإيمان الفطريّ أيضاً استدلاليّ فمتعلّق العلم والإيمان على أيّ حال أمر نظريّ لا بديهيّ .

و قال بعضهم كالإمام الرازيّ : إنّ النزاع في قبول الإيمان للزيادة والنقص و عدم قبوله نزاع لفظيّ فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان و هو التصديق ذلك و هو كذلك لعدم قبوله الزيادة والنقصان ، و مراد المثبتين قبول ما به كمال الإيمان و هو الأعمال للزيادة والنقصان و هو كذلك بلا شكّ .

و فيه أوّلاً أنّ فيه خلطاً بين التصديق والا يمان فالا يمان تصديق مع الالتزام و ليس مجرّد التصديق فقط كما تقدّم بيانه .

و ثانيا أنّ نسبة نفي الزيادة في أصل الا يمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنّما يثبتون الزيادة في أصل الا يمان ، و يرون أنّ كلّا من العلم والالتزام المؤلّف منهما الا يمان يقبل القوّة والضعف .

و ثالثا أنّ إدخال الأعمال في محلّ النزاع غير صحيح لأنّ النزاع في شيء غير النزاع في أثره الّذي به كماله ولا نزاع لأحد في أنّ الأعمال و الطاعات تقبل العدّ و تقلّ و تكثر بحسب تكرّر الواحد .

✡ ✡ ✡

و قوله : « ولله جنود السماوات والأرض » الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا اُطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم ، والسياق يشهد أنّ المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم ممّا يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخلّلة بينه تعالى و بين ما يريده من شيء تطيعه ولا تعصاه .

و إيراد الجملة أعني قوله : « و لله جنود » الخ بعد قوله : « هو الّذي أنزل السكينة » الخ للدلالة على أنّ له جميع الأسباب والعلل الّتي في الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك ، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بانزال السكينة في قلوبهم .

و قوله : « و كان الله عزيزا حكيما » أي منيعا جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله لا يفعل إلّا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليليّ لقوله : « و لله جنود » الخ كما أنّه بيان تعليليّ لقوله : « هو الّذي أنزل السكينة » الخ كأنّه قيل : أنزل السكينة لكذا و له ذلك لأنّ له جميع الجنود والأسباب لأنّه العزيز على الاطلاق والحكيم على الا طلاق .

قوله تعالى: « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار » إلى آخر الآية ، تعليل آخر لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » على المعنى كما أنّ قوله : « ليزدادوا إيماناً » تعليل له بحسب اللفظ كأنّه قيل : خصّ المؤمنين بانزال السكينة و حرّم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم و حقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنّة و يعذّب اُولئك فيكون قوله : « ليدخل » بدلا أو عطف بيان من قوله : « ليزدادوا » الخ .

و في متعلّق لام « ليدخل » الخ أقوال اُخر كالقول بتعلّقها بقوله : « فتحنا » أو قوله : « يزدادوا » أو بجميع ما تقدّم إلى غير ذلك ممّا لا جدوى لايراده .

و ضمّ المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لدفع توهّم اختصاص الجنّة و تكفير السيّآت بالذكور لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد ، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرّح باسم المؤمنات لدفع التوهّم كما قيل .

و ضمير « خالدين » و « يكفّر عنهم سيأتهم » للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على التغليب .

و قوله : « و كان ذلك عند الله فوزاً عظيما » بيان لكون ذلك سعادة حقيقيّة لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحقّ .

قوله تعالى: « و يعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » إلى آخر الآية معطوف على قوله : « يدخل » بالمعنى الّذي تقدّم ، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين و المشركات في الآية لكونهم أضرّ على المسلمين من أهل الشرك ولأنّ عذاب أهل النفاق أشدّ قال تعالى : «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » .

وقوله : « الظانّين بالله ظنّ السوء » السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضمّ اسم مصدر ، وظنّ السوء هو ظنّهم أنّ الله لا ينصر رسوله وقيل : المراد بظنّ السوء ما يعمّ ذلك و سائر ظنونهم السيّئة من الشرك والكفر .

و قوله : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضرّوا بدائرة السوء الّتي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب .

و قوله : « و غضب الله عليهم و لعنهم و أعدّ لهم جهنّم » معطوف على قوله : « عليهم دائرة » الخ ، و قوله : « و ساءت مصيرا » بيان مساءة مصيرهم كما أنّ قوله : « و كان عند الله فوزا عظيما » بيان لحسن مصير أهل الإيمان .

قوله تعالى : « ولله جنود السماوات والأرض » تقدّم معناه والظاهر أنّه بيان تعليليّ للآيتين أعني قوله : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات ـ إلى قوله ـ و أعدّ لهم جهنّم » على حذو ما كان مثله فيما تقدّم بياناً تعليليّاً لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » الخ .

و قيل : إنّ مضمونه متعلّق بالآية الأخيرة فهو تهديد لهم أنّهم في قبضة قدرته فينتقم منهم ، والوجه الأوّل أظهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبينا » حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب نزول هذه الآية و هذا الفتح أنّ الله جلّ و عزّ أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و يحلّق مع المحلّقين فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا .

فلمّا نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة و ساقوا البدن و ساق رسول الله صلى الله عليه وآله ستّة و ستّين بدنة و أحرموا من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة و قد ساق من ساق منهم الهدي معرّات مجلّلات .

فلمّا بلغ قريشا بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كمينا يستقبل رسول الله صلّى الله عليه و آله فكان يعارضه على الجبال فلمّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس فقال خالد بن الوليد : لو كنّا حملنا عليهم و هم في الصلاة لأصبناهم لأنّهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيىء الآن لهم صلاة اُخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم فاذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل

على رسول الله صلى الله عليه وآله بصلاة الخوف في قوله عزّ و جلّ : « فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » الآية .

قال : فلمّا كان في اليوم الثاني نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديبيّة ، و كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستنفر الأعراب في طريقه فلم يتّبعه أحد و يقولون : أيطمع محمّد و أصحابه أن يدخلوا الحرم و قد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم ، إنّه لا يرجع محمّد وأصحابه إلى المدينة أبداً . الحديث .

وفي المجمع : قال ابن عبّاس : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج يريد مكّة فلمّا بلغ الحديبيّة وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر و بركت الناقة فقال أصحابه خلأت الناقة فقال ما هذا لها عادة و لكن حبسها حابس الفيل .

و دعا عمر بن الخطّاب ليرسله إلى أهل مكّة ليأذنوا له بأن يدخل مكّة ويحلّ من عمرته و ينحر هديه فقال : يا رسول الله مالي بها حميم و إنّي أخاف قريشا لشدّة عداوتي إيّاها و لكن أدلّك على رجل هو أعزّ بها منّي عثمان بن عفّان فقال : صدقت .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء زائراً لهذا البيت معظّما لحرمته فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أنّ عثمان قد قتل . فقال صلى الله عليه وآله : لا نبرح حتّى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشجرة واستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا . قال عبدالله بن مغفّل : كنت قائما على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك اليوم وبيدي غصن من السمرة أذبّ عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنّما بايعهم على أن لا يفرّوا .

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسوّر بن مخرمة قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه و آله من المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتّى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وآله الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة و بعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش .

وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عينه الخزاعيّ فقال : إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعا وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادّوك عن البيت فقال صلى الله عليه وآله : روحوا فراحوا حتّى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّ خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين .

فسار حتّى إذا كان بالثنيّة بركت راحلته فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ماخلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل . ثمّ قال : والله لا يسألوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها ثمّ زجرها فوثبت به .

قال : فعدل حتّى نزل بأقصى الحديبيّة على ثمد قليل الماء إنّما يتبرّضه الناس تبرّضاً فشكوا إليه العطش فانتزع سهماً من كنانته ثمّ أمرهم أن يجعلوه في الماء فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ حتّى صدروا عنه .

فبيناهم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعيّ في نفر من خزاعة و كانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل تهامة فقال : إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ ومعهم العون المطافيل وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّا لم نجيء لقتال أحد وإنّا جئنا معتمرين ، وإنّ قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم فإن شاؤا ماددتهم مدّة ويخلّوا بيني و بين الناس ، وإن شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلّا فقد جمّوا وإن أبوا فوالّذي نفسي بيده لأُقاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي أو لينفذ الله تعالى أمره ، فقال بديل : سأُبلّغهم ما تقول .

فانطلق حتّى أتى قريشا فقال : إنّا قدجئناكم من عند هذا الرجل وإنّه يقول : كذا وكذا فقام عروة بن مسعود الثقفيّ فقال : إنّه قدعرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعوني آته فقالوا : ائته فأتاه فجعل يكلّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحواً من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك : أي محمّد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأُخرى فوالله إنّي لأرى وجوهاً وأرى اشابا

من الناس خلقاء أن يفرّوا و يدعوك فقال له أبو بكر : امصص بظر اللاّت أنحن نفرّ عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قال : أبو بكر . قال : أما والّذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

قال : وجعل يكلّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكلّما كلّمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب يده بنعل السيف وقال : أخّر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن لا ترجع إليك ، فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غُدَر أولست أسعى في غدرتك .

قال : وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم . ثمّ جاء فأسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أمّا الإسلام فقد قبلنا وأمّا المال فإنّه مال غدر لا حاجة لنا فيه .

ثمّ إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابتدروا أمره ، و إذا توضّأ ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .

قال : فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشيّ والله إن رأيت ملكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له ، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة . دعوني آته فقالوا : ائته فلمّا أشرف عليهم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها فبعثت له واستقبله القوم يلبّون فلمّا رآى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت .

فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آته فقالوا : ائته فلمّا أشرف عليهم قال النبيّ صلى الله عليه وآله : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فبينما

هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل عليكم أمركم فقال: اكتب بيننا وبينك كتابا.

فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللّهمّ فقال المسلمون: والله لا نكتب إلّا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: اكتب باسمك اللّهمّ هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله فقال سهيل: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمّد بن عبدالله فقال رسول الله ﷺ: إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني ثمّ قال لعليّ امح رسول الله فقال: يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوّة فأخذه رسول الله ﷺ فمحاه.

ثمّ قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو و اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس و يكفّ بعضهم عن بعض و على أنّه من قدم مكّة من أصحاب محمّد حاجّا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله، و من قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه و ماله، و أنّ بيننا (١) عيبة مكفوفة، وأنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد و عهده دخل فيه، و من أحبّ أن يدخل في عقد قريش و عهده دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمّد و عهده، و تواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش و عهدهم.

فقال رسول الله ﷺ: على أن تخلّوا بيننا و بين البيت فنطوف فقال سهيل: والله ما تتحدّث العرب أنّا أُخذنا ضغطة و لكن ذلك من العام المقبل. فكتب فقال سهيل: على أنّه لا يأتيك منّا رجل و إن كان على دينك إلّا رددته إلينا و من جاءنا ممّن معك لم نردّه عليك فقال المسلمون: سبحان الله كيف يردّ إلى المشركين و قدجاء

(١) أى يكون بينناصدر نقى من الغل والخداع.

مسلما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من جاءهم منّا فأبعده الله ، و من جاءنا منهم رددناه إليهم فلو علم الله الا سلام من قلبه جعل له مخرجا .

فقال سهيل : و على أنّك يرجع عنّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكّة فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ولا تدخلها بالسلاح إلّا السيوف في القراب [١] و سلاح الراكب ، و على أنّ هذا الهدي حيث ما حبسناه محلّه لا تقدمه علينا فقال : نحن نسوق و أنتم تردّون .

فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف [٢] في قيوده و قد خرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمّد أوّل ما اُقاضيك عليه أن تردّه فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّا لم نقض بالكتاب بعد . قال : والله إذاً لا اُصالحك على شيء أبدا فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : فأجره لي فقال : ما أنا بمجيره لك قال : بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجرناه ، قال أبو جندل بن سهيل : معاشر المسلمين اُردّ إلى المشركين و قد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت ؟ - و كان قد عذّب عذاباً شديدا - .

فقال عمر بن الخطّاب : والله ماشككت مذ أسلمت إلّا يومئذ فأتيت النبيّ صلى الله عليه وآله فقلت : ألست نبيّ الله ؟ فقال : بلى . قلت : ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلِمَ نعطي الدنيّة في ديننا إذاً ؟ قال : إنّي رسول الله ولست أعصيه و هو ناصري قلت : أولست كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت و نطوف حقّاً ؟ قال : بلى أفأخبرتك أن نأتيه العام ؟ قلت : لا . قال: فإنّك تاتيه وتطوف به فنحر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدنة فدعا بحالقه فحلق شعره ثمّ جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » الآية .

قال محمّد بن إسحاق بن يسار : و حدّثني بريدة بن سفيان عن محمّد بن كعب أنّ

---

(١) القراب جمع قربة بمعنى الغمد .

(٢) رسف رسفا اذامشى مشي المقيد .

كاتب رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الصلح كان عليّ بن أبي طالب فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اكتب « هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو » فجعل عليّ يتلكّأ و يأبى أن يكتب إلّا محمّد، رسول الله فقال رسول الله فإنّ لك مثلها تعطيها و أنت مضطهد فكتب ما قالوا .

ثمّ رجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش و هو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الّذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة فنزلا يأكلان من تمر لهم قال أبو بصير لأحد الرجلين : و إنّي لأرى سيفك جيّدا جدّا فاستلّه فقال : أجل إنّه لجيّد وجرّبت به ثمّ جرّبت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتّى برد و فرّ الآخر حتّى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه لقد رآى هذا ذعرا ، فلمّا انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : قتل والله صاحبي و إنّي لمقتول .

قال : فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد أوفى الله ذمّتك و رددتني إليهم ثمّ أنجاني الله منهم فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ويل امّه مسعر حرب لو كان له أحد ، فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم فخرج حتّى أتى سيف البحر .

و انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلّا لحق بأبي بصير حتّى اجتمعت عليه عصابة . قال : فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام إلّا اعترضوا لها فقتلوهم و أخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تناشده الله والرحم لمّا أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل صلى الله عليه وآله إليهم فأتوه .

و في تفسير القمّيّ في حديث طويل أوردنا صدره في أوّل البحث قال : و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه ـ بعد ما كتب الكتاب ـ انحروا بدنكم و احلقوا رؤسكم فامتنعوا و قالوا :كيف ننحر و نحلق و لم نطف بالبيت و لم نسع بين الصفا والمروة فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و شكا ذلك إلى امّ سلمة فقالت : يا رسول الله انحر أنت و احلق فنحر رسول الله و حلق فنحر القوم على حيث يقين و شكّ و ارتياب .

اقول : و هو مرويّ في روايات اُخر من طرق الشيعة و أهل السنّة . و هذا الذي رواه الطبرسيّ مأخوذ مع تلخيص مّا عمّا رواه البخاريّ و أبو داود و النسائي عن مروان والمسوّر .

و في الدرّ المنثور أخرج البيهقيّ عن عروة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الحديبيّة راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله : والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا و عكف رسول الله بالحديبيّة و ردّ رجلين من المسلمين خرجا .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه و سلّم قول رجال من أصحابه : إنّ هذا ليس بفتح فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بئس الكلام . هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم و يسألوكم القضيّة و يرغبون إليكم في الإياب و قد كرهوا منكم ما كرهوا ، و قد أظفركم الله عليهم و ردّكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح .

أنسيتم يوم اُحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد و أنا أدعوكم في اُخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنّون بالله الظنونا ؟

قال المسلمون : صدق الله و رسوله هو أعظم الفتوح و الله يا نبيّ الله ما فكّرنا فيما فكّرت فيه و لأنت أعلم بالله و بالاُمور منّا فأنزل الله سورة الفتح .

أقول : والأحاديث في قصّة الحديبيّة كثيرة و ما أوردناه طرف منها .

و في تفسير القمّي بإسناده إلى عمر بن يزيد بيّاع السابريّ قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله في كتابه : « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر » قال: ما كان له ذنب ولاهمّ بذنب و لكنّ الله حمّله ذنوب شيعته ثمّ غفر لها .

و في العيون في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال المأمون : يابن رسول الله أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، - إلى أن قال - قال : فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر » .

قال الرضا عليه السلام : لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنبا من رسول الله صلى الله عليه وآله

لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمأة و ستّين صنما فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم و عظم ، و قالوا أجعل الآلهة إلها واحداً إنّ هذا لشيء عجاب ، و انطلق الملأُ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق فلمّا افتح الله على نبيّه صلى الله عليه وآله مكّة قال: يا محمّد إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر عندمشركي مكّة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم ، و خرج بعضهم عن مكّة ، و من بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم . فقال المأمون : لله درّك يا أبا الحسن .

و في تفسير العيّاشيّ عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله « إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم » حتّى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول : و هذا المعنى مرويّ من طرق أهل السنّة أيضاً ، والحديث لا يخلومن شيء لأنّه مبنيّ على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة .

و في الكافي بإسناده إلى جميل قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » قال : الإيمان قال عزّ من قائل : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » .

اقول : ظاهر الرواية أنّه عليه السلام أخذ قوله تعالى في الآية : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » تفسيراً للسكينة ، و في معنى الرواية روايات اُخرى .

و فيه بإسناده عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : مالا يقبل الله شيأ إلّا به . قلت : و ما هو ؟ قال : الإيمان بالله الّذي لا إله إلّا هو أعلى الأعمال درجة و أشرفها منزلة و أسناها حظّا .

قال : قلت : ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو و عمل أم قول بلا عمل ؟ قال : الإيمان عمل كلّه والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه واضح نوره ثابتة

حجّته يشهد له به الكتاب و يدعوه إليه . قال : قلت : صف لي جعلت فداك حتّى أفهمه قال : الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل فمنه التامّ المنتهى تمامه و منه الناقص المبين نقصانه و منه الراجح الزائد رجحانه .

قلت : إنّ الإيمان ليتمّ و ينقص و يزيد ؟ قال : نعم . قلت : كيف ذلك ؟ قال: لأنّ الله تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها و فرّقه فيها فليس من جوارحه جارحة إلّا و قد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به اُختها فمن لقي الله عزّ وجلّ حافظاً لجوارحه موفياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّ وجلّ عليها لقي الله مستكملاً لايمانه وهو من أهل الجنّة ، و من خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها لقي الله عزّ وجلّ ناقص الإيمان .

قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عزّ وجلّ : « و إذا ما اُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيمانا فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيمانا و هم يستبشرون و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم » ، و قال : « نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى » .

و لو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة ، و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله و بالنقصان دخل المفرّطون النار .

☆ ☆ ☆

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠).

﴿ بيان ﴾

فصل ثان من آيات السورة يعرّف سبحانه فيه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم تعريف إكبار وإعظام بأنّه أرسله شاهداً و مبشّراً و نذيرا طاعته طاعة الله و بيعته بيعة الله، و قد كان الفصل الأوّل امتنانا منه تعالى على نبيّه بالفتح والمغفرة و إتمام النعمة و الهداية و النصر وعلى المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم و إدخال الجنّة و وعيد المشركين والمنافقين بالغضب واللعن والنار.

قوله تعالى: « إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً » المراد بشهادته صلى الله عليه وآله وسلم شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أوطالح، و قد تكرّر في كلامه تعالى ذكر شهادته عليه وآله السلام، و تقدّم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة، و هي شهادة حمل في الدنيا، و أداء في الآخرة.

و كونه مبشّرا تبشيره لمن آمن و اتّقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه، وكونه نذيراً إنذاره و تخويفه لمن كفرو تولّى بأليم عذابه.

قوله تعالى: « لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه و تسبّحوه بكرة و أصيلا » القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، و قرء ابن كثيرو أبو عمرو بياء الغيبة في الجميع و قراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق.

و كيف كان فاللام في « لتؤمنوا » للتعليل أي أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله .

والتعزيز - على ما قيل - النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى : « مالكم لا ترجون لله وقارا » نوح : ١٣ والظاهر أنّ الضمائر في « تعزّروه و توقّروه وتسبّحوه » جميعاً لله تعالى والمعنى إنّا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظّموه و يسبّحوه - و هو الصلاة - بكرة و أصيلا أي غداة و عشيّا .

وقيل : الضميران في « تعزّروه وتوقّروه » للرسول صلى الله عليه وآله ، وضمير « تسبّحوه » لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتّسقة .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » إلى آخر الآية . البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات : وبايع السلطان إذا تضمّن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى ، والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنّهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنّهم كانوا يمثّلون بذلك نقل الملك بنقل التصرّفات الّتي يتحقّق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق ، وبذلك سمّي التصفيق عند بذل الطاعة بيعة ومبايعة ، وحقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلا ليعمل به ما يشاء .

فقوله : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله » تنزيل بيعته صلى الله عليه وآله وسلم منزلة بيعته تعالى بدعوى أنّها هي فما يواجهونه صلى الله عليه وآله وسلم به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلّا الله سبحانه لأنّ طاعته طاعة الله ثمّ قرّره زيادة تقرير وتأكيد بقوله : « يدالله فوق أيديهم » حيث جعل يده صلى الله عليه وآله وسلم يدالله كماجعل رميه صلى الله عليه وآله رمي نفسه في قوله : « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » الأنفال : ١٧ .

وفي نسبة ماله صلى الله عليه وآله وسلم من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى : « ومن يطع الرسول فقدأطاع الله » النساء : ٨ ، وقوله : « فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون » الأنعام : ٣٣ ، وقوله : « ليس لك من الأمر شيء »

آل عمران : ١٢٨ .

وقوله : « فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه » النكث نقض العهد والبيعة ، والجملة تفريع على قوله : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله » والمعنى فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرّر بذلك إلّا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلّا نفسه لأنّ الله غنيّ عن العالمين .

وقوله : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به .

والآية لا تخلو من إيماء إلى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس .

وللمفسّرين في قوله : « يد الله فوق أيديهم » أقوال اُخر .

فقيل: إنّه من الاستعارة التخييليّة والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ماتقدّمه وتقرير أنّ مبايعة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كمبايعة الله من غير تفاوت فخيّل أنّه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فاُثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول صلّى الله عليه وآله مكان يد الرسول وفيه أنّه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيّل على وجه هو منزّه عنه .

وقيل : المراد باليد القوّة والنصرة أي قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم .

وفيه أنّ المقام مقام إعظام بيعة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأنّ مبايعتهم له مبايعة لله ،والوثوق بالله و نصرته و إن كان حسناً في كلّ حال لكنّه أجنبيّ عن المقام .

و قيل : المراد باليد العطيّة والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة ، وقيل : نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه الّتي أوردوها ولا طائل تحتها .

﴿بحث روائی﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن عديّ وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لمّا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية « و تعزّروه » قال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : ما ذاك ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم . قال : لتنصروه .

و في العيون بإسناده عن عبد الله بن صالح الهرويّ قال : قلت لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام : يابن رسول الله ما تقول في الحديث الّذي يرويه أهل الحديث : أنّ المؤمنين يزورون ربّهم من منازلهم في الجنّة ؟ فقال : يا أبا الصلت إنّ الله تعالى فضّل نبيّه محمّداً على جميع خلقه من النبيّين والملائكة ، وجعل طاعته طاعته ، و مبايعته مبايعته و زيارته في الدنيا والآخرة زيارته فقال عزّ وجلّ : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » و قال : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » و قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من زارني في حياتى أو بعد موتي فقد زار الله .

و درجته في الجنّة أعلى الدرجات ، و من زاره في درجته في الجنّة من منزله فقد زار الله تبارك و تعالى .

و في إرشاد المفيد في حديث بيعة الرضا عليه السلام قال : و جلس المأمون و وضع للرضا عليه السلام وسادتين عظيمتين حتّى لحق بمجلسه و فرشه ، و أجلس الرضا عليه السلام في الحضرة و عليه عمامة و سيف . ثمّ أمر ابنه العبّاس بن المأمون أن يبايع له في أوّل الناس فرفع الرضا عليه السلام يده فتلقّى بها وجهه و ببطنها وجوههم فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة فقال الرضا عليه السلام : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا كان يبايع فبايعه الناس و يده فوق أيديهم .

☆ ☆ ☆

سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا
فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم
من الله شيأ ان أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون
خبيراً (١١) بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً و
زين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء و كنتم قوماً بوراً (١٢) ومن لم
يؤمن بالله و رسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيراً (١٣) و لله ملك
السموات والارض يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و كان الله غفوراً
رحيماً (١٤) سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها
ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم
قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا
قليلاً (١٥) قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي بأس
شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً و
ان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً (١٦) ليس
على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج و
من يطع الله و رسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار و من
يتول يعذبه عذاباً أليماً (١٧).

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات متعرّض لحال الأعراب الّذين قعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفرة الحديبيّة ولم ينفروا إذا استنفرهم و هم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة و مزينة و غفار و أشجع و أسلم و دئل فتخلّفوا عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و لم يصاحبوه قائلين : إنّ محمّداً و من معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلا ذريعا ، و إنّهم لن يرجعوا من هذه السفرة و لن ينقلبوا إلى ديارهم و أهليهم أبدا .

فأخبر الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآيات أنّهم سيلقونك و يعتلّون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين و يسألونك أن تستغفر الله لهم ، و كذّبهم الله فيما قالوا و ذكر أنّ السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنّهم السوء ، و أخبر أنّهم سيسألونك اللحوق وليس لهم ذلك غير أنّهم سيُدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل و إن تولّوا فأليم العذاب .

قوله تعالى : « سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا» إلى آخر الآية قال في المجمع : المخلّف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد ، و هو مشتقّ من الخلف و ضدّه المقدّم . انتهى والأعراب على ما قالوا - الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة ، و هو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

و قوله : « سيقول لك المخلّفون من الأعراب » إخبار عمّا سيأتي من قولهم للنبيّ صلى الله عليه وآله ، و في اللفظ دلالة مّا على نزول الآيات في رجوعه صلى الله عليه وآله من الحديبيّة إلى المدينة و لمّا يردها .

و قوله : « شغلتنا أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا » أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا و أهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا

ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلّفنا عنك ، و في سؤال الاستغفار دليل على أنّهم كانوا يرون التخلّف ذنبا فتعلّقهم بأنّه شغلتهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب .

و قوله : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أنّ الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين ، ولا أنّهم يهتمّون باستغفاره صلى الله عليه وآله ، و إنّما سألوه ليكون ذلك جنّة يصرفون بها العتاب و التوبيخ عن أنفسهم .

و قوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيأ إن أراد بكم ضرّا أو أراد بكم نفعا » جواب حلّي عمّا اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصّله أنّ الله سبحانه له الخلق والأمر و هو المالك المدبّر لكلّ شيء لا ربّ سواه فلا ضرّ ولا نفع إلّا بإرادته و مشيّته فلا يملك أحد منه تعالى شيأ حتّى يقهره على ترك الضرّ أو فعل الخير إن أراد الضرّ أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير ، و إذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله نصرةً للدين و اشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيأ لا يدفع الضرّ إن أراد الله بكم ضرّا ولا يعين على جلب الخير ولا يعجّله إن أراد بكم خيرا .

فقوله : « قل فمن يملك لكم » الخ جواب عن تعلّلهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه ، ملخّصه أنّ تعلّقكم في دفع الضرّ و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيأ في ضرّ أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا » .

والتمسّك بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعاً ماموراً به لكنّه فيما لا يعارض ما هو أهمّ منه كالدفاع عن الحقّ و إن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللّهمّ إلّا إذا تعقّب خطرا قطعيّا لا أثر معه للدفاع والسعي .

و قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيرا » تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم : « شغلتنا أموالنا و أهلونا » .

قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً و زيّن ذلك في قلوبكم » الخ بيان لما يشير إليه قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيرا» من كذبهم في اعتذارهم ، والمعنى ما تخلّفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أنّ الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدا و أنّ الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة و لذلك تخلّفتم .

و قوله : « و زيّن ذلك في قلوبكم » أي زيّن الشيطان ذلك الظنّ في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظنّ المزيّن و هو أن تتخلّفوا و لا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا .

و قوله : « و ظننتم ظنّ السوء و كنتم قوما بورا » البور - على ما قيل - مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك اُريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين .

قيل : المراد بظنّ السوء ظنّهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ولا يبعد أن يكون المراد به ظنّهم أنّ الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مرّ في قوله في الآية السادسة من السورة : « الظانّين بالله ظنّ السوء » بل هو أظهر .

قوله تعالى : « و من لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيرا » الجمع في هذه الآيات بين الإيمان بالله و رسوله للدلالة على أنّ الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله ، و في الآية لحن تهديد .

و قوله : « فإنّا أعتدنا للكافرين سعيرا » كان مقتضى الظاهر أن يقال : أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علّة الحكم بتعليقه على المشتقّ والمعنى أعتدنا و هيّأنا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعّرة مشتعلة ، و تنكير سعيرا للتهويل .

قوله تعالى : « و لله ملك السماوات و الأرض يغفر لمن يشاء و يعذّب من يشاء و كان الله غفورا رحيما » معنى الآية ظاهر و فيها تاييد لما تقدّم ، و في تذييل الملك المطلق بالإسمين : الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب و حثّ على الاستغفار و الاسترحام .

قوله تعالى : « سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم » إلى آخر الآية إخبار عن أنّ المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلّفون أن يتركوهم يتّبعونهم طمعاً في الغنيمة ، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنون إليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصّها الله تعالى بمن كان مع النبيّ صلّى الله عليه وآله في سفرة الحديبيّة لم يشرك معهم غيرهم .

والمعنى أنّكم ستنطلقون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلّفون: اتركونا نتّبعكم .

وقوله : « يريدون أن يبدّلوا كلام الله » قيل : المراد به وعده تعالى أهل الحديبيّة أن يخصّهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيئ من قوله : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه » الآية ، ويشير إليه في هذه الآية بقوله : « إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » .

وقوله : « قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل » أمر منه تعالى للنبيّ صلّى الله عليه وآله أن يمنعهم عن اتّباعهم استناداً إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتّباع .

وقوله : « فسيقولون بل تحسدوننا » أي سيقول المخلّفون بعد ما منعوا عمّا سألوه من الاتّباع : « بل تحسدوننا » وقوله : « بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلا » جواب عن قولهم : « بل تحسدوننا » لم يوجّه الخطاب إليهم أنفسهم لأنّ المدّعى أنّهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجّه الخطاب بالجواب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال : « بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلا » .

وذلك أنّ قولهم : « بل تحسدوننا » إضراب عن قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لهم بأمر الله: « لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل » فمعنى قولهم إنّ منعنا من الاتّباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنّما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبيّة أن نشارككم في الغنائم وتريدون أن تختصّ بكم .

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله صلّى الله عليه وآله المعصوم الّذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلّا بأمر من الله اللّهمّ إلّا أن يكون من بساطة العقل وبلادة

الفهم فهذا القول الّذي واجهوا به النبيّ صلى الله عليه وآله وهم مدّعون للإيمان والإسلام أوّل دليل على ضعف تعقّلهم وقلّة فقههم .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بعدم فقههم إلّا قليلا بساطة عقلهم وضعف فقههم للقول لا أنّهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أنّ بعضهم يفقه القول وجلّهم لا يفقهونه كما فسّره به بعضهم .

قوله تعالى : « قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اُولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » الخ اختلفوا في هذا القوم من هم ؟ فقيل : المراد به هوازن ، وقيل : ثقيف ، وقيل : هوازن و ثقيف ، وقيل : هم الروم في غزاة موتة وتبوك ، وقيل: هم أهل الردّة قاتلهم أبوبكر بعد الرحلة ، وقيل: هم الفارس ، وقيل : أعراب الفارس وأكرادهم .

وظاهر قوله : « ستدعون » أنّهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبيّ صلى الله عليه وآله بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف والروم في موتة ، وقوله تعالى سابقاً : « قل لن تتّبعونا » ناظر إلى نفي اتّباعهم في غزوة خيبر على ما يفيده السياق .

وقوله : « تقاتلونهم أو يسلمون » استئناف يدلّ على التنويع أي إمّا تقاتلون أو يسلمون أي أنّهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إمّا أن يقاتلوا أو يسلموا .

ولا يصحّ أخذ « تقاتلونهم » صفة لقوم لأنّهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال قوم يقاتلونهم ، وكذا لا يصحّ أخذه حالا من نائب فاعل « ستدعون » لأنّهم يدعون إلى قتال القوم لا أنّهم يدعون إليهم حال قتالهم ، كذا قيل .

ثمّ تمّم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال : «فإن تطيعوا» أي بالخروج إليهم « يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولّوا » أي بالمعصية وعدم الخروج « كما تولّيتم من قبل » ولم تخرجوا في سفرة الحديبيّة « يعذّبكم عذابا أليما » أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معا .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج .

ثم تمم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما » .

✩ ✩ ✩

لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما
فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً (١٨) ومغانم
كثيرة ياخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً (١٩) وعدكم الله مغانم
كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم و لتكون
آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً (٢٠) و اخرى لم تقدروا
عليها قد احاط الله بها و كان الله على كل شىء قديراً (٢١) و
لو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون ولياً ولا
نصيراً (٢٢) سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله
تبديلاً (٢٣) و هو الذى كف ايديهم عنكم و ايديكم عنهم ببطن
مكة من بعد ان اظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيراً (٢٤)
هم الذين كفروا و صدوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفاً
ان يبلغ محله و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم
ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من
يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً اليماً (٢٥) اذ جعل
الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته

عَلى رَسُولِه وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۲۶) لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا وَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷) هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللهِ شَهِيداً (۲۸).

﴿بيان﴾

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممّن كان مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في خروجه إلى الحديبيّة فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبيّ صلّى الله عليه وآله تحت الشجرة ثمّ يمتنّ عليهم بإنزال السكينة و إثابة فتح قريب و مغانم كثيرة يأخذونها.

و يخبرهم ـ و هو بشرى ـ أنّ المشركين لو قاتلوهم لانهزموا و ولّوا الأدبار و أنّ الرؤيا الّتي رآها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤسهم لا يخافون فإنّه تعالى أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه و لو كره المشركون.

قوله تعالى: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» الرضا هيئة تطرء على النفس من تلقّي ما يلائمها و تقبله من غير دفع، ويقابله السخط، و إذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة والجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

والرضا - كما قيل - يستعمل متعدّيا إلى المفعول بنفسه و متعدّيا بعن ومتعدّيا بالباء فإذا عدّي بنفسه جازدخوله على الذات نحورضيت زيدا وعلى المعنى نحورضيت أمارة زيد قال تعالى: « و رضيت لكم الإسلام دينا » المائدة ٣ و إذا عدّي بعن دخل على الذات كقوله: « رضي الله عنهم و رضوا عنه » البينة: ٨ و إذا عدّي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ».

ولمّا كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء ، والجزاء إنّما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات و عدّي بعن كما في الآية « لقد رضي الله عن المؤمنين » نوع عناية استدعى عدّ الرضا و هو متعلّق بالعمل متعلّقا بالذات و هو أخذ بيعتهم التي هي متعلّقة الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلّا أن يكون الرضا متعلّقا بهم أنفسهم.

فقوله: « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له صلى الله عليه وآله تحت الشجرة.

و قد كانت البيعة يوم الحديبيّة تحت شجرة سمرة بها بايعه صلى الله عليه وآله من معه من المؤمنين و قد ظهر به أنّ الظرف في قوله: «إذ يبايعونك» متعلّق بقوله: « لقد رضي » واللّام للقسم.

قوله تعالى: « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً » تفريع على قوله: « لقد رضي الله » الخ والمراد بما في قلوبهم حسن النيّة و صدقها في مبايعتهم فإنّ العمل إنّما يكون مرضيّا عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النيّة و إخلاصها.

فالمعنى فعلم ما في قلوبهم من صدق النيّة و إخلاصها في مبايعتهم لك.

و قيل: المراد بما في قلوبهم الإيمان و صحّته و حبّ الدين والحرص عليه ، و قيل: الهمّ والأنفة من لين الجانب للمشركين و صلحهم. والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى.

فإن قلت: المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيّتهم الصادقة المخلصة

في المبايعة كما ذكر ، و علمه تعالى بنيّتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرّع عليه رضاه تعالى عنهم لامسبّب متفرّع على الرضا ، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال : لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية .

قلت : كما أنّ للمسبّب تفرّعا على السبب من حيث التحقّق والوجود كذلك للسبب - سواء كان تامّا أو ناقصا - تفرّع على المسبّب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدّم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح و ما يثيب به و يجزي صاحب العمل ، والّذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم و إنزاله السكينة عليهم و إثابتهم فتحا قريبا و مغانم كثيرة يأخذونها .

فقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » الخ تفرّع على قوله : «لقد رضي الله عن المؤمنين » للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الاُمور الّتي بتحقّقها يتحقّق معنى الرضا .

ثمّ قوله : « فأنزل السكينة عليهم متفرّع على قوله : « فعلم ما في قلوبهم » و كذا ما عطف عليه من قوله : « و أثابهم فتحا قريبا » الخ .

و المراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق و كذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها ، غنائم خيبر ، و قيل : المراد بالفتح القريب فتح مكّة ، والسياق لا يساعد عليه .

و قوله : « و كان الله عزيزا حكيما » أي غالبا فيما أراد متقناً لفعله غير مجازف فيه .

قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه » الخ المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم الّتي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبيّة أعمّ من مغانم خيبر و غيرها فتكون الاشارة بقوله : « فعجّل لكم هذه » إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة و هي مغانم خيبر نزّلت منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها .

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة ، وأمّا على ما قيل : إنّ الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الاشارة في قوله : فعجّل لكم هذه » ظاهر لكنّ المعروف نزول السورة

بتمامها في مرجع النبي صلّى الله عليه وآله من الحديبيّة بينها و بين المدينة .

و قيل : الإشارة بهذه إلى البيعة الّتي بايعوها تحت الشجرة و هو كما ترى .

و قوله : « و كفّ أيدي الناس عنكم » قيل : المراد بالناس قبيلتا أسد وغطفان همّوا بعد مسير النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينة فقذف الله في قلوبهم الرعب و كفّ أيديهم .

و قيل : المراد مالك بن عوف و عيينة بن حصين مع بني أسد و غطفان جاؤا لنصرة يهود خيبر فقذف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا ، و قيل : المراد بالناس أهل مكّة و من والاها حيث لم يقاتلوه صلّى الله عليه وآله وسلّم و رضوا بالصلح .

و قوله : « و لتكون آية للمؤمنين » عطف على مقدّر أي وعدهم الله بهذه الإثابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجّلة والمؤجّلة لمصالح كذا و كذا ولتكون آية للمؤمنين أي علامة و أمارة تدلّهم على أنّهم على الحقّ و أنّ ربّهم صادق في وعده و نبيّهم صلّى الله عليه وآله صادق في إنبائه .

و قد اشتملت السورة على عدّة من أنباء الغيب فيها هدى للمتّقين كقوله : « سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا » الخ ، و قوله : « سيقول المخلّفون إذا انطلقتم » الخ ، و قوله : « قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون » الخ ، و ما في هذه الآيات من وعد الفتح والمغانم ، و قوله بعد : « و اُخرى لم تقدروا عليها » الخ ، و قوله بعد : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » الخ .

و قوله : « و يهديكم صراطا مستقيما » عطف على « تكون » أي وليهديكم صراطا مستقيما و هو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحقّ و بسط الدين ، و قيل : هو الثقة بالله والتوكّل عليه في كلّ ما تأتون و تذرون ، وما ذكرناه أوفق للسياق .

قوله تعالى : « و اُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كلّ شيء قديرا » أي و غنائم اُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة و كان الله على كلّ شيء قديرا .

فقوله : « اُخرى » مبتدء و « لم تقدروا عليها » صفته و قوله : « قد أحاط الله

بها » خبره الثاني و خبره الأوّل محذوف و تقدير الكلام و ثمّت غنائم اُخرى قد أحاط الله بها .

و قيل : قوله : « اُخرى » في موضع نصب بالعطف على قوله : « هذه » والتقدير وعجّل لكم غنائم اُخرى ، وقيل : في موضع نصب بفعل محذوف والتقدير و قضى غنائم اُخرى ، و قيل : في موضع جرّ بتقدير ربّ والتقدير و ربّ غنائم اُخرى ، و هذه وجوه لا يخلو شيء منها من وهن .

والمراد بالاُخرى في الآية على ما قيل غنائم هوازن ، و قيل : المراد غنائم فارس والروم ، و قيل : المراد فتح مكّة والموصوف محذوف والتقدير وقرية اُخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها ، و أوّل الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « ولو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لا يجدون وليّاً ولا نصيرا » خبر آخر ينبّئهم الله سبحانه ضعف الكفّار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم وليّ يتولّى أمرهم ولا نصير ينصرهم ، ويتخلّص في أنّهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم ، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين .

قوله تعالى : « سنّة الله الّتي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا » « سنّة الله » مفعول مطلق لفعل مقدّر أي سنّ سنّة الله أي هذه سنّة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيّاتهم على أعدائهم من الّذين كفروا ولن تجد لسنّة الله تبديلا كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » المجادلة : ٢١ . ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلّا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة .

قوله تعالى : « وهو الّذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم » الخ الظاهر أنّ المراد بكفّ أيدي كلّ من الطائفتين عن الاُخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبيّة وهي ببطن مكّة لقربها منها واتّصالها بها حتّى قيل إنّ بعض أراضيها من الحرم وذلك أنّ كلّاً من الفئتين كانت أعدى عدوّ للاُخرى وقد اهتمّت قريش بجمع الجموع من أنفسهم ومن الأحابيش ، وبايع

المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا ، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم ، وقد أظفر الله النبي والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيرا .

قوله تعالى : « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله » العكوف على أمر هو الاقامة عليه والمعكوف - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب إلى جهة بالاقامة في مكانه ومنه الاعتكاف وهو الاقامة في المسجد للعبادة .

والمعنى المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي - الذي سقتموه - حال كونه محبوسا من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى ، وقد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هديا لذلك .

قوله تعالى : « ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم » فتصيبكم منهم معرة بغير علم » الوطء الدوس ، والمعرة المكروه ، وقوله : « أن تطؤهم » بدل اشتمال من مدخول لولا ، وجواب لولا محذوف والتقدير ما كف أيديكم عنهم .

والمعنى ولولا أن تدوسوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم .

وقوله : « ليدخل الله في رحمته من يشاء » اللام متعلق بمحذوف والتقدير ولكن كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته اُولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من إصابة المعرة .

وقيل : المعنى ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح .

وقوله : « لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذابا أليما » التزيّل التفرّق وضمير « تزيّلوا » لجميع من تقدّم ذكره من المؤمنين والكفّار من أهل مكّة أي لو تفرّقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفّار لعذّبنا الّذين كفروا من أهل مكّة عذاباً أليما لكن لم نعذّبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين .

قوله تعالى : « إن جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة » **إلى** آخر الآية قال الراغب : وعبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت بالحميّة فيقال : حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى : « حميّة الجاهليّة » وعن ذلك استعير قولهم : حميت المكان حمى انتهى .

والظرف في قوله : « إن جعل » متعلّق بقوله سابقا : « وصدّوكم » وقيل : متعلّق بقوله : « لعذّبنا » وقيل : متعلّق باُذكر المقدّر ، والجعل بمعنى الإلقاء و « الّذين كفروا » فاعله والحميّة مفعوله و « حميّة الجاهليّة » بيان للحميّة والجاهليّة وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملّة الجاهليّة .

ولو كان « جعل » بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدّرا والتقدير إن جعل الّذين كفروا الحميّة راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « جعل الّذين كفروا » للدلالة على سبب الحكم .

ومعنى الآية هم الّذين كفروا وصدّوكم إن ألقوا في قلوبهم الحميّة حميّة الملّة الجاهليّة .

وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » تفريع على قوله : « جعل الّذين كفروا » ويفيد نوعا من المقابلة كأنه قيل : جعلوا في قلوبهم الحميّة فقابله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنّت قلوبهم ولم يستخفّهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزّهم الجهالة .

وقوله : « وألزمهم كلمة التقوى » أي جعلها معهم لا تنفكّ عنهم ، وهي على ما اختاره جمهور المفسّرين كلمة التوحيد وقيل : المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل : المراد بها السكينة وقيل : قولهم : بلى في عالم الذرّ ، و هو أسخف الأقوال .

و لا يبعدأن يراد بها روح الإيمان الّتي تأمر بالتقوى كما قال تعالى: «اُولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيّدهم بروح منه» المجادلة: ٢٢ وقد أطلق الله الكلمةعلى الروح في قوله: «و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه» النساء: ١٧١.

و قوله: «و كانوا أحقّ بها و أهلها» أمّا كونهم أحقّ بها فلتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطيّة الإلهيّة بما عملوا من الصالحات فهم أحقّ بها من غيرهم، و أمّا كونهم أهلها فلأنّهم مختصّون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصّته.

و قيل: المراد وكانوا أحقّ بالسكينة و أهلها، و قيل: إنّ في الكلام تقديماً و تأخيراً و الأصل و كانوا أهلها و أحقّ بها و هو كما ترى.

و قوله: «و كان الله بكلّ شيء عليما» تذييل لقوله: «وكانوا أحقّ بها وأهلها» أو لجميع ما تقدّم، والمعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لا تخافون» الخ قيل: إنّ صدق و كذب مخفّفين يتعدّيان إلى مفعولين يقال: صدقت زيداً الحديث و كذبته الحديث، و إلى المفعول الثاني بفي يقال: صدقته في الحديث و كذبته فيه، و مثقّلين يتعدّيان إلى مفعول واحد يقال: صدّقته في حديثه و كذّبته في حديثه.

و اللام في «لقد صدق الله» للقسم، و قوله: «لتدخلنّ المسجد الحرام» جواب القسم.

و قوله: «بالحقّ» حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسة، و التعليق بالمشيّة في قوله: «إن شاءالله» لتعليم العباد والمعنى اُقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا الّتي أراه لتدخلنّ أيّها المؤمنون المسجد الحرام إن شاءالله حالكونكم آمنين من شرّ المشركين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لا تخافون المشركين.

و قوله: «فعلم ما لم تعلموا و جعل من دون ذلك فتحا قريبا» «ذلك» إشارة إلى ما تقدّم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، و المرادبقوله: «من دون ذلك»أقرب من ذلك و المعنى فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه

و لم تعلموه ، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسّر لكم الدخول كذلك .

و من هنا يظهر أنّ المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبيّة فهوالّذي سوّى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين و يسّر لهم ذلك و لو لا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلّا بالقتال وسفك الدماء و لاعمرة مع ذلك لكن صلح الحديبيّة و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل .

و من هنا تعرف أن قول بعضهم : إنّ المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق ، و أمّا القول بأنّه فتح مكّة فأبعد .

و سياق الآية يعطي أنّ المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبيّ صلّى الله عليه وآله فانّ المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبيّ صلّى الله عليه وآله من دخولهم المسجد آمنين محلّقين رؤسهم و مقصّرين ، أنّهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلمّا خرجوا قاصدين مكّة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبيّة وصدّوهم عن المسجد الحرام إرتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية .

و محصّله أنّ الرؤيا حقّة أراها الله نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و قد صدق تعالى في ذلك ، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لا تخافون لكنّه تعالى أخّره و قدّم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبيّة ليتيسّر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنّه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لاتخافون إلّا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه » الخ تقدّم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣ ، و قوله : « و كفى بالله شهيدا » أي شاهداً على صدق نبوّته والوعد أنّ دينه سيظهر على الدين كلّه أو على أنّ رؤياه صادقة فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى: « لقد رضي الله عن المؤمنين » الآية أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى: « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » فبايع لعثمان إحدى يديه على الأُخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفّان يطوف بالبيت و نحن ههنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو مكث كذا و كذا سنة ما طاف حتّى أطوف.

و فيه أخرج عبد بن حميد و مسلم وابن مردويه عن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة و النبيّ صلى الله عليه وآله يبايع الناس و أنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه و نحن أربع عشرة مائة و لم نبايعه على الموت و لكن بايعناه على أن لا نفرّ.

أقول: كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مرويّ في روايات أُخرى، و في بعض الروايات ألف و ثلاثمائة و في بعضها إلى ألف وثمان مائة، و كذا كون البيعة على أن لا يفرّوا و في بعضها على الموت.

و فيه أخرج أحمد عن جابر و مسلم عن أُمّ بشر عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: لا يدخل النار أحد ممّن بايع تحت الشجرة.

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى: « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » قال: إنّما أُنزلت السكينة على من علم منه الوفاء.

أقول: والرواية تخصّص ما تقدّم عليها و يدلّ عليه قوله تعالى فيما تقدّم « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » فاشترط في الأجر - ويلازمه الاشتراط في الرضا - الوفاء و عدم النكث، و قد أورد القمّيّ هذا المعنى في تفسيره و كأنّه رواية.

و في الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : « إذ جعل الّذين كفروا » الآية أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري و مسلم والنسائي وابن جرير والطبراني و ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنّه قال يوم صفّين : اتّهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبيّة نرجيء الصلح الّذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا .

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق و هم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنّة و قتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطي الدنيّة في ديننا ؟ و نرجع و لمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ قال : يا ابن الخطّاب إنّي رسول الله ولن يضيّعني الله أبدا .

فرجع متغيّظا فلم يصبر حتّى جاء أبابكر فقال : يا أبابكر ألسنا على الحق و هم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنّة و قتلاهم في النار ؟ قال : بلى قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطّاب إنّه رسول الله و لن يضيّعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إيّاها فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم .

و في كمال الدين بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذابا أليما » قال : لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين و ما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذّبنا الّذين كفروا .

أقول : و هذا المعنى مرويّ في روايات اُخر .

و في الكافي باسناده عن جميل قال : سألت أباعبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : هو الإيمان .

وفي الدرّ المنثور أخرج الترمذيّ و عبد الله بن أحمد في زوائد المسند و ابن جرير والدارقطني في الأفراد و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء والصفات عن اُبيّ ابن كعب عن النبيّ ﷺ « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : لا إله إلّا الله .

أقول : و روى هذا المعنى أيضا بطرق اُخرى عن عليّ و سلمة بن الأكوع و أبي هريرة ، و روي أيضاً من طرق الشيعة كما في العلل بإسناده عن الحسن بن عبدالله عن آبائه عن جدّه الحسن بن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث يفسّر فيه «سبحان الله والحمد لله ولاإله إلّا الله والله أكبر» قال صلى الله عليه وآله : وقوله : لا إله إلّاالله يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلّا بها ، و هي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة .

و في المجمع في قصّة فتح خيبر قال : و لمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة من الحديبيّة مكث بها عشرين ليلة ثمّ خرج منها غادياً إلى خيبر .

ذكر ابن إسحاق بإسناده إلي أبي مروان الأسلميّ عن أبيه عن جدّه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر حتّى إذا كنّا قريبا منها و أشرفنا عليها قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قفوا فوقف الناس فقال اللّهمّ ربّ السماوات السبع و ما أظللن و ربّ الأرضين السبع و ما أقللن و ربّ الشياطين و ما أضللن إنّا نسألك خير هذه القرية و خير أهلها و خير ما فيها ونعوذ بك من شرّ هذه القرية و شرّ أهلها و شرّ ما فيها . اقدموا بسم الله .

و عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك و كان عامر رجلاً شاعراً فجعل يقول :

لاهمّ لو لا أنت ما حجينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا و ثبّت الأقدام إن لاقينا
و أنزلن سكينة علينا إنّا إذا صيح بنا أتينا
و بالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر . قال : يرحمه الله . قال عمر وهوعلى جمل له وجب [1] : يا رسول الله لولا أمتعتنا به ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) وجب البعير أعيي ، و وجب برك و ضرب بنفسه الارض .

ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد .

قالوا : فلما جد الحرب وتصاف القوم خرج يهودي و هو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر و هو يقول :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهودي في ترس عامر و كان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه .

قال سلمة : فإذا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : بطل عمل عامر قتل نفسه . قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم و أنا أبكي فقلت: قالوا : إن عامراً بطل عمله فقال: من قال ذلك ؟ قلت : نفر من أصحابك ، فقال : كذب اُولئك بل اُوتي من الأجر مرتين .

قال : فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا ، و ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى اللواء عمر بن الخطاب و نهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر و أصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبنه أصحابه ويجبنهم ، و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فقال حين أفاق من وجعه : ما فعل الناس بخيبر ؟ فاُخبر فقال : لاُعطين الراية غداً رجلاً يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله كراراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

و روى البخاري و مسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبدالرحمان الإسكندراني عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لاُعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله و رسوله ويحبه الله ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون بجملتهم أنهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجون أن يعطاها .

فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه . قال :

فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فبرء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال عليّ : يا رسول الله أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم ثمّ ادعهم إلى الإسلام و أخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

قال سلمة : فبرز مرحب و هو يقول : قد علمت خيبر أنّي مرحب الأبيات فبرز له عليّ و هو يقول :

أنا الّذي سمّتني أمّي حيدره كليث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحبا ففلق رأسه فقتله و كان الفتح على يده .

أورده مسلم في صحيحه .

و روى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول عليّ باب الحصن فتترّس به عن نفسه فلم يزل في يده و هو يقاتل حتّى فتح الله عليه ثمّ ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلّب ذلك الباب فما استطعنا أن نقلّبه .

و بإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمّد بن عليّ قال : حدّثني جابر ابن عبد الله أنّ عليّا حمل الباب يوم خيبر حتّى صعد المسلمون عليه فافتحموها ، وأنّه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا .

قال : و روي من وجه آخر عن جابر : ثمّ اجتمع عليه سبعون رجلا فكان جهدهم أن أعادوا الباب .

و بإسناده عن عبد الرحمان بن أبي ليلى قال : كان عليّ يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشوّ الثخين وما يبالي الحرّ فأتاني أصحابي فقالوا : إنّا رأينا من أمير المؤمنين شيأ فهل رأيت ؟ فقلت : وما هو ؟ قالوا : رأيناه يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء

المحشو الثخين و ما يبالي الحرّ، و يخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين و ما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيأ؟ فقلت: لافقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك فإنّه يسمر معه فسألته فقال: ما سمعت في ذلك شيأ.

فدخل على عليّ فسمر معه ثمّ سأله عن ذلك فقال: أو ما شهدت خيبر؟ قلت: بلى. قال: أفما رأيت رسول الله حين دعا أبابكر فعقد له ثمّ بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم ثمّ جاء بالناس و قد هزم ثمّ بعث إلى عمر فعقد له ثمّ بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم فقاتلهم ثمّ رجع و قد هزم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأعطينّ الراية اليوم رجلا يحبّ الله و رسوله ويحبّه الله و رسوله يفتح الله على يديه كرّاراً غير فرّار فدعاني و أعطاني الراية ثمّ قال: اللّهمّ اكفه الحرّ والبرد فما وجدت بعد ذلك حرّاً ولا برداً، و هذا كلّه منقول من كتاب دلائل النبوّة للإمام أبي بكر البيهقيّ.

قال الطبرسيّ: ثمّ لم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله يفتح الحصون حصناً حصناً و يحوز الأموال حتّى انتهوا إلى حصن الوطيح والسلالم و كان آخر حصون خيبر افتتح، و حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بضع عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق: و لمّا افتتح القموص حصن أبي الحقيق اُتي رسول الله صلى الله عليه وآله بصفيّة بنت حييّ بن أخطب و باُخرى معها فمرّ بهما بلال ـ و هو الّذي جاء بهما ـ على قتلى من قتلى يهود فلمّا رأتهم الّتي معها صفيّة صاحت و صكّت وجهها و حثت التراب على رأسها فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اعزبوا عنّي هذه الشيطانة، وأمر بصفيّة فحيزت خلفه و ألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنّه قد اصطفاها لنفسه، وقال لبلال لمارآى من تلك اليهوديّة مارآى: أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟

وكانت صفيّة قد رأت في المنام ـ وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ـ أنّ قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلّا أنّك تتمنّين

ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمة اخضرّت عينها منها فاُتي بها رسول الله صلى الله عليه وآله وبها أثر منها فسألها رسول الله صلى الله عليه وآله ما هو ؟ فأخبرته .

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنزل فاُكلّمك ؟ قال : نعم . فنزل وصالح رسول الله صلى الله عليه وآله على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرّيّة لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلّون بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين ما كان لهم من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع(١) والحلفة وعلى البزّ إلّا ثوباً على ظهر إنسان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فبرئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله إن كتمتموني شيأ فصالحوه على ذلك .

فلمّا سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن يسيّرهم ويحقن دماءهم ويخلّون بينه وبين الأموال ففعل وكان ممّن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبينهم في ذلك محيّصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعاملهم الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على النصف على أنّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فيئا بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنّهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

ولمّا اطمأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصليّة ، وقد سألت أيّ عضو أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها السمّ وسمّت سائر الشاة ثمّ جاءت بها فلمّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظما فانتهش منه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ارفعوا أيديكم فإنّ

(١) الكراع بضم الكاف مطلق الماشية والحلفة بالكسر فالسكون الاثاث والبز الثوب .

كتف هذه الشاة يخبرني أنّها مسمومة ثمّ دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان نبيّاً فسيخبر وإن كان ملكا استرحت منه فتجاوز عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومات بشر بن البراء من أكلته الّتي أكل .

قال : ودخلت اُمّ بشر بن البراء على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوده في مرضه الّذي توفّي فيه فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا اُمّ بشر ما زالت اُكلة خيبر الّتي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ، وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوّة .

✡ ✡ ✡

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرٰيةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩).

﴿ بيان ﴾

الآية خاتمة السورة تصف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتصف الّذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعدا جميلا ، وللآية اتّصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنّه أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ .

قوله تعالى : « محمّد رسول الله » إلى آخر الآية الظاهر أنّه مبتدء وخبر فهو كلام تامّ ، وقيل : « محمّد » خبر مبتدء محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير هو محمّد ، « ورسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل ، وقيل : « محمّد » مبتدء و « رسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل و « الّذين معه » معطوف على المبتدء و « أشدّاء على الكفّار » الخ خبر المبتدء .

وقوله : « والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم » مبتدء وخبر فالكلام مسوق لتوصيف الّذين معه والشدّة والرحمة المذكورتان من نعوتهم .

وتعقيب قوله : « أشدّاء على الكفّار » بقوله : « رحماء بينهم » لدفع ما يمكن أن يتوهّم أنّ كونهم أشدّاء على الكفّار يستوجب بعض الشدّة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله : « رحماء بينهم » وأفادت الجملتان أنّ سيرتهم مع الكفّار الشدّة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة .

وقوله : « تراهم ركّعاً سجّداً » الركّع والسجّد جمعا راكع وساجد ، والمراد بكونهم ركّعاً سجّداً إقامتهم للصلاة ، و « تراهم » يفيد الاستمرار والمحصّل أنّهم مستمرّون على الصلاة ، والجملة خبر بعد خبر للّذين معه .

وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضوانا » الابتغاء الطلب ، والفضل العطيّة وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان الأنسب أن تكون حالاً من ضمير المفعول في « تراهم » وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقا كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للّذين معه .

وقوله : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » السيما العلامة و « سيماهم في وجوههم » مبتدء وخبر و « من أثر السجود » حال من الضمير المستكنّ في الخبر أو بيان للسيما أي إنّ سجودهم لله تذلّلا وتخشّعا أثّر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنّه السهر في الصلاة (١) .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنّهم كانوا إنّما يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وقيل : المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً .

---

(١) رواه الصدوق فى الفقيه والمفيد فى روضة الواعظين مرسلا عن عبدالله بن سنان عنه عليه السلام .

و قوله : « ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الا نجيل » المثل هو الصفة أي الّذي وصفناهم به من أنّهم أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم الخ وصفهم الّذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والا نجيل .

فقوله : « و مثلهم في الا نجيل » معطوف على قوله : « مثلهم في التوراة » و قيل: إنّ قوله : « و مثلهم في الا نجيل» الخ استئناف منقطع عمّا قبله ، وهو مبتدء خبره قوله: « كزرع أخرج شطأه الخ فيكون وصفهم في التوراة هو أنّهم أشدّاء على الكفّار إلى قوله : « من أثر السجود » ، و وصفهم في الا نجيل هو أنّهم كزرع أخرج شطأه الخ .

و قوله : «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع» شطؤ النبات أفراخه الّتي تتولّد منه و تنبت حوله ، والا يزار الا عانة ، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة ، والسوق جمع ساق ، والزرّاع جمع زارع .

والمعنى هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزارعين بجودة رشده .

وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدّة والقوّة يوماً فيوماً و لذلك عقّبه بقوله : « ليغيظ بهم الكفّار » .

و قوله : « وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجراً عظيما » ضمير « منهم » للّذين معه ، و « من » للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالا يمان حدوثا و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الّذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى: « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم » التوبة: ١٠١ أو آمن أوّلاً ثمّ أشرك و كفر كما في قوله : « إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى - إلى أن قال - و لو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » سورة محمّد : ٣٠ .

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الا فك (١) و آية التبيّن في

---

(١) فمن اهل الافك من هو صحابى بدرى وقد قال تعالى : « ان الذين يرمون ←

نبأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم .

ونظير هذا الاشتراط ماتقدّم في قوله تعالى : «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » ، و يؤيّده أيضا ما فهمه ابن عبّاس من قوله تعالى : « فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » حيث فسّره بقوله : إنّما اُنزلت السكينة على من علم منه الوفاء ، و قد تقدّمت الرواية .

و نظير الآية أيضا في الاشتراط قوله تعالى : « وعدالله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ـ إلى أن قال ـ و من كفر بعد ذلك فاُولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ .

و قيل : إنّ « من » في الآية بيانيّة لا تبعيضيّة فتفيد شمول الوعد لجميع الّذين معه .

و هو مدفوع ـ كما قيل ـ بأنّ « من » البيانيّة لا تدخل على الضمير مطلقا في كلامهم ، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى : « لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم » مبنيّ على إرجاع ضمير « تزيّلوا » إلى المؤمنين و ضمير « منهم » للّذين كفروا ، وقد تقدّم في تفسير الآية أنّ الضميرين جميعاً راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكّة فتكون « من » تبعيضيّة لا بيانيّة .

و بعد ذلك كلّه لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولا مطلقا من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح و كانوا مغفورين ـ آمنوا أو أشركوا و أصلحوا أو فسقوا ـ لزمته لزوماً بيّناً لغويّة جميع التكاليف الدينيّة في حقّهم و ارتفاعها عنهم و هذا ممّا يدفعه الكتاب والسنّة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه و إن لم يتعرّض له في اللفظ ، و قد قال تعالى في أنبيائه : « و لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »

← المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم » النور : ٢٣ و من نزل فيه : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الحجرات : ٦ و هو الوليد بن عقبة صحابى و قدسماه الله فاسقا وقد قال تعالى ؛ فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦.

الأنعام : ٨٨ فأثبته في أنبيائه و هم معصومون فكيف فيمن هو دونهم .

فان قيل : اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح اشتراط عقليّ كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله : « وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم » يشهد باتّصافهم بالإيمان و عمل الصالحات و أنّهم واجدون للشرط .

و خاصّة بالنظر إلى تأخير « منهم » عن قوله : « الّذين آمنوا و عملوا الصالحات » حيث يدلّ على أنّ عمل الصالحات لا ينفكّ عنهم بخلاف قوله في آية النور : « وعدالله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم » النور : ٥٥ كما ذكره بعضهم ، و يؤيّده أيضاً قوله في مدحهم «تراهم ركّعا سجّداً يبتغون فضلا من الله و رضوانا » حيث يدلّ على الاستمرار .

قلنا : أمّا تأخير « منهم » في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفكّ عنهم بل لأنّ موضوع الحكم هو مجموع « الّذين آمنوا وعملوا الصالحات » ولا يترتّب على مجرّد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثمّ قوله : « منهم » متعلّق بمجموع الموضوع فمن حقّه أن يذكر بعد تمام الموضوع و هو « الّذين آمنوا و عملوا الصالحات » ، و أمّا تقدّم الضمير في قوله : « وعدالله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم » فلأنّه مسوق سوق البشرى للمؤمنين والأنسب لها التسريع في خطاب من بشّر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقّي البشرى .

و أمّا دلالة قوله : « تراهم ركّعا سجّدا » الخ على الاستمرار فإنّما يدلّ عليه في ما مضى إلى ينتهي إلى الحال ، و أمّا في المستقبل فلا و مصبّ إشكال لغويّة الأحكام إنّما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفرة الذنوب الماضية لا تزاحم تعلّق التكليف بل تؤكّده بخلاف تعلّق المغفرة المطلقة بما سيأتي فإنّه لا يجامع بقاء التكليف المولويّ على اعتباره فيرتفع بذلك التكاليف و هو مقطوع البطلان . على أنّ ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصية و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها .

﴿ سورة الحجرات مدنيّة و هي ثمان عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَىِ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللهَ انَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يٰا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (٢)
انَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ اُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) انَّ الَّذِينَ يُنٰادُونَكَ
مِنْ وَرٰاءِ الْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (٤) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى
تَخْرُجَ الَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا انْ جٰاءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَاءٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهٰالَةٍ
فَتُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِينَ (٦) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ
لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ الَيْكُمُ الْايمٰانَ
وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ الَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيٰانَ اُولٰئِكَ
هُمُ الرّٰاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ نِعْمَةً وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)
وَ انْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا فَانْ بَغَتْ احْدٰيهُمٰا
عَلَى الْأُخْرىٰ فَقٰاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّٰى تَفِيىءَ الِىٰ أَمْرِ اللهِ فَانْ فٰاءَتْ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا اِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) اِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠).

﴿ بيان ﴾

تتضمّن السورة مسائل من شرائع الدين بهاتتمّ الحياة السعيدة للفرد و يستقرّ النظام الصالح الطيّب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه و مع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة ، و منها ما يتعلّق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيويّ ، و منها ما يتعلّق بتفاضل الأفراد و هو من أهمّ ما ينتظم به الاجتماع المدنيّ و يهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيّب الهنيىء و يتميّز به دين الحقّ من غيره من السنن الاجتماعيّة القانونيّة و غيرها و تختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام و امتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان .

والسورة مدنيّة بشهادة مضامين آياتها سوى ما قيل في قوله تعالى : « يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و اُنثى» الآية و سيجيء .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله و رسوله واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم » بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازيّ أواستعاريّ و إضافته إلى الله و رسوله معاً لا إلى الرسول دليل على أنّه أمر مشترك بينه تعالى و بين رسوله و هو مقام الحكم الّذي يختصّ بالله سبحانه و برسوله بإذنه كما قال تعالى: « إن الحكم إلّا لله » يوسف : ٤٠ ، و قال : « و ما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله» النساء : ٦٤ .

و من الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله : « يا أيّها الّذين آمنوا » و تذييله بقوله : « و اتّقوا الله إنّ الله سميع عليم » الظاهر في أنّ المراد بما بين يدي الله ورسوله

هو المقام الّذي يربط المؤمنين المتّقين بالله و رسوله و هو مقام الحكم الّذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقاديّة والعمليّة .

و بذلك يظهر أنّ المراد بقوله : « لا تقدّموا » تقديم شيء مّا من الحكم قبال حكم الله و رسوله إمّا بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله و رسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقّوا الأمر به من الله ورسوله لكن تذييله تعالى النهي بقوله : « إنّ الله سميع عليم » يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعمّ الشامل للقول والفعل و إلّا لقيل : إنّ الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول و بالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله : « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ ، فمحصّل المعنى أن لا تحكموا فيما لله و لرسوله فيه حكم إلّا بعد حكم الله و رسوله أي لا تحكموا إلّا بحكم الله و رسوله و لتكن عليكم سمة الاتّباع والاقتفاء .

لكن بالنظر إلى أنّ كلّ فعل وترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه وكذلك العزم والإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال والتروك وكذا إرادتها والعزم عليها في حكم الاتّباع ، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله ، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقّي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفة الملائكة : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

وهذا الاتّباع المندوب إليه بقوله : « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبوديّة والسير في مسيرها بجعل العبد مشيّته تابعة لمشيّة الله في مرحلة التشريع كما أنّها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى : « وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله » الإنسان : ٢٠ ، وقال : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « والله وليّ المتّقين » الجاثية : ١٩ .

وللقوم في قوله تعالى : « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » وجوه :

منها : أنّ التقديم بمعنى التقدّم فهو لازم ومعنى « لا تقدّموا بين يدي الله

ورسوله » لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ، وربّما قيل : إنّ التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنّه مستعمل بالإعراض عن متعلّقاته كقوله : « يحيي ويميت » الحديد : ٢ فيؤل المعنى إلى مجرّد كون شيء قدّام شيء فيرجع إلى معنى التقدّم .

واللفظ مطلق يشمل التقدّم في قول أو فعل حتّى التقدّم على النبيّ صلى الله عليه وآله في المشية والجلسة ، والتقدّم بالطاعات الموقّتة قبل وقتها وغير ذلك .

ومنها : أنّ المراد النهي عن التكلّم قبل رسول الله صلى الله عليه وآله أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب هو أوّلا .

ومنها أنّ المعنى لا تسبقوه بقول أو فعل حتّى يأمركم به .

ومنها أنّ المعنى لا تقدّموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبيّ صلى الله عليه وآله وفعله ولا تمكّنوا أحدا يمشي أمامه .

والظاهر أنّ تفسير « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبنيّ على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشريف كقوله : أعجبني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أنّ السبقة على النبيّ صلى الله عليه وآله على أيّ حال في معنى السبقة على الله سبحانه .

ولعلّ التأمّل فيما قدّمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه .

وقوله : « واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم » أمر بالتقوى في موقف الاتّباع والعبوديّة ولا ظرف للإنسان إلّا ظرف العبوديّة ولذلك أطلق التقوى .

وفي قوله : « إنّ الله سميع عليم » تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتّقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدّموا قولا بلسانكم ولا في سرّكم لأنّ الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلانيتكم وسرّكم .

قوله تعالى : « يا أيها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ »

الخ وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه صلى الله عليه وآله أرفع من صوته وأجهر لأنّ في ذلك كما قيل أحد شيئين إمّا نوع استخفاف به وهو الكفر ، وإمّا إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به .

وقوله : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » فإنّ من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلّم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامّة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة .

وقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » أي لئلّا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم ، وهو متعلّق بالنهيين جميعا أي إنّما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإنّ فيهما الحبط ، وقد تقدّم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب .

وجوّز بعضهم كون « أن تحبط » الخ تعليلاً للمنهيّ عنه وهو الرفع والجهر والمعنى فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهيّ عنه ، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهيّ عنه أنّ الفعل المنهيّ عنه معلّل على الأوّل والفعل المعلّل منهيّ عنه على الثاني ، وفيه تكلّف ظاهر .

وظاهر الآية أنّ رفع الصوت فوق صوت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط .

وقد توجّه الآية بأنّ المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما في الكفر قال في مجمع البيان : وقال أصحابنا : إنّ المعنى في قوله : « أن تحبط أعمالكم » أنّه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنّهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره لاستحقّوا الثواب فلمّا أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقّوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلّق لأهل الوعيد بهذه الآية .

ولأنّه تعالى علّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلّقونه بالمستحقّ على العمل وذلك خلاف الظاهر . انتهى .

و فيه أنّ الحبط المتعلّق بالكفر الّذي لاريب في تعلّقه بثواب الأعمال أيضا متعلّق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على، ما حملت عليه ذلك من غير فرق ، و كونه خلاف الظاهر ممنوع فإنّ بطلان العمل بطلان أثره المترتّب عليه .

و قد توجّه الآية أيضا بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأنّ رفع الصوت فوق صوت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و الجهر له بالقول ليسا بمحبطين من حيث أنفسهما بل من حيث إدّائهما أحيانا إلى إيذائه صلّى الله عليه وآله وسلّم و إيذاؤه كفر و الكفر محبط للعمل .

قال بعضهم : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقا و معلوم أنّ ملاكه التحذّر ممّا يتوقّع فيه من إيذاء النبيّ صلّى الله عليه وآله الّذي هو كفر محبط للعمل بالاتّفاق . فورد النهي عمّا هو مظنّة أذاه - سواء وجد هذا المعنى أولا - حماية للحرمة وحسما للمادّة .

ثمّ لمّا كان هذا المنهيّ عنه منقسماً إلى ما يبلغ حدّ الكفر و هو الموذي له عليه الصلاة و السلام و إلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ، و لا دليل يميّز أحد القسمين من الآخر و لو فرض وجوده لم يلتفت إليه في كثير من الأحيان ، لزم المكلّف أن يكفّ عن ذلك مطلقا مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل و هو البالغ حدّ الأذى .

و إلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى : « أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون » و إلّا فلو كان رفع الصوت و الجهر بالقول منهيّا عنهما مطلقا سواء بلغا حدّ الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى : « و أنتم لا تشعرون » إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغاً حدّ الأذى فيكون كفراً محبطاً قطعاً أو غير بالغ فيكون أيضاً ذنباً محبطاً قطعاً فالإحباط محقّق على أيّ تقدير فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور مع أنّ الشعور ثابت مطلقاً للعلم به بعد النهي انتهى ملخّصا .

و فيه أنّ ظهور قوله : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » في النهي النفسيّ دون النهي المقدّمي أخذا بالاحتياط ممّا لا ريب فيه لكنّ كلّاً من الفعلين ممّا يدرك كونه عملا سيّئا عقلا قبل ورود النهي الشرعيّ عنه كالافتراء و الإفك ، و كان الّذين يأتون بهما المؤمنين كما صدّر النهي بقوله : « يا

أيّها الّذين آمنوا» وهم و إن أمكن أن يسامحوا في بعض السيّآت بحسبانه هيّنا لكنّهم لا يرضون ببطلان إيمانهم و أعمالهم الصالحة من أصله .

فنبّه سبحانه بقوله : «أن تحبط أعمالكم و أنتم لاتشعرون» على أنّكم لاتشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنّما هو إحباط الأعمال فلاتقربوا شيأ منهما أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون .

فقوله : «و أنتم لاتشعرون» ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيّئة لكنّهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحدّ ، وأمّا بعد صدور البيان الإلهيّ فهم شاعرون بالإحباط .

فالآية من وجه نظيرة قوله تعالى في آيات الإفك : «و تحسبونه هيّناً و هوعند الله عظيم» النور : ١٥ ، و قوله في آيات القيامة : «و بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» الزمر : ٤٧ .

قوله تعالى : «إنّ الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله اُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» الغضّ الصوت خلاف رفعه ، ومعنى الامتحان الابتلاء و الاختبار و إنّما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك ، و إذ يستحيل ذلك في حقّه تعالى فالمراد به هنا التمرين و التعويد ـ كما قيل ـ أو حمل المحنة و المشقّة على القلب ليعتاد بالتقوى .

و الآية مسوقة للوعد الجميل على غضّ الصوت عند رسول الله صلّى الله عليه وآله بعد توصيفهم بأنّ قلوبهم ممتحنة للتقوى و الّذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه ، و فيه تأكيد و تقوية لمضمون الآية السابقة و تشويق للانتهاء بما فيها من النهي .

و في التعبير عنه صلّى الله عليه وآله في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبيّ إشارة إلى ملاك الحكم فإنّ الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فماله فلمرسله ، و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسله و توقير له فغضّ الصوت عند رسول الله تعظيم و تكبير لله سبحانه ، والمداومة والاستمرار على ذلك ـ كما يستفاد من قوله : «يغضّون» المفيد للاستمرار ـ كاشف عن تخلّقهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى .

و قوله : « لهم مغفرة و أجر عظيم » وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله ، و العاقبة للتقوى .

قوله تعالى : « إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » سياق الآية يؤدّي أنّه واقع و أنّهم كانوا قوما من الجفاة ينادونه صلّى الله عليه وآله من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمّهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنّهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان .

قوله تعالى : « و لو أنّهم صبروا حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » أي ولو أنّهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لما فيه من حسن الأدب و رعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة ، و كان ذلك مقرّباً لهم إلى مغفرة الله و رحمته لأنّه غفور رحيم .

فقوله : « والله غفور رحيم » كالناظر إلى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظراً إلى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى أنّ ما صدر عنهم من الجهالة و سوء الأدب معفوّ عنه لأنّه لم يكن عن تعقّل و فهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا » الخ الفاسق - كما قيل - الخارج عن الطاعة إلى المعصية ، والنبأ الخبر العظيم الشأن ، والتبيّن والاستبانة والإبانة - على ما في الصحاح - بمعنى واحد وهي تتعدّى ولا تتعدّى فإذا تعدّت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال : تبيّنت الأمر و استبنته و أبنته أي أوضحته و أظهرته ، و إذا لزمت كانت بمعنى الاتّضاح والظهور يقال : أبان الأمر و استبان و تبيّن أي اتّضح و ظهر .

و معنى الآية يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبيّنوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوما بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم .

و قد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر و هو من الأصول العقلائيّة الّتي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة ، و أمر بالتبيّن في خبر

الفاسق و هو في معنى النهي عن العمل بخبره ، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجّيّته و هذا أيضاً كالإمضاء لما بني عليه العقلاء من عدم حجّيّة الخبر الّذي لا يوثق بمن يخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره .

بيان ذلك أنّ حياة الإنسان حياة علميّة يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشرّ والنافع والضارّ والرأي الّذي يأخذ به فيه ، ولا يتيسّر له ذلك إلّا فيما هو بمرأى منه و مشهد ، و ما غاب عنه ممّا تتعلّق به حياته و معاشه أكثر ممّا يحضره و أكثر فاضطرّ إلى تتميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر ، ولا طريق إليه إلّا السمع و هو الخبر .

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملا و معاملة مضمونه معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة ممّا يتوقّف عليه حياة الإنسان الاجتماعيّة توقّفاً ابتدائيّاً ، و عليه بناء العقلاء و مدار العمل .

فالخبر إن كان متواترا أو محفوفا بقرائن قطعيّة توجب قطعيّة مضمونه كان حجّة معتبرة من غير توقّف فيها فإن لم يكن متواترا ولا محفوفا بما يفيد قطعيّة مضمونه و هو المسمّى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه و إن لم يفده بحسب شخصه ، وكلّ ذلك لأنّهم لا يعملون إلّا بما يرونه علما و هو العلم الحقيقيّ أو الوثوق والظنّ الاطمئنانيّ المعدود علماً عادة .

إذا تمهّد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبيّن في خبر الفاسق : « أن تصيبوا قوماً بجهالة » الخ يفيد أنّ المأمور به هو رفع الجهالة و حصول العلم بمضمون الخبر عند ما يراد العمل به و ترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء و نفي ما نفوه في هذا الباب ، و هو إمضاء لا تأسيس .

قوله تعالى : « و اعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » الخ العنت الإثم والهلاك ، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما اُمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربّما يعكس الأمر فيسمّى جري المتبوع على ما يريده التابع و يهواه طاعة من المتبوع للتابع و منه قوله

تعالى في الآية : « لو يطيعكم » حيث سمّى عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعة منه لهم

والآية على ما يفيده السياق من تتمّة الكلام في الآية السابقة تعمّم ما فيهامن الحكم و تؤكّد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبيّن في خبر الفاسق و تعليله بوجوب التحرّز عن بناء العمل على الجهالة ، و مضمون هذه الاية تنبيه المؤمنين على أنّ الله سبحانه أوردهم شرع الرشد و لذلك حبّب إليهم الايمان و زيّنه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفروالفسوق والعصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أنّ فيهم رسول الله و هو مؤيّد من عند الله و علي بيّنة من ربّه لا يسلك إلّا سبيل الرشد دون الغيّ فعليهم أن يطيعوا الرسول صلى الله عليه وآله فيما يأمرهم به و يريدوا ما أراده و يختاروا ما اختاره ، ولا يصرّ وا على أن يطيعهم في آرائهم و أهوائهم فانّه لو يطيعهم في كثيرمن الأمر جهدوا وهلكوا .

فقوله : « و اعلموا أنّ فيكم رسول الله » عطف على قوله في الآية السابقة : « فتبيّنوا » وتقديم الخبر للدلالة على الحصر ، والاشارة إلى ماهو لازمه فا نّ اختصاصهم بكون رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم لازمه أن يتعلّقوا بالرشد ويتجنّبوا الغيّ و يرجعوا الاُمور إليه و يطيعوه و يتّبعوا أثره ولا يتعلّقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم .

فالمعنى ولا تنسوا أنّ فيكم رسول الله ، و هو كناية عن أنّه يجب عليهم أن يرجعوا الاُمور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غيرأن يتّبعوا أهواء أنفسهم .

و قوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » أي جهدتم و هلكتم ، والجملة كالجواب لسؤال مقدّر كأنّ سائلا يسأل فيقول : لما ذا نرجع إليه ولا يرجع إلينا ولا يوافقنا ؟ فاُجيب بأنّه « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » .

وقوله : « ولكنّ الله حبّب إليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم » استدراك عمّا يدلّ عليه الجملة السابقة : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » من أنّهم مشرفون بالطبع على الهلاك والغيّ فاستدرك أنّ الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب

الإيمان و تكريه الكفر والفسوق والعصيان .

والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم و بتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلّقون به و يعرضون عمّا يلهيهم عنه .

وقوله : « وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان » عطف على «حبّب» وتكريه الكفروما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفّر عنها نفوسهم ، والفرق بين الفسوق والعصيان ـ على ماقيل ـ أنّ الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية ، والعصيان نفس المعصية و إن شئت فقل : جميع المعاصي ، و قيل : المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي .

و قوله : « اُولئك هم الراشدون » بيان أنّ حبّ الإيمان والانجذاب إليه و كراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الّذي يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفّر عن الغيّ الّذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنّبوا الكفر والفسوق والعصيان حتّى يرشدوا و يتّبعو الرسول ولا يتّبعوا أهواءهم .

ولمّا كان حبّ الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآية السابقة ، وقدوصف بذلك جماعتهم تحفّظا على وحدتهم وتشويقا لمن لم يتّصف بذلك منهم غيّر السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : « اُولئك هم الراشدون » والإشارة إلى من اتّصف بحبّ الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، ليكون مدحاً للمتّصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم .

واعلم أنّ في قوله : « واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم » إشعاراً بأنّ قوماً من المؤمنين كانوا مصرّين على قبول نبإ الفاسق الّذي تشير إليه الآية السابقة ، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلمّا رآهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّهم ارتدّوا فعزم النبيّ صلّى الله عليه وآله على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم . وسيجيء القصّة في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : « فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » تعليل لما تقدّم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إنّ ذلك منه تعالى مجرّد عطيّة ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلاً جزافيّاً فإنّه تعالى عليم بمورد عطيّته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال : « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها وكان الله بكلّ شيء عليماً » الفتح :٢٦ .

قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى آخر الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق ، ورجوع ضمير الجمع في « اقتتلوا » إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإنّ كلاًّ من الطائفتين جماعة ومجموعهما جماعة كما أنّ رجوع ضمير التثنية إليهما باعتبار المعنى .

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين : أنّهم أوّلاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أوّلاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميّزون متفارقون فلذا ثنّى الضمير .

وقوله : « فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا الّتي تبغي حتّى تفيىء إلى أمر الله » البغي الظلم والتعدّي بغير حقّ ، والفيىء الرجوع ، والمراد بأمر الله ما أمر به الله ، والمعنى فإن تعدّت إحدى الطائفتين على الأُخرى بغير حقّ فقاتلوا الطائفة المتعدّية حتّى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه .

وقوله : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل » أي فإن رجعت الطائفة المتعدّية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبّساً بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدّت به المتعدّية من دم أو عرض أو مال أو أيّ حقّ آخر ضيّعته .

وقوله : « وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين » الإقساط إعطاء كلّ ما يستحقّه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله : « وأقسطوا » على قوله : « أصلحوا بينهما بالعدل » من عطف المطلق على المقيّد للتأكيد ، وقوله : « إنّ الله يحبّ المقسطين » تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنّه قيل : أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائما وفي

جميع الأُمور لأنّ الله يحبّ العادلين لعدالتهم .

قوله تعالى : « إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » استئناف مؤكّد لما تقدّم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأُخوّة مقدّمة ممهّدة لتعليل ما في قوله : « فأصلحوا بين أخويكم » من حكم الصلح فيفيد أنّ الطائفتين المتقاتلتين لوجود الأُخوّة بينهما يجب أن يستقرّ بينهما الصلح ، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما .

وقوله : « فأصلحوا بين أخويكم » ولم يقل : فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أنّ المتقاتلتين بينهما أُخوّة فمن الواجب أن يستقرّ بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما .

وقوله : « واتّقوا الله لعلّكم ترحمون » موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعا .

كلام فى معنى الاخوة

واعلم أنّ قوله : « إنّما المؤمنون إخوة » جعل تشريعيّ لنسبة الأُخوّة بين المؤمنين لها آثار شرعيّة وحقوق مجعولة ، وقد تقدّم في بعض المباحث المتقدّمة أنّ من الأُبوّة والبنوّة والأُخوّة وسائر أنواع القرابة ما هو اعتباريّ مجعول يعتبره الشرائع والقوانين لترتيب آثار خاصّة عليه كالوراثة والإنفاق وحرمة الازدواج وغير ذلك ، ومنها ما هو طبيعيّ بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما .

والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربّما يجتمعان كالأخوين المتولّدين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع ، وربّما يختلفان كالولد الطبيعيّ المتولّد من زنا فإنّه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعيّاً ، وكالدعيّ الّذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعيّ .

واعتبار المعنى الاعتباريّ وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأسا لهم ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى البدن فيدبّر أمر المجتمع ويحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن .

لكن لمّا كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعاً للمصلحة فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبّت عليه جميعاً وإن اقتضت بعضها كان المترتّب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض كما أنّ القراءة مثلا جزء من الصلاة والجزء الحقيقيّ ينتفي بانتفائه الكلّ مطلقا لكنّ القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً و إنّما تبطل الصلاة إذا تركت عمداً .

و لذلك أيضاً ربّما اختلفت آثار معنى اعتباريّ بحسب الموارد المختلفة كجزئيّة الركوع حيث تبطل الصلاة بزيادته و نقيصته عمداً و سهواً بخلاف جزئيّة القراءة كما تقدّم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتّبة على معنى اعتباريّ بحسب الموارد المختلفة لكن لا تترتّب الآثار الاعتباريّة إلّا على موضوع اعتباريّ كالإنسان يتصرّف في ماله لكن لا بما أنّه إنسان بل بما أنّه مالك والأخ يرث أخاه في الإسلام لا لأنّه أخ طبيعيّ يشارك الميّت في الوالد أو الوالدة أو فيهما ـ فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعيّ ـ بل يرثه لأنّه أخ في الشريعة الإسلاميّة .

والاُخوّة من هذا القبيل فمنها اُخوّة طبيعيّة لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتراك إنسانين في أب أو اُمّ أوفيهما ، و منها اُخوّة اعتباريّة لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام اُخوّة نسبيّة لها آثار في النكاح والإرث ، و اُخوّة رضاعيّة لها آثار في النكاح دون الارث و اُخوّة دينيّة لها آثار اجتماعيّة ولا أثر لها في النكاح والإرث وسيجيء قول الصادق عليه السلام : المؤمن أخو المؤمن ، عينه و دليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ولا يغشّه ، ولا يعده عدة فيخلفه .

و قد خفي هذا المعنى على بعض المفسّرين فأخذ إطلاق الاُخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقا مجازيّا من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأنّ كلاّ منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبديّ في الجنان ، و قيل : هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبديّ .

﴿بحث روائي﴾

في المجمع في قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا» روى زرارة عن أبي جعفر - عليه السلام: أنّه قال: ما سلّت السيوف، ولا اُقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جهر بأذان، و لا أنزل الله: «يا أيّها الّذين آمنوا» حتّى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج.

أقول: و عن ابن عبّاس أيضاً ما نزل يا أيّها الّذين آمنوا إلّا بالمدينة، و لا «يا أيّها الناس» إلّا بمكّة الخبر. وتوقّف بعضهم في عموم ذيله، و اعلم أنّ هناك روايات في الدّر المنثور وتفسير القمي في سبب نزول قوله: «لا تقدّموا بين يدي الله و رسوله» الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما.

و في الدّر المنثور أخرج أحمد والبخاري و مسلم و أبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة و ابن المنذر والطبراني و ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: لمّا نزلت «يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ - إلى قوله - و أنتم لا تشعرون» و كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الّذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملي أنا من أهل النار، و جلس في بيته حزيناً. ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: فقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك؟ قال: أنا الّذي أرفع صوتي فوق صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم و أجهر له بالقول حبط عملي و أنا من أهل النار، فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك فقال: لا بل هو من أهل الجنّة. فلمّا كان يوم اليمامة قتل.

أقول: قوله: «فلمّا كان يوم اليمامة قتل» من كلام الراوي يريد أنّه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبيّ صلّى الله عليه وآله، والرواية مرويّة بطرق مختلفة اُخرى باختلاف يسير.

و فيه أخرج البخاري في الأدب و ابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشّى من خارج بمسوح الشعر وأظنّ عرض الباب

من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستّة أو سبعة أذرع و أحزر[١] البيت الداخل عشرة أذرع ، و أظنّ سمكه بين الثمان والسبع .

أقول : و روى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال : أدركت حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود . الحديث .

و فيه أخرج أحمد و ابن أبي حاتم والطبراني و ابن منده و ابن مردويه بسند جيّد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه و أقررت به ، و دعاني إلى الزكاة فأقررت بها . قلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام و أداء الزكاة فمن استجاب لي و ترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبّان كذا و كذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة .

فلمّا جمع الحارث الزكاة ممّن استجاب له و بلغ الابّان الّذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظنّ الحارث أنّه قد حدث فيه سخطة من الله و رسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة و ليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ولا أرى حبس رسوله إلّا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده ممّا جمع من الزكاة فلمّا أن سار الوليد حتّى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث.

فأقبل الحارث بأصحابه حتّى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلمّا غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنّك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والّذي بعث محمّداً بالحقّ ما رأيته ولا أتاني .

فلمّا دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال : لا والّذي بعثك بالحقّ ما رأيته ولا رآني و ما أقبلت إلّا حين احتبس عليّ رسول

(١) كذا فى الاصل ولعله جمع خرير بالخاء المعجمة و هو المكان المطمئن .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خشيت أن يكون كانت سخطة من الله و رسوله فنزل « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا ـ إلى قوله ـ حكيم » .

أقول : نزول الآية في قصّة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنّة والشيعة و قال ابن عبدالبرّ في الاستيعاب : ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أنّ قوله عزّ وجلّ : « إن جاءكم فاسق بنبإ » نزلت في الوليد بن عقبة .

و في المحاسن بإسناده عن زياد الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له قال : يا زياد ويحك و هل الدين إلّا الحبّ ؟ ألا ترى إلى قول الله « إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم » ؟ أو لا ترون إلى قول الله لمحمّد صلى الله عليه وآله : « حبّب إليكم الإيمان و زيّنه في قلوبكم » ؟ قال: « يحبّون من هاجر إليهم » وقال: الحبّ هو الدين والدين هو الحبّ .

أقول : و روى في الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام ما في معناه و لفظه : و هل الإيمان إلّا الحبّ والبغض ؟ ثمّ تلا هذه الآية : « حبّب إليكم الإيمان » إلى آخر الآية .

و في المجمع و قيل : الفسوق هو الكذب عن ابن عبّاس و ابن زيد وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : و في هذا المعنى بعض روايات أخر .

و في الكافي بإسناده عن عليّ بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه ولا يظلمه و لا يغشّه ولا يعده عدة فيخلفه .

اقول : و في معناه روايات اُخر عنه عليه السلام وفي بعضها المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه .

و في المحاسن بإسناده عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن لأبيه و اُمّه و ذلك أنّ الله تبارك و تعالى خلق المؤمن من طينة جنان السماوات ، و أجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه و اُمّه .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد والبخاريّ ومسلم و ابن جرير و ابن المنذر وابن

مردويه و البيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أُبي فانطلق و ركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق إليهم قال : إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل فيهم « و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

اقول : و في بعض الروايات كما في المجمع أن الذي قال ذلك لعبدالله بن اُبي بن سلول هو عبد الله بن رواحة و أن التضارب وقع بين رهطه من الأوس و رهط عبدالله بن اُبي من الخزرج و في انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء .

☆ ☆ ☆

يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا
خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا
أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان و من
لم يتب فاولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنو اجتنبوا
كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم
بعضاً ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه و اتقوا الله
ان الله تواب رحيم (١٢) يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر و انثى
وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقيكم ان
الله عليم خبير (١٣) قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن
قولوا اسلمنا و لما يدخل الايمان في قلوبكم و ان تطيعوا الله و
رسوله لا يلتكم من اعمالكم شيأ ان الله غفور رحيم (١٤) انما
المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا و جاهدوا
بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون (١٥) قل
اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات و ما في الارض
والله بكل شيء عليم (١٦) يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا

عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ » الخ السخريّة الاستهزاء و هو ذكر ما يستحقر و يستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع ، والقوم الجماعةوهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأمورالمهمة دونهنّ ، و هذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء .

وقوله : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » و« عسى أن يكنّ خيراً منهنّ » حكمة النهي .

والمستفاد منالسياق أنّ الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله منالساخر سواء كان الساخر رجلا أو امرأة و كذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخريّة القوم من القوم و سخريّة النساء من النساء لمكان الغلبة عادة .

وقوله : « ولا تلمزوا أنفسكم » اللمز ـ على ما قيل ـ التنبيه على المعايب ، وتعليق اللمز بقوله : « أنفسكم » للإشارة إلى أنّهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره ففي قوله : « أنفسكم » إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعدالإيمان » النبز بالتحريك هو اللقب ، ويختصّ ـ على ما قيل ـ بما يدلّ على ذمّ فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضا بلقب السوء ممّا يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك .

والمراد بالاسم في « بئس الاسم الفسوق » الذكر كما يقال : شاع اسم فلان بالسخاء والجود ، وعلى هذا فالمعنى بئس الذكر ذكر الناس ـ بعد إيمانهم ـ بالفسوق فإنّ الحريّ بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يامن أبوه كان كذا ويا من اُمّه كانت كذا .

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثمّ تاب : ياصاحب المعصية الفلانيّة ، أوالمعنى بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب ، وعلى أيّ معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ومن لم يتب فاُولئك هم الظالمون » أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي الّتي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فاُولئك ظالمون حقّاً فإنّهم لا يرون بها بأسا وقد عدّها الله معاصي ونهى عنها .

وفي الجملة أعني قوله : « ومن لم يتب » الخ إشعار بأنّ هناك من كان يقترف هذه المعاصي من المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » إلى آخرالآية المراد بالظنّ المأمور بالاجتناب عنه ظنّ السوء فإنّ ظنّ الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى : « لو لا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » النور : ١٢ .

والمراد بالاجتناب عن الظنّ الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظنّ بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويترتّب عليه سائر آثاره ، وأمّا نفس الظنّ بما هو نوع من الإدراك النفسانيّ فهو أمر يفاجىء النفس لا عن اختيار فلا يتعلّق به النهي اللّهمّ إلّا إذا كان بعض مقدّماته اختياريّا .

وعلى هذا فكون بعض الظنّ إثماً من حيث كون ما يترتّب عليه من الأثر إثما كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيّئة المحرّمة ، والمراد بكثير

من الظنّ - وقد جيىء به نكرة ليدلّ على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظنّ - هو بعض الظنّ الّذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظنّ ، ولو اُريد بكثير من الظنّ أعمّ من ذلك كأن يراد ما يعلم أنّ فيه إثما وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطيّاً توقّياً من الوقوع في الإثم .

وقوله : « ولا تجسّسوا » التجسّس بالجيم تتبّع ما استتر من اُمور الناس للاطّلاع عليها ، ومثله التحسّس بالحاء المهملة إلّا أنّ التجسّس بالجيم يستعمل في الشرّ والتحسّس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبّعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الاُمور الّتي سترها أهلها .

وقوله : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسّرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه ، ويؤل إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدّوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجوّ من الاجتماع وهو أن يخالط كلّ صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً عدلاً سويّاً يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره ، وأمّا إذاعرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالآكلة الّتي تأكل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتّى تنتهي إلى بطلان الحياة .

والإنسان إنّما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويّة اجتماعيّة أعني بمنزلة اجتماعيّة صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه ، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهويّة ، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتّى يأتي على آخره فيتبدّل الصلاح فسادا و يذهب الاُنس والأمن والاعتماد و ينقلب الدواء داء .

فهي في الحقيقة إبطال هويّة اجتماعيّة على حين غفلة من صاحبها و من حيث

لا يشعر به ، و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرّز منه و توقّى انهتاك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الانسان و نواقصه ليتمّ به ما أراده من طريق الفطرة من تألّف أفراد الانسان وتجمّعهم وتعاونهم و تعاضدهم ، وأين الانسان والنزاهة من كلّ عيب .

و إلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله : « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » و قد أتى بالاستفهام الانكاري و نسب الحبّ المنفي إلى أحدهم ولم يقل : بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعابا و شمولا و لذا أكّده بقوله بعد : « فكرهتموه » فنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل : فكرهه .

وبالجملة محصّله أنّ اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الانسان لحم أخيه حال كونه ميتا ، و إنّما كان لحم أخيه لأنّه من أفراد المجتمع الاسلامي المؤلّف من المؤمنين وإنّما المؤمنون إخوة ، و إنّما كان ميتا لأنّه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه .

و في قوله : « فكرهتموه » ولم يقل : فتكرهونه إشعار بأنّ الكراهة أمر ثابت محقّق منكم في أن تأكلوا إنسانا هو أخوكم وهو ميت فكما أنّ هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فانّه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتا .

و اعلم أنّ ما في قوله : « أيحبّ أحدكم أن يأكل » الخ من التعليل جار في التجسّس أيضا كالغيبة ، و إنّما الفرق أنّ الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصّل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير ، والتجسّس هو التوصّل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبّع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله : « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » الخ تعليلا لكلّ من الجملتين أعني « ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » .

و اعلم أنّ في الكلام إشعاراً أودلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين ، ومن القرينة عليه قوله في التعليل : « لحم أخيه » فالاُخوّة إنّما هي بين المؤمنين .

وقوله : « واتّقوا الله إنّ الله توّاب رحيم » ظاهره أنّه عطف على قوله : « اجتنبوا كثيراً من الظنّ » إن كان المراد بالتقوى هو التجنّب عن هذه الذنوب الّتي كانوا

يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله : «إنّ الله توّاب رحيم» أنّ الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به .

و إن كان هو التجنّب عنها و التورّع فيها و إن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله : « إنّ الله توّاب رحيم» أنّ الله كثير الرجوع إلى عباده المتّقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم .

و ذلك أنّ التوبة من الله توبتان توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى : « ثمّ تاب عليهم ليتوبوا » التوبة : ١١٨ ، و توبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة و قبول التوبة كما في قوله : « فمن تاب من بعد ظلمه و أصلح فإنّ الله يتوب عليه » المائدة : ٣٩ .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و اُنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» الخ الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون و هو على ما في المجمع الحيّ العظيم من الناس كربيعة و مضر ، والقبائل جمع قبيلة و هي دون الشعب كتميم من مضر .

و قيل : الشعوب دون القبائل و سمّيت بها لتشعّبها قال الراغب : الشعب القبيلة المنشعبة من حيّ واحد ، و جمعه شعوب قال تعالى : « شعوباً و قبائل » والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف و تفرّق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الّذي تفرّق أخذت في وهمك واحداً يتفرّق ، و إذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتمعا فلذلك قيل : شعبت إذا جمعت ، و شعبت إذا فرقت . انتهى .

و قيل : الشعوب العجم والقبائل العرب ، والظاهر أنّ مآله إلى أحد القولين السابقين ، و سيجيء تمام الكلام فيه (١) .

ذكر المفسّرون أنّ الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب ، وعليه فالمراد بقوله: « من ذكر و اُنثى » آدم و حوّا ، والمعنى أنّا خلقناكم من أب و اُمّ تشتركون جميعا فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربيّ والعجميّ وجعلناكم شعوبا و قبائل

---

(١) فى البحث الروائى الاتى .

مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً و يتمّ بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم و معاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع و بادت الإنسانيّة فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتباهوا بالآباء والاُمّهات .

و قيل : المراد بالذكر والاُنثى مطلق الرجل والمرأة ، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض و الأسود و العرب و العجم و الغنيّ و الفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة ، والمعنى يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من رجل و امرأة فكلّ واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفترقون من هذه الجهة ، و الاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل ـ و هو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهيّ ـ ليس لكرامة و فضيلة و إنّما هو لأن تتعارفوا فيتمّ بذلك اجتماعكم .

و اعترض عليه بأنّ الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب و ذمّه كما يدلّ عليه قوله : « وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا » و ترتّب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر ، ويمكن أن يناقش فيه أنّ الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي و بناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي و كما يمكن نفي التفاخر بالأنساب و ذمّه استناداً إلى أنّ الأنساب تنتهي إلى آدم و حوّاء و الناس جميعاً مشتركون فيهما ، كذلك يمكن نفيه و ذمّه استناداً إلى أنّ كلّ إنسان مولود من إنسانين والناس جميعا مشتركون في ذلك .

والحقّ أنّ قوله : « وجعلناكم شعوباً و قبائل » إن كان ظاهراً في ذمّ التفاخر بالأنساب فأوّل الوجهين أوجه ، و إلّا فالثاني لكونه أعمّ و أشمل .

و قوله : « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » استئناف مبيّن لما فيه الكرامة عند الله سبحانه ، و ذلك أنّه نبّههم في صدر الآية على أنّ الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره ، وأنّ الاختلاف المترائى في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنّما هو للتوصّل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتمّ ائتلاف و لا تعاون و تعاضد من غير تعرّف فهذا هو غرض الخلقة

من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضا و يستخدم إنسان إنساناً و يستعلي قوم على قوم فينجرّ إلى ظهور الفساد في البرّ والبحر و هلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء.

ثمّ نبّه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله : « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » على ما فيه الكرامة عنده ، و هي حقيقة الكرامة .

و ذلك أنّ الإنسان مجبول على طلب ما يتميّز به من غيره و يختصّ به من بين أقرانه من شرف و كرامة ، وعامّة الناس لتعلّقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادّيّة من مال و جمال ونسب وحسب و غير ذلك فيبذلون جلّ جهدهم في طلبها و اقتنائها ليتفاخروا بها و يستعلوا على غيرهم .

و هذه مزايا وهميّة لا تجلب لهم شيأ من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة ، والشرف الحقيقيّ هو الّذي يؤدّي الإنسان إلى سعادته الحقيقيّة و هو الحياة الطيّبة الأبديّة في جوار ربّ العزّة و هذا الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه و هي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة ، و تتبعها سعادة الدنيا قال تعالى : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال :٦٧ ، وقال : « و تزوّدوا فإنّ خيرالزاد التقوى » البقرة : ١٩٧و إذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى .

و هذه البغية والغاية الّتي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تزاحم فيها ولاتدافع بين المتلبّسين بها على خلاف الغايات و الكرامات الّتي يتّخذها الناس بحسب أوهامهم غايات يتوجّهون إليها و يتباهون بها كالغنى والرئاسة والجمال و انتشار الصيت و كذا الأنساب و غيرها .

و قوله : « إنّ الله عليم خبير » فيه تأكيد لمضمون الآية و تلويح إلى أنّ الّذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقيّة اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة و شرفا لأنفسهم فإنّها وهميّة باطلة فإنّها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى : « و ما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو و لعب و إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان

لو كانوا يعلمون » العنكبوت : ٦٤ .

و في الآية دلالة على أنّ من الواجب على الناس أن يتّبعوا في غايات الحياة أمر ربّهم و يختاروا ما يختاره و يهدي إليه و قداختار لهم التقوى كما أنّ من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين .

قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » الخ الآية وما يليها إلى آخر السورة متعرّضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان و منّهم على النبيّ صلى الله عليه وآله بإيمانهم ، و سياق نقل قولهم و أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيبهم بقوله : « لم تؤمنوا » يدلّ على أنّ المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم ، و يؤيّده قوله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر » التوبة : ٩٩ .

و قوله : « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا » أي قالوا لك آمنّا و ادّعوا الإيمان قل لم تؤمنوا و كذّبهم في دعواهم و قوله : « و لكن قولوا أسلمنا » استدراك ممّا يدلّ عليه سابق الكلام والتقدير فلا تقولوا آمنّا و لكن قولوا : أسلمنا .

و قوله : « و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » لنفي دخول الايمان في قلوبهم مع انتظار دخوله ، ولذلك لم يكن تكراراً لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله : «لم تؤمنوا» .

و قد نفى في الآية الإيمان عنهم و أوضحه بأنّه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام ، و يظهر به الفرق بين الإيمان والإسلام بأنّ الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد ، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنّه الاستسلام والخضوع لسانا بالشهادة على التوحيد والنبوّة و عملاً بالمتابعة العمليّة ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقّيّة ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن ، و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجري المناكح والمواريث .

و قوله : « و إن تطيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيأ » اللّيت النقص يقال : لاته يليته ليتا إذانقصه ، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق ، و طاعة الله استجابة مادعى إليه من اعتقاد وعمل ، و طاعة رسوله تصديقه

و اتّباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الأمّة ، والمراد بالأعمال جزاؤها أو المراد بنقص الأعمال نقص جزائها .

والمعنى وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتّباع دينه اعتقادا ، و تطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيأ ، وقوله : « إنّ الله غفور رحيم » تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه و رسوله .

قوله تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله اُولئك هم الصادقون » تعريف تفصيليّ للمؤمنين بعد ما عرّفوا إجمالا بأنّهم الّذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله : « لم تؤمنوا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » .

فقوله : « إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله » فيه قصر المؤمنين في الّذين آمنوا بالله و رسوله الخ ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً مانعاً فمن اتّصف بها مؤمن حقّاً كما أنّ من فقد شيأ منها ليس بمؤمن حقّاً .

والإيمان بالله و رسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقّيّة ما أرسل به رسوله و على صحّة الرسالة و اتّباع الرسول فيما يأمر به .

و قوله : « ثمّ لم يرتابوا » أي لم يشكّوا في حقّيّة ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتاً مستقرّاً لا يزلزله شكّ ، والتعبير بثمّ دون الواو - كما قيل - للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنّه طريّ جديد دائما فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأوّليّ ولو قيل : ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أوّلا مقارنا لعدم الارتياب مع السكوت عمّا بعد .

وقوله : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » المجاهدة بذل الجهد والطاقة و سبيل الله دينه ، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة و تبلغه الطاقة في التكاليف الماليّة كالزكاة و غير ذلك من الإنفاقات الواجبة ، والتكاليف البدنيّة كالصلاة والصوم والحجّ و غير ذلك .

والمعنى و يجدّون بإتيان التكاليف الماليّة والبدنيّة حال كونهم أو حال كون

عملهم في دين الله و سبيله .

و قوله : « أُولئك هم الصادقون » تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة .

قوله تعالى : « قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات و ما في الأرض والله بكلّ شيء عليم » توبيخ للأعراب حيث قالوا : آمنّا و لازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك ، و قيل : لمّا نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنّهم مؤمنون صادقون في قولهم : آمنّا ، فنزل : « قل أتعلّمون الله بدينكم » الآية ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا على إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » أي يمنّون عليك بأن أسلموا و قد أخطأوا في منّهم هذا من وجهين أحدهما أنّ حقيقة النعمة الّتي فيها المنّ هو الإيمان الّذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صوريّة من حقن الدماء وجواز المناكح والمواريث ، وثانيهما أن ليس للنبيّ صلّى الله عليه وآله من أمر الدين إلّا أنّه رسول مأمور بالتبليغ فلا منّ عليه لأحد ممّن أسلم .

فلو كان هناك منّ لكان لهم على الله سبحانه لأنّ الدين دينه لكن لا منّ لأحد على الله لأنّ المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغنيّ على الإطلاق فالمنّ لله عليهم أن هداهم له .

و قد بدّل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشارة إلى أنّ المنّ إنّما هو بالإيمان دون الإسلام الّذي إنّما ينفعهم في الظاهر فقط .

فقد تضمّن قوله : « قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ » الخ الإشارة إلى خطاهم من الجهتين جميعا :

إحداهما خطأهم من جهة توجيه المنّ إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو رسول ليس له من الأمر شيء ، و إليه الإشارة بقوله : « لا تمنّوا عليّ إسلامكم » .

و ثانيهما أنّ المنّ ـ لو كان هناك منّ ـ إنّما هو بالإيمان دون الإسلام ، وإليه

الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان .

قوله تعالى : « إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ختم للسورة و تأكيد يعلّل و يؤكّد به جميع ما تقدّم في السورة من النواهي والأوامر و ما بيّن فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآية تعلّل بمضمونها جميع ذلك .

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعمّ ممّا فيهما و من الخارج منهما .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان و عمّار و خبّاب و صهيب و ابن فهيرة و سالم مولى أبي حذيفة .

و في المجمع : نزل قوله : « لا يسخر قوم من قوم » في ثابت بن قيس بن شماس و كان في اُذنه وقر و كان إذا دخل المسجد تفسّحوا له حتّى يقعد عند النبيّ صلى الله عليه وآله فيسمع ما يقول .

فدخل المسجد يوما والناس قد فرغوا من الصلاة و أخذوا مكانهم فجعل يتخطّى رقاب الناس و يقول : تفسّحوا تفسّحوا حتّى انتهى إلى رجل فقال له : أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضباً فلمّا انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان فقال ثابت : ابن فلانة ذكر اُمّاً له كان يعيّر بها في الجاهليّة فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية . عن ابن عباس .

و فيه : و قوله : « ولا نساء من نساء » نزل في نساء النبيّ صلى الله عليه وآله سخرن من اُمّ سلمة . عن أنس . و ذلك أنّها ربطت حقويها بسبيبة و هي ثوب أبيض و سدلت طرفيها خلفها فكانت تجرّه فقالت عائشة لحفصة : انظري ما ذا تجرّ خلفها كأنّه لسان كلب

فهذه كانت سخريتهما ، و قيل : إنّها عيّرتها بالقصر ، و أشارت بيدها أنّها قصيرة . عن الحسن .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبوداود والترمذي والنسائي و ابن ماجه و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر والبغوي في معجمه و ابن حبّان والشيرازى في الألقاب والطبرانى وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم و صحّحه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جبيرة بن الضحّاك قال : فينا نزلت في بني سلمة « ولا تنابزوا بالألقاب » قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة و ليس فينا رجل إلّا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعى أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنّه يكره هذا الاسم فأنزل الله « ولاتنابزوا بالألقاب » .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي أنّ سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما و أنّ سلمان نام نوما فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء و قالا ما يريد سلمان شيأ غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود و خباء مضروب فلمّا جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك . قال : ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد ائتدموا .

فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: والّذي بعثك بالحقّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنّكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما . فنزلت « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » .

و فيه أخرج الضياء المقدّسي عن أنس قال : كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار و كان مع أبي بكر و عمر رجل يخدمهما فناما واستيقظا ولم يهيّىء لهما طعاما فقالا : إنّ هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له : إنّ أبا بكر وعمر يقرئانك السلام و يستأدمانك فقال : إنّهما ائتدما ، فجاءآه فقالا يا رسول الله بأيّ شيء ائتدمنا ؟ قال : بلحم أخيكما والّذي نفسي بيده إنّي لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا : استغفر لنا يا رسول الله . قال : مراه فليستغفر لكما .

أقول : الظاهر أنّ القصّة الموردة في الروايتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الاُولى أبوبكر و عمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان ، و يؤيّد هذا ما عن جوامع الجامع قال : وروي أنّ أبابكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى اُسامة بن زيد وكان خازن رسول الله صلى الله عليه وآله على رحله فقال : ماعندي شيء فعاد إليهما فقالا : بخل اُسامة و لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

ثمّ انطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا : يا رسول الله ماتناولنا اليوم لحماً . قال : ظلتم تأكلون لحم سلمان و اُسامة فنزلت .

و في العيون بإسناده عن محمّد بن يحيى بن أبي عباد عن عمّه قال : سمعت الرضا عليه السلام يوماً ينشد و قليلاًما كان ينشد شعرا :

كلّنا نأمل مدّاً في الأجل والمنايا هنّ آفات الأمل

لا يغرّنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل

إنّما الدنيا كظلّ زائل حلّ فيه راكب ثمّ رحل

فقلت: لمن هذا أعزّ الله الأمير؟ فقال: لعراقيّ لكم قلت : أنشدنيه أبو العتاهية(١) لنفسه فقال : هات اسمه و دع هذا، إنّ الله سبحانه يقول : « ولا تنابزوا بالألقاب » و لعلّ الرجل يكره هذا .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له : ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يقلّبك منه ، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وفي نهج البلاغة وقال عليه السلام : إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ، ثمّ أساء رجل الظنّ برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم ، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثمّ أحسن رجل الظنّ برجل فقد غُرر .

أقول : والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى نفس الظنّ والاُولى إلى

---

(١) العتاهية بمعنى نقصان العقل .

ترتيب الأثر عليه عملا .

وفي الخصال عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : الغيبة أشد من الزنا ، فقيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟ قال : صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحلّه .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر عنه صلى الله عليه وسلم ، ولفظه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه .

وفي الكافي بإسناده إلى السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه .

وفيه بإسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله ما كفارة الاغتياب قال : تستغفر الله لمن اغتبته كما ذكرته .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » قال : الشعوب العجم والقبائل العرب .

اقول : ونسبه في مجمع البيان إلى الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبدالله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ؛ ألا إن أباكم واحد ؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ألا هل بلّغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فليبلّغ الشاهد الغائب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . إنما زوجه لتضع المناكح ، وليتأسوا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن جميل بن درّاج قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : فما الكرم ؟ قال : التقوى .

وفي الكافي بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال : إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون .

وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمّد عليه السلام في حديث : والإسلام غير الإيمان ، وكلّ مؤمن مسلم وليس كلّ مسلم مؤمنا .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنّا » أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : « قالت الأعراب آمنّا » قال : نزلت في بني أسد .

اقول : وهو مرويّ أيضاً عن مجاهد وغيره .

وفيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه و الطبرانيّ والبيهقيّ في شعب الإيمان عن عليّ بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

وفيه أخرج النسائيّ والبزّاز وابن مردويه عن ابن عبّاس قال : جاءت بنوأسد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك فنزلت هذه الآية « يمنّون عليك أن أسلموا » .

اقول : وفي هذا المعنى روايات اُخر .

﴿سورة ق مكيّة وهى خمس وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ قٓ وَالْقُرآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ
جاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هٰذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) ءَاِذا مِتْنا وَكُنّا
تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا
كِتابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنّاها وَ ما لَها مِنْ
فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)
وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩)
وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً
مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ
وَ ثَمُودُ (١٢) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ
وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤).

﴿بيان﴾

السورة تذكر الدعوة و تشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد و جحد المشركين به و استعجابهم ذلك بأنّ الموت يستعقب بطلان الشخصيّة الإنسانيّة بصيرورته ترابا لا

يبقى معه أثر ممّا كان عليه فكيف يرجع ثانيا إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهروه من الاستعجاب والاستبعاد بأنّ العلم الالهي محيط بهم و عنده الكتاب الحفيظ الّذي لا يعزب عنه شيء ممّا دقّ و جلّ من أحوال خلقه ثمّ توعدهم باصابة مثل ما أصاب الأُمم الماضية الهالكة.

و تنبّه ثانيا على علمه و قدرته تعالى بالاشارة إلى ماجرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات و ما زيّنها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك، و في خلق الأرض من حيث مدّها و إلقاء الرواسي عليها و إنبات الأزواج النباتيّة فيها ثمّ بانزال الماء و تهيئة أرزاق العباد و إحياء الأرض به.

ثمّ بيان حال الانسان من أوّل ما خلق و أنّه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتّى ما يلفظ به من لفظ و حتّى ما يخطر بباله و توسوس به نفسه ما دام حيّا ثمّ إذا أدركه الموت ثمّ إذا بعث لفصل القضاء ثمّ إذا فرغ من حسابه فاُدخل النار إن كان من المكذّبين أو الجنّة المزلفة إن كان من المتّقين.

و بالجملة مصبّ الكلام في السورة هو المعاد، ومن غرر الآيات فيها قوله: «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»، و قوله: «يوم نقول لجهنّم هل امتلأت فتقول هل من مزيد» و قوله: «لهم مايشاؤن فيها و لدينا مزيد».

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها إلّا ما قيل في قوله: «و لقد خلقنا السماوات والأرض» الآية أو الآيتين، ولاشاهد عليه من اللفظ.

و ما أوردناه من الآيات فيه إجمال الاشارة إلى المعاد و استبعادهم له، و إجمال الجواب والتهديد أوّلا ثمّ الاشارة إلى تفصيل الجواب والتهديد ثانيا.

قوله تعالى: «ق والقرآن المجيد» قال في المجمع: المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال: مجُد الرجل و مجَد - بضمّ العين و فتحها - مجداً إذا عظم و كرم، و أصله من قولهم: مجدت الأبل مُجوداً إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربيع. انتهى.

و قوله : « والقرآن المجيد » قسم و جوابه محذوف يدلّ عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إنّ البعث حقّ أو إنّك لمن المنذرين أوالإنذار حقّ ، وقيل : جواب القسم مذكور و هو قوله ؛ « بل عجبوا » الخ ، و قيل : هو قوله : « قد علمنا ما تنقص » الخ ، و قيل : قوله : « ما يلفظ من قول » الخ ، و قيل : قوله : « إنّ في ذلك لذكرى» الخ ، وقيل : قوله «ما يبدّل القول لدي» الخ ، وهذه أقوال سخيفة لا يصار إليها .

قوله تعالى : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنّه قيل : إنّا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاء هم منذر منهم ، أو قيل إنّ البعث الّذي أنذرتهم به حقّ ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه و استبعدوه .

و ضمير « منهم » في قوله : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » راجع إليهم بما هم بشر أي من جنسهم و ذلك أنّ الوثنيّين ينكرون نبوّة البشر كما تقدّمت الإشارة إليه مراراً أو راجع إليهم بما هم عرب والمعنى بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم يبيّن لهم الحقّ أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريعهم .

و قوله : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » وصفهم بالكفر و لم يقل : و قال المشركون و نحو ذلك للدلالة على سترهم للحقّ لمّا جاءهم ، والإشارة في قولهم : «هذا شيء عجيب » إلى البعث والرجوع إلى الله كما يفسّره قوله بعد : « ءإذا متنا و كنّا ترابا » الخ .

قوله تعالى : « ءإذا متنا وكنّا ترابا ذلك رجع بعيد » الرجع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل .

وجواب إذا في قولهم : «ءإذا متنا وكنّا ترابا » محذوف يدلّ عليه قولهم : «ذلك رجع بعيد » والتقدير ءإذا متنا و كنّا ترابا نبعث و نرجع ؟ والاستفهام للتعجيب ، وإنّما حذف للاشارة إلى أنّه عجيب بحيث لا ينبغي أن تذكر ، إذ لا يقبله عقل ذي عقل والآية في مساق قوله : « و قالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنّا لفي خلق جديد » الم السجدة : ١٠ .

والمعنى إنّهم يتعجّبون و يقولون : ءإذامتنا وكنّا ترابا - و بطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها - نبعث و نرجع ؟ ثمّ كأنّ قائلا يقول لهم : ممّ تتعجّبون ؟ فقالوا : ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلّمه .

قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم و عندنا كتاب حفيظ » ردّ منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندين في ذلك إلى أنّهم ستتلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أنّا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتّى يتعسّر علينا إرجاعه أو يتعذّر بالجهل .

أو أنّا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم، و«من» على على أوّل الوجهين تبعيضيّة و على الثاني تبيينيّة .

و قوله : « و عندنا كتاب حفيظ » أي حافظ لكلّ شيء ولآثاره و أحواله ، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف ، و هو اللوح المحفوظ الّذي فيه كلّ ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة .

و قول بعضهم إنّ المراد به كتاب الأعمال غير سديد أوّلا من جهة أنّ الله ذكره حفيظا لما تنقص الأرض منهم و هو غير الأعمال الّتي يحفظه كتاب الأعمال .

و ثانيا أنّه سبحانه إنّما وصف في كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد .

ومحصّل جواب الآية أنّهم زعموا أنّ موتهم وصيرورتهم تراباً متلاشي الذرّات غير متمايز الأجزاء يصيّرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها و إرجاعها لكنّه زعم باطل فإنّا نعلم بمن مات منهم و ما يتبدّل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم و كيف يتبدّل و إلى أين يصير ؟ و عندنا كتاب حفيظ فيه كلّ شيء و هو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : « بل كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم فهم في أمر مريج » المرج الاختلاط والالتباس ، وفي الآية إضراب عمّا تلوّح إليه الآية السابقة فإنّ اللائح منها أنّهم إنّما

تعجّبوا من أمر البعث والرجوع و استبعدوه لجهلهم بأنّ الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه و آثارهم و أنّ جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذّ عنه شاذّ .

فاُضرب في هذه الآية أنّ ذلك ليس من جهلهم و إن تجاهلوا بل كذّبوا بالحق لمّا جاءهم فاستبان لهم أنّه حقّ فهم جاحدون للحقّ معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحقّ و يكذّبون به مع أنّ لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به .

و قيل : المراد بكونهم في أمر مريج أنّهم متحيّرون بعد إنكار الحقّ لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون : افتراء على الله ، وتارة : سحر ، و تارة : شعر ، و تارة : كهانة و تارة : زجر .

و لذلك عقّب الكلام بذكر آيات علمه و قدرته توبيخا لهم ثمّ بالإشارة إلى تكذيب الاُمم الماضية الهالكة الّذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال ، تهديداً لهم .

قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيّنّاها و مالها من فروج » الفروج جمع فرجة الشقوق والفتوق ، و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنّها بمرئى منهم لا تغيب عن أنظارهم ، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بمالها من الجمال البديع فبناء هذا الخلق البديع بمالها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة و علمه المحيط بما خلق .

قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج » مدّ الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان ، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال ، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها ، والبهيج من البهجة قال في المجمع : البهجة الحسن الّذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة انتهى و قيل : المراد بالبهيج الّذي من رآه بهج و سرّ به فهو بمعنى المبهوج به .

والمراد بإنبات كلّ زوج بهيج إنبات كلّ صنف حسن المنظر من النبات .

فخلق الأرض و ماجرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال القدرة والعلم .

قوله تعالى : « تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب » مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء و مد الأرض و عجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصر بها و ذكرى يتذكر بهاكل عبد راجع إلى الله سبحانه .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » السماء جهة العلو والماء المبارك المطر ، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض و أهلها ، وحب الحصيد المحصود من الحب و هو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و النخل باسقات لها طلع نضيد » الباسقات جمع باسقة و هي الطويلة العالية ، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » الرزق ما يمد به البقاء ، و « رزقا للعباد » مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد و النخل باسقات بمالها من الطلع النضيد ليكون رزقا للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الوسيع الذي يدهش اللب ويحير العقل هو ذو علم لايتناهى وقدرة لا تعيى لايشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرات جسمه وضلت في الأرض أجزاء بدنه .

وقوله : « و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طي الكلام فان البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم ترابا غيرمتمايز الأجزاءكان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله : «وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها و وقوف قواه عن النماء والنشوء .

وقد قرّرنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلّة بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مرّة فيما تقدّم من أجزاء الكتاب .

قوله تعالى : « كذّبت قبلهم قوم نوح ـ إلى قوله ـ كلّ كذّب الرسل فحقّ وعيد » تهديد وإنذار لهم بما كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم و تبيّن لهم عناداً كما أشرنا إليه قبل .

وقد تقدّم ذكر أصحاب الرسّ في تفسير سورة الفرقان ، و ذكر أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب في سورة الحجر و الشعراء وص ، وذكر قوم تبّع في سورة الدخان .

وفي قوله : « كلّ كذّب الرسل فحقّ وعيد » إشارة إلى أنّ هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين » النحل : ٣٦ .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثمّ خلق من وراء ذلك جبلا يقال له : قٓ السماء الدنيا مترفرفة عليه ، ثمّ خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرّات ثمّ خلق من وراء ذلك بحراً محيطا بها ، ثمّ خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له قٓ السماء الثانية مترفرفة عليه حتّى عدّ سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات . قال : وذلك قوله : « والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر » .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه و أبو الشيخ و الحاكم عن عبدالله بن بريدة في قوله تعالى : « قٓ » قال : جبل من زمرّد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء .

وفيه أخرج ابن أبي الدّنيا في العقوبات و أبو الشيخ في العظمة عن ابن عبّاس قال : خلق الله جبلاً يقال له قٓ محيط بالعالم و عروقه إلى الصخرة الّتي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك العرق الّذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحرّكها فمن ثمّ تحرّك القرية دون القرية .

أقول : و روى القمي باسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن الباقر عليه السلام مثل مامر عن عبدالله بن بريدة ، و روى ما في معناه مرسلاً ومضمراً ولفظه : قال : جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج و مأجوج .

وكيفما كان لاتعويل على هذه الروايات ، و بطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «فقال الكافرون هذا شيء عجيب» قال: نزلت في اُبي ابن خلف قال لأبي جهل : تعال إلي اُعجبك من محمد ثم أخذ عظماً ففته ثم قال : يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟ فقال الله : بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ».

☆ ☆ ☆

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)
وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ
قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نُفِخَ فِي
الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ
شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَالَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ
رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَ لٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا
لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مَا أَنَا
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ
مَزِيدٍ (٣٠) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ(٣٣)

ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَايَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨).

﴿بيان﴾

الآية الأُولى متمّمة لما أورده في الآيات السابقة من الحجّة على علمه وقدرته بما خلق السماء و الأرض وما فيهما من خلق و دبّر ذلك أكمل التدبير و أتمّه و ذلك كلّه هو الخلق الأوّل والنشأة الأُولى . فتمّم ذلك بقوله : «أفعيينا بالخلق الأوّل» واستنتج منه أنّ القادر على الخلق الأوّل العالم به قادر على خلق جديد ونشأة ثانية و عالم به لأنّهما مثلان إذا جاز له خلق أحدهما جاز خلق الآخر و إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن .

ثمّ أضرب عنه أنّهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين ثمّ أشار إلى نشأة الإنسان أوّل مرّة وهو يعلم منه حتّى خطرات قلبه و عليه رقباؤه يراقبونه أدقّ المراقبة ثمّ يجيئه سكرة الموت بالحقّ ثمّ البعث ثمّ دخول الجنّة أو النار ثمّ أشار ثانيا إلى ماحلّ بالقرون الماضية المكذّبة من السخط الإلهيّ و عذاب الاستئصال وهم أشدّ بطشاً من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء .

قوله تعالى : « أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد » العيّ عجز يلحق من تولّى الأمر و الكلام كذا قال الراغب يقال : أعياني كذا و عييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأوّل خلق هذه النشأة الطبيعيّة بنظامها الطبيعيّ الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأوّل في خلق السماء والأرض

فقط كما مال إليه الرازي في التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم و ذلك لأنّ الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والانسان جميعاً كما قال تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات و برزوا لله الواحد القهّار » إبراهيم : ٤٨ . و الخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى أعجزنا عن الخلق الأوّل حتّى نعجز عن الخلق الجديد ؟ أي لم نعجز عن الخلق الأوّل وهو إبداؤه فلانعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته .

ولو اُخذ العيّ بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى هل تعبنا بسبب الخلق الأوّل حتى يتعذّر أو يتعسّر علينا الخلق الجديد ؟ وذلك كما أنّ الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل و أكثر منه انتهى به إلى التعب البدني فيكفّه ذلك عن الفعل بعد ، فمالم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكنّه لايؤتى به لأنّ الفاعل لايستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزاً متشابه الأمثال .

وهذا معنى لا بأس به لكن قيل : إنّ استعمال العيّ بمعنى العجز أفصح . على أنّ سوق الحجّة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنّه يفيد تعسّره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالته دون تعسّره هذا .

وقوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » اللبس هو الالتباس ، والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة اُخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعيّ الحاكم في الدنيا فإنّ في النشأة الاُخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثمّ إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لا نعمة معها ، والنشأة الاُولى وهي الخلق الأوّل والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك .

والمعنى إذا كنّا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيهما ودبّرناه أحسن تدبير لأوّل مرّة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقا جديدا فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس

لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفيّ . انتهى .

والمراد بخلق الإنسان وجوده المتدرّج المتحوّل خلقا بعد خلق لاأوّل تكوينه إنسانا وإن عبّر عنه بالماضي إذ قال : « ولقد خلقنا الإنسان » إذ الإنسان - وكذا كلّ مخلوق له حظّ من البقاء - كما يحتاج إلى عطيّة ربّه في أوّل وجوده كذلك يحتاج إليه في بقائه .

ولما ذكر من النكتة عطف قوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وهو فعل ماض لكنّه مستمرّ المعنى ، وكذا قوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان .

وللآية اتّصال بما تقدّم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأوّل بقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء » واتّصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة : « بل هم في لبس من خلق جديد » فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه ، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة .

فقوله : « ولقد خلقنا الإنسان » - واللاّم للقسم - دالّ على القدرة عليه بإثبات الخلق .

وقوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفسانيّ الخفيّ إشارة إلى استيعاب العلم له كأنّه قيل : ونعلم ظاهره وباطنه حتّى ما توسوس به نفسه وممّا توسوس به الشبهة في أمر المعاد : كيف يُبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميّز بعضها من بعض .

وقد بان أنّ « ما » في « ما توسوس به » موصولة وضمير « به » عائد إليه والباء للآلة أو للسببيّة ، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة إليه

أيضا لأنّ الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتّى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة.

وقوله: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» الوريد عرق متفرّق في البدن فيه مجاري الدم، وقيل: هو العرق الّذي في الحلق، وكيف كان فتسميته حبلا لتشبيهه به، وإضافة حبل الوريد بيانيّة.

والمعنى نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقرّ في داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه؟

وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقّيها لعامّة الأفهام وإلّا فأمر قربه تعالى إليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الّذي جعلها نفساً ورتّب عليها آثارها فهو الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كلّ أمر مفروض حتّى من نفسه، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشقّ تصوّره على أكثر الأفهام عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» وقريب منه بوجه قوله: «إنّ الله يحول بين المرء وقلبه».

ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة اُخر لاجدوى في نقلها والبحث عنها من أرادها فليراجع كتبهم.

قوله تعالى: «إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد» التلقّي الأخذ والتلقّن، والمراد بالمتلقّيان على مايفيده السياق الملكان الموكّلان على الإنسان اللّذان يتلقّيان عمله فيحفظانه بالكتابة.

وقوله: «عن اليمين وعن الشمال قعيد» تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله، والقعيد القاعد.

والظرف في قوله: «إذ يتلقّى المتلقّيان» الظاهر أنّه متعلّق بمحذوف والتقدير اذكر إذ يتلقّى المتلقّيان، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتّاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسّط الوسائط.

وقيل: الظرف متعلّق بقوله في الآية السابقة: «أقرب» والمعنى نحن أقرب إليه من حبل الوريد في حين يتلقّى الملكان الموكّلان عليه أعماله ليكتباها.

ولعلّ الوجه السابق أوفق للسياق فإنّ بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيّته تعالى إليه و علمه به و الباقي مقصود لأجله ، و ظاهر السياق و خاصّة بالنظر إلى الآية التالية كون كلّ من العلم من طريق القرب و من طريق تلقّي الملكين مقصوداً بالاستقلال .

و قيل : « إذ » تعليليّة تعلّل علمه تعالى المدلول عليه بقوله : « و نحن أقرب إليه » الخ بمفاد مدخولها .

و فيه أنّ من البعيد من مذاق القرآن أن يستدلّ على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم و كتابتهم .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تمثيل لموقعهما من الإنسان ، واليمين والشمال جانبا الخير والشرّ ينتسب إليهما الحسنة والسيّئة .

قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد » اللفظ الرمي سمّي به التكلّم بنوع من التشبيه ، والرقيب المحافظ ، والعتيد المعدّ المهيّأ للزوم الأمر .

والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلّم به من كلام ، و هي بعد قوله : « إذ يتلقّى المتلقّيان » الخ من ذكر الخاصّ بعد العامّ لمزيد العناية به .

قوله تعالى : « و جاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد » الحيد العدول والميل على سبيل الهرب ، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزع إذ يشتغل بنفسه و ينقطع عن الناس كالسكران الّذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له .

و في تقييد مجيء سكرة الموت بالحقّ إشارة إلى أنّ الموت داخل في القضاء الإلهيّ مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى : « كلّ نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشرّ والخير فتنة و إلينا ترجعون » الأنبياء : ٣٥ و قدمرّ تفسيره فالموت ـ و هو الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها ـ حقّ كما أنّ البعث حقّ والجنّة حقّ والنار حقّ ، وفي معنى كون الموت بالحقّ أقوال اُخر لا جدوى في نقلها والتعرّض لها .

و في قوله : « ذلك ما كنت منه تحيد » إشارة إلى أنّ الإنسان يكره الموت بالطبع و ذلك أنّ الله سبحانه زيّن الحياة الدنيا والتعلّق بزخارفها للإنسان ابتلاء و

امتحانا قال تعالى : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيّكم أحسن عملاً و إنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » الكهف : ٨.

قوله تعالى : « و نفخ في الصور ذلك يوم الوعيد » هذه نقلة ثانية إلى عالم الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الاُولى ، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ .

والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الّذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين من عباده .

قوله تعالى : « و جاءت كلّ نفس معها سائق و شهيد » السياقة حثّ الماشية على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها .

فقوله : « و جاءت كلّ نفس » أي جاءت إلى الله و حضرت عنده لفصل القضاء والدليل عليه قوله تعالى : « إلى ربّك يومئذ المساق » القيامة : ٣٠ .

والمعنى و حضرت عنده تعالى كلّ نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشهد بأعمالها ولم يصرّح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة غير أنّ السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنّهما من الملائكة ، و سيجيء الروايات في ذلك .

و كذا لاتصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار ، و كذا الآيات التالية الذاكرة لاختصام الإنسان و قرينه دالّة على أنّ مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد.

قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات يوم القيامة ، والمخاطب بها هو الله سبحانه ، والّذي خوطب بها هو الإنسان المذكور في قوله : « وجاءت كلّ نفس » ، وعليه فالخطاب عامّ متوجّه إلى كلّ إنسان إلّا أنّ التوبيخ والتقريع اللائح من سياق الآية ربّما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري المعاد ، أضف إلى ذلك ، كون الآيات مسوقة لردّ منكري المعاد في قولهم : « ءإذا

متنا وكنّا تراباً ذلك رجع بعيد » .

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطّع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكلّ إلى الله الواحد القهّار ، وقدكان تعلّق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهريّة وركونه إليها أغفله عن ذلك حتّى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علما فكريّا .

ولذا خوطب بقوله : « لقد كنت » في الدنيا « في غفلة » أحاطت بك « من هذا » الّذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلّقك بذيل الأسباب أذهلك و أغفلك عنه « فكشفنا عنك غطاءك » اليوم « فبصرك » وهو البصيرة وعين القلب « اليوم » وهو يوم القيامة « حديد » أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا .

ويتبيّن بالآية أوّلا أنّ معرّف يوم القيامة أنّه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر ، و في هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى : « والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ ، وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » المؤمن : ١٦ إلى غير ذلك من الآيات .

وثانيا أنّ ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيّأ له وهو في الدنيا غير أنّه في غفلة منه ، وخاصّة يوم القيامة أنّه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه ، وذلك لأنّ الغفلة إنّما يتصوّر فيما يكون هناك أمر موجود منقول عنه ، والغطاء يستلزم أمراً وراءه وهو يغطّيه ويستره ، وعدم حدّة البصر إنّما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر .

ومن أسخف القول ما قيل : إنّ الآية خطاب منه تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله ، والمعنى لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الّذي نوحي إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقّى الوحي ، وذلك لأنّ السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه .

قوله تعالى : « وقال قرينه هذا ما لدىّ عتيد » لا يخلو السياق من ظهور في

أنّ المراد بهذا القرين الملك الموكّل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله : « هذا ما لديّ عتيد » هذا الإنسان الّذي هو عندي حاضر ، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا ـ وهو يشير إلى أعماله الّتي حمل الشهادة عليها ـ ما عندي من أعماله حاضر مهيّأ .

وقيل : المراد بالقرين الشيطان الّذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي تولّيت أمره وملكته حاضر مهيّأ لدخول جهنّم .

قوله تعالى : « ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد منّاع للخير معتد مريب » الكفّار اسم مبالغة من الكفر ، والعنيد المعاند للحقّ المستمرّ على عناده ، والمعتدي المتجاوز عن الحدّ المتخطّيء للحقّ ، والمريب الشاكّ أو المشكّك في أمر البعث .

وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإنّ كثرة الكفر بردّ الإنسان كلّ حقّ يواجهه تنتج العناد مع الحقّ والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلّا في الحقّ ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حدّ الحقّ إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حدّ العبوديّة إلى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحقّ .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أنّ المخاطب به هما الملكان الموكّلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : « الّذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد » العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : « الّذي جعل » الخ للإشارة إلى أنّ هذه الصفة أعظم المعاصي وأمّ الجرائم الّتي أتى بها والصفات الرذيلة الّتي عدّت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .

وقوله : « فألقياه في العذاب الشديد » تأكيد لما تقدّم من الأمر بقوله : « ألقيا » الخ ، ويلوّح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقّبه بقوله : « في العذاب الشديد » .

قوله تعالى : « قال قرينه ربّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » المراد بهذا

القرين قرينه من الشياطين بلا شك، وقد تكرّر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الّذي يلازم الانسان ويوحي إليه ما يوحي من الغواية والضلال قال تعالى: «ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً فهو له قرين وإنّهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنّهم مهتدون حتّى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين» الزخرف: ٣٨.

فقوله: «قال قرينه» أي شيطانه الّذي يصاحبه ويغويه «ربّنا» أضاف الربّ إلى نفسه والإنسان الّذي هو قرينه لأنّهما في مقام الاختصام «ما أطغيته» أي ما أجبرته على الطغيان «ولكن كان في ضلال بعيد» أي متهيّأً مستعدّاً لقبول ما ألقيته إليه تلقّاه باختياره فما أنا بمسؤول عن ذنبه في طغيانه.

وقد تقدّم في سورة الصافّات تفصيل اختصام الظالمين وأزواجهم في قوله: «احشروا الّذين ظلموا وأزواجهم» الصافّات: ٢٢ إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: «قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد» القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنّه خطاب واحد لعامّة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحلّ إلى خطابات جزئيّة لكلّ إنسان وقرينه بمثل قولنا: لا تختصما لديّ الخ.

وقوله: «وقد قدّمت إليكم بالوعيد» حال من فاعل «لا تختصموا» و«بالوعيد» مفعول «قدّمت» والباء للوصلة.

والمعنى لا تختصموا لديّ فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك وظلم، والوعيد الّذي قدّمه إليهم مثل قوله تعالى لإبليس: «اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاء موفورا» أسرى: ٦٣، وقوله: «فالحقّ والحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين» ص: ٨٥. أو قوله: «لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين» السجدة: ١٣

قوله تعالى: «ما يبدّل القول لدىّ وما أنا بظلّام للعبيد» الّذي يعطيه السياق أن تكون الآية استئنافاً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدّر كأنّ قائلاً يقول: هب إنّك قد قدّمت فهلاّ غيّرته وعفوت؟ فاُجيب بقوله: «ما يبدّل القول لديّ» والمراد بالقول

مطلق القضاء المحتوم الّذي قضى به الله ، و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنّم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الّذي أوعده الله لا بليس و من تبعه .

فقدبان أنّ الجملة مستأنفة ، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم ، و « لديّ » متعلّق بالتبديل ، هذا ما يعطيه السياق ، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها و معنى تبديل القول وجوهاً و احتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لاتزيد في الكلام إلّا تعقيداً فأغمضنا عن إيرادها .

و قوله : « و ما أنا بظلّام للعبيد » متمّم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدّل قولي فأنتم معذّبون لا محالة ولست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قدّمت إليهم بالوعيد لأنّهم مستحقّون لذلك بعد إتمام الحجّة .

و من وجه آخر لاظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنّهم إنّما يجزون بأعمالهم الّتي قدّموها فهي أعمالهم ردّت إليهم كما هوظاهر قوله تعالى : « يا أيّها الّذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنّما تجزون ماكنتم تعملون » التحريم : ٧ .

و ما في قوله : « و أنا بظلّام » من نفي الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنّه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلماً كثيراً لكثرة أمثاله فإنّ الخطاب لكلّ إنسان مشرك ظالم مع قرينه ، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظلّاماً .

قوله تعالى : « يوم نقول لجهنّم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » خطاب منه تعالى لجهنّم و جواب منها ، و قد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلّم فقيل : الخطاب والجواب بلسان الحال و يردّه أنّه لو كان بلسان الحال لم يختصّ به تعالى بل كان لكلّ من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها : هل من مزيد ؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكتة ظاهرة .

و قيل : حقيقة الخطاب لخزنة جهنّم والجواب منهم و إن كانا نسبا إلى جهنّم و فيه أنّه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلّا بدليل .

و قيل : الخطاب والجواب على ظاهره ، ولا دليل يدلّ على عدم الجواز ، وقد

أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي و الأرجل و الجلود و غيرها ، و هوالوجه و قد تقدّم في تفسير سورة فصّلت أنّ العلم والشعور سار في جميع الموجودات .

و قوله : « هل امتلأت » استفهام تقريري ، و كذا قوله حكاية عنها : « هل من مزيد » و لعلّ إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أنّ قهره و عذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين و إيفاء ما يستحقّونه من الجزاء قال تعالى : « و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

و استشكل بأنّه مناف لصريح قوله تعالى : « لأملأنّ جهنّم » الآية و اُجيب بأنّ الامتلاء قد يراد به أنّه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال : البلد ممتلىء بأهله . على أنّه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها .

و قيل : الاستفهام في قوله : « هل من مزيد » للإنكار والمعنى لا مزيد أي لامكان فيّ يزيد على من اُلقي فيّ من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله : « لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين » السجدة : ١٣ ، و قوله : « هل امتلأت » في معنى أن يقال : «هل حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم» ، و قوله : «هل من مزيد» تقرير و تصديق له .

و ربّما أيّد هذا الوجه قوله تعالى قبل : « ما يبدّل القول لديّ » على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى : « لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين » .

قوله تعالى : « و اُزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد » شروع في وصف حال المتّقين يوم القيامة ، والإزلاف التقريب ، و«غير بعيد» على ماقيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد .

والمعنى و قرّبت الجنّة يومئذ للمتّقين حالكونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلّف لهم في دخولها .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون لكلّ أوّاب حفيظ » الإشارة إلى ما تقدّم من الثواب الموعود ، والأوّاب من الأوب بمعنى الرجوع ، والمراد كثرة الرجوع إلى الله

بالتوبة والطاعة ، والحفيظ هوالّذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يتركه فيضيع و قوله : « لكلّ أوّاب حفيظ » خبر بعد خبر لهذا أو حال .

قوله تعالى : « من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب » بيان لكلّ أوّاب والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائبا غير مرئيّ له ، والإنابة هو الرجوع ، والمجيء إلى ربّه بقلب منيب أن يتمّ عمره بالإنابة فيأتي ربّه بقلب متلبّس بالإنابة .

قوله تعالى : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » خطاب للمتّقين أي يقال لهم: ادخلوا بسلام أي بسلامة و أمن من كلّ مكروه و سوء ، أو بسلام من الله و ملائكته عليكم ، و قوله : « ذلك يوم الخلود » بشرى يبشّرون بها .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها و لدينا مزيد » يمكن أن يكون « فيها » متعلقاً بيشاؤن أو بمحذوف هو حال من الموصول والتقدير حال كون ما يشاؤن فيها أو من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول والتقدير ما يشاؤنه حال كونه فيها ، والأوّل أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه .

والمحصّل أنّ أهل الجنّة و هم في الجنّة يملكون كلّ ما تعلّقت به مشيّتهم و إرادتهم كائنا ما كان من غير تقييد و استثناء فلهم كلّ ما أمكن أن يتعلّق به الإرادة والمشيّة لو تعلّقت .

وقوله : « ولدينا مزيد » أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك ـ على ما يفيده السياق ـ و إذ كان لهم كلّ ما أمكن أن تتعلّق به مشيّتهم ممّا يتعلّق به علمهم من المطالب والمقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم ممّا تتعلّق به مشيّتهم لكونه فوق ما يتعلّق به علمهم من الكمال .

و قيل : المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤن من جنس ما يشتهون فإذا شاؤا رزقا اُعطوا منه أكثر ممّا شاؤا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنّه تمرّ بهم السحابة فتقول : ماذا تريدون فاُمطره عليكم فلا يريدون شيأ إلّا أمطرته عليهم .

و فيه أنّه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيّد فإنّ ظاهر قوله : « لهم ما يشاؤن

فيها » أنّهم يملكون كلّ ما يمكنهم أن يشاؤا لا تملّكهم ما شاؤه بالفعل فالمزيدو راء ما يمكن أن تتعلّق به مشيّتهم .

و قيل : المراد أنّه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها و فيه ما في سابقه .

قوله تعالى : « و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشا فنقّبوا في البلاد هل من محيص » التنقيب السير ، المحيص المحيد والمنجا .

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإنذار نظير ماجرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد و تذييله بالتخويف والانذار في قوله : « كذّبت قبلهم قوم نوح و أصحاب الرسّ و ثمود » الخ .

والمعنى و كثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشدّ بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها و تحكّموا عليها هل من محيد و منجا من إهلاك الله و عذابه ؟

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهوشهيد» القلب ما يعقل به الإنسان فيميّز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ والنافع من الضارّ فإذا لم يعقل ولم يميّز فوجوده بمنزلة عدمه إذ مالا أثر له فوجوده و عدمه سواء ، و إلقاء السمع هو الاستماع كأنّ السمع شيء يلقى إلى المسموع فيناله ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد .

والمعنى إنّ فيما أخبرنا به من الحقائق و أشرنا إليه من قصص الاُمم الهالكة لذكرى يتذكّر بها من كان يتعقّل فيدرك الحقّ و يختار ما فيه خيره و نفعه أو استمع إلى حقّ القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنّه شاهد حاضر يعي ما يسمعه .

والترديد بين من كان له قلب و من استمع شهيداً لمكان أنّ المؤمن بالحقّ أحد رجلين إمّا رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحقّ فيتفكّر فيه و يرى ما هو الحقّ فيذعن به ، و إمّا رجل لايقوى على التفكّر حتّى يميّز الحقّ والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه ، و أمّا من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيدا على ما يقال له و يلقى إليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعنّت لا قلب له ولا سمع قال تعالى : « وقالوا

لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » الملك : ١٠ .

قوله تعالى : « و لقد خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما في ستّة أيّام و ما مسّنا من لغوب » اللغوب التعب والنصب ، والمعنى ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في التوحيد بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد » قال : يا جابر تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم و سكن أهل الجنّة الجنّة و أهل النار النار جدّد الله عالما غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه و يوحّدونه و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم ، وسماء غير هذه السماء تظلّهم .

لعلّك ترى أنّ الله إنّما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أنّ الله لم يخلق بشراً غيركم والله لقد خلق ألف ألف عالم و ألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم واُولئك الآدميّين .

أقول : و روي في الخصال الشطر الأوّل من الحديث بإسناده عن محمّد بن مسلم عنه عليه السلام ، و لعلّ المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنّه ممّا ينطبق عليه .

و عن جوامع الجامع عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : كاتب الحسنات على يمين الرجل و كاتب السيّآت على شماله ، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا و إذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر .

أقول : و في معناها روايات اُخرى ، و روي ستّ ساعات بدل سبع ساعات .

و في نهج البلاغة « و جاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد » سائق يسوقها إلى محشرها و شاهد يشهد عليها بعملها .

و في المجمع و روى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال: حدّثنا أبو المتوكّل التاجر عن أبي السعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة يقول الله لي و لعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، و أدخلا في الجنّة من أحبّكما و ذلك قوله: «ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد».

أقول: و رواه شيخ الطائفة في أماليه باسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلّى الله عليه وآله.

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت و ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ ابن آدم لفي غفلة عمّا خلق له إنّ الله إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه. اكتب أثره. اكتب أجله شقيّاً أم سعيدا ثمّ يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا فيحفظه حتّى يدرك ثمّ يرتفع ذلك الملك.

ثمّ يوكّل الله به ملكين يكتبان حسناته و سيّآته فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان وجاء ملك الموت ليقبض روحه فإذا اُدخل قبره ردّ الروح في جسده و جاءه ملكا القبر فامتحناه ثمّ يرتفعان.

فإذا قامت الساعة انحطّ عليه ملك الحسنات و ملك السيّآت فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ثمّ حضرا معه وأحد سائق وآخر شهيد. ثمّ قال رسول الله ﷺ: إنّ قدّامكم لأمراً عظيماً لا تقدّرونه فاستعينوا بالله العظيم.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: «يوم نقول لجهنّم هل امتلأت و تقول هل من مزيد» قال: هو استفهام لأنّ الله وعد النار أن يملأها فتمتلىء النار ثمّ يقول لها: هل امتلأت؟ و تقول: هل من مزيد؟ على حدّ الاستفهام أي ليس في مزيد.

أقول: بناؤه على كون الاستفهام إنكاريّاً.

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير و ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال جهنّم يلقى فيها و تقول: هل من مزيد؟ حتّى تضع ربّ العزّة فيها قدمه فينزوي

بعضها إلى بعض و تقول : قط قط وعزّتك و كرمك .

ولا يزال في الجنّة فضل حتّى ينشيء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنّة.

أقول : وضع القدم على النار وقولها : قط قط مرويّ في روايات كثيرة من طرق أهل السنّة .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن فيهاو لدينامزيد » قال: النظر إلى رحمة الله .

و في الدرّ المنثور أخرج البزّاز و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه واللالكائيّ في السنّة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى : «ولدينامزيد» قال : يتجلّى لهم الربّ عزّ وجلّ .

و في الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه‌السلام : يا هشام إنّ الله يقول في كتابه : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » يعني عقل .

و في الدرّ المنثور أخرج الخطيب في تاريخه عن العوّام بن حوشب قال : سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجليه على الاُخرى فقال : لا بأس به إنّما كره ذلك اليهود زعموا أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله « و لقد خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما في ستّة أيّام و ما مسّنا من لغوب » .

أقول : و روي هذا المعنى عن الضحّاك و قتادة ، و روى هذا المعنى المفيد في روضة الواعظين في رواية ضعيفة ، و أصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستّة من أيّام الاُسبوع واقع في التوراة ، والقرآن و إن كرّر ذكر خلق الأشياء في ستّة أيّام لكنّه لم يذكر كون هذه الأيّام هي أيّام الاُسبوع ولا لوّح إليه .

و على هذه الروايات اعتمد من قال : إنّ الآية مدنيّة ، و لا دلالة في ردّها قول اليهود أن تكون نازلة بالمدينة ، وفي الآيات المكّيّة ماتعرّض سبحانه فيه لشأن اليهود كما في سورة الأعراف و غيرها .

✿✿✿

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

خاتمة السورة يأمر النبيّ صلى الله عليه وآله فيها أن يصبر على ما يقولون ممّا يرمونه بنحو السحر والجنون والشعر ، و ما يتعنّتون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى فيأمره صلى الله عليه وآله بالصبر و أن يعبد ربّه بتسبيحه وأن يتوقّع البعث بانتظار الصيحة ، وأن يذكّر بالقرآن من يخاف الله بالغيب .

قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون و سبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب » تفريع على جميع ما تقدّم من إنكار المشركين للبعث ، و من تفصيل القول في البعث والحجّة عليه ، و من وعيد المنكرين له المكذّبين للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تهديدهم بمثل ما جرى على المكذّبين من الاُمم الماضية .

وقوله : « وسبّح بحمد ربّك » الخ أمر بتنزيهه تعالى عمّا يقولون مصاحباً للحمد ومحصّله إثبات جميل الفعل له ونفي كلّ نقص وشين عنه تعالى ، والتسبيح قبل طلوع

الشمس يقبل الانطباق على صلاة الصبح ، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر .

قوله تعالى : « ومن اللّيل فسبّحه و أدبار السجود » أي ومن اللّيل فسبّحه فيه ، ويقبل الانطباق على صلاتي المغرب والعشاء .

وقوله : « وأدبار السجود » الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي إليه الشيء وبعده ، وكأنّ المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإنّ السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات ، وقيل : المراد به النوافل بعد الفرائض ، وقيل : المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل : ركعة الوتر في آخر الليل .

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » فسّروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمّناً معنى الانتظار و « يوم يناد المناد » مفعوله والمعنى وانتظر يوما ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه ، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيده الآية التالية .

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنّما هو نداء البعث وكلمة الحياة .

قوله تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحقّ ذلك يوم الخروج » بيان ليوم ينادي المنادي ، وكون الصيحة بالحقّ لأنّها مقضيّة قضاء محتوما كما مرّ في قوله : « وجاءت سكرة الموت بالحقّ » الآية .

وقوله : « ذلك يوم الخروج » أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا » المعارج : ٤٣ .

قوله تعالى : « إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا ، و بالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى عالم القبر ، وبقوله : « وإلينا المصير » الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : « يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » أصل « تشقّق » تتشقّق أي تتصدّع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي .

وقوله : « ذلك حشر علينا يسير » أي ماذكرنا من خروجهم من القبور المنشقّة عنهم سراعا جمع لهم علينا يسير .

قوله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » في مقام التعليل لقوله : « فاصبر على ما يقولون » الآية ، والجبّار المتسلّط الّذي يجبر الناس على ما يريد .

والمعنى فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزيهم بما عملوا ولست أنت بمتسلّط جبّار عليهم حتّى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكّر بالقرآن من يخاف وعيدي .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور أخرج الطبرانيّ في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبدالله عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر .

وفي المجمع روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه سئل عن قوله : « وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » فقال : تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرّات لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير .

اقول : هو مأخوذ من إطلاق التسبيح في الآية وإن كان خصوص مورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « وأدبار السجود » قال : ركعات بعد المغرب .

اقول : ورواه القمّي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ولفظه قال : أربع ركعات بعد المغرب .

وفي الدر المنثور أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أدبار النجوم والسجود فقال : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة .

اقول : وروى مثله عن ابن عباس وعمر عنه صلى الله عليه وسلم ، وأسنده في مجمع البيان إلى الحسن بن علي عليه السلام أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » قال : ذكّر يا محمد ما وعدناه من العذاب .

﴿سورة الذاريات مكيّة وهي ستّون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَ الذّٰارِيٰاتِ ذَرْواً (١) فَالْحٰامِلاٰتِ وِقْراً (٢) فَالْجٰارِيٰاتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْراً (٤) إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَصٰادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوٰاقِعٌ (٦) وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سٰاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيّٰانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النّٰارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مٰا آتٰاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كٰانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) .

﴿بيان﴾

كانت الدعوة النبويّة تدعو الوثنيّة إلى توحيد الربوبيّة وأنّ الله تعالى هو ربّهم وربّ كلّ شيء ، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصّة بالإنذار وكان الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذّبين عذاب الاستئصال ، وفي الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لو لا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانيّة والنبوّة لغىً لا أثر له .

والمشركون باتّخاذهم آلهة دون الله سبحانه شديدوا الإنكار لأُصول التوحيد والنبوّة والمعاد، وكانوا يتعنّتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أيّ طريق ممكن لما يرون أنّ في بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدء به وتختم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنّه يوم الجزاء وأنّ الله الّذي وعدهم به هو ربّهم وهو الّذي وعدهم به ووعده صدق لا ريب فيه.

ولذلك لمّا انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه احتجّت بأدلّة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس وما عاقب الله به الأمم الماضين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله، وليس إلّا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الّذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبويّة فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسّلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الإيمان به لغوا لا أثر له كما تقدّمت الإشارة إليه.

والسورة مكّيّة لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحد، ومن غرر آياتها قوله تعالى: «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون».

والفصل الّذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أنّ الجزاء الّذي وُعدوه صدق وإنكارهم له وتعنّتهم بذلك تخرّص ثمّ يصف يوم الجزاء وحال المتّقين والمنكرين فيه.

قوله تعالى: «والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسّمات أمرا» الذاريات جمع الذارية من قولهم: ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن.

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله: «والذاريات ذرواً» إقسام بالرياح المثيرة للتراب، وقوله: «فالحاملات وقراً» بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء، وقوله: «فالجاريات يسراً» عطف عليه وإقسام بالسفن

الجارية في البحار بيسر وسهولة .

وقوله : « فالمقسّمات أمراً » عطف على ماسبقه وإقسام بالملائكة الّذين يعملون بأمره فيقسّمونه باختلاف مقاماتهم فإنّ أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسّم بتقسّمهم ثمّ إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الأولى تقسّم ثانياً بتقسّمهم وهكذا حتّى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونيّة الجزئيّة فينقسم بانقسامها ويتكثّر بتكثّرها .

والآيات الأربع -كما ترى- تشير إلى عامّة التدبير حيث ذكرت اُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البرّ وهو الذاريات ذرواً ، و اُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً و اُنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجوّ وهو الحاملات وقراً ، وتمّم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسّمات أمراً .

فالآيات في معنى أن يقال : اُقسم بعامّة الأسباب الّتي يتمّم بها أمر التدبير في العالم إنّ كذا كذا ، وقد ورد من طرق الخاصّة والعامّة عن عليّ عليه أفضل السّلام تفسير الآيات الأربع بما تقدّم .

وعن الفخر الرازيّ في التفسير الكبير أنّ الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنّها كما تذرو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجوّ بيسر وتقسّم السحب على الأقطار من الأرض .

والحقّ أن ما استقربه بعيد ، وما تقدّم من المعنى أبلغ ممّا ذكره .

قوله تعالى : « إنّ ما توعدون لصادق وإنّ الدين لواقع » « ما » موصولة ، و الضمير العائد إليها محذوف أي الّذين توعدونه ، أومصدريّة ، و « توعدون » من الوعد كما يؤيّده قوله : « وإنّ الدين لواقع » الشامل لمطلق الجزاء ، وقيل : من الإيعاد كما يؤيّده قوله : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » ق : ٤٥ .

وعدّ الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله : « في عيشة راضية » الحاقة: ٢١ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله : « في عيشة راضية » والدين الجزاء.

وكيف كان فقوله : « إنّ ما توعدون لصادق » جواب القسم ، وقوله : « وإنّ

الدين لواقع » معطوف عليه بمنزلة التفسير ، والمعنى اُقسم بكذا و كذا أنّ الّذي توعدونه ـ و هو الّذي يعدهم القرآن أو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بما اُنزل إليه ـ من يوم البعث و أنّ الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً لصادق ، و إنّ الجزاء لواقع .

قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك » الحبك بمعنى الحسن والزينة ، وبمعنى الخلق المستوي ، و يأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق الّتي تظهر على الماء إذا تثنّى و تكسّر من مرور الرياح عليه .

والمعنى على الأوّل : اُقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى : « إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافّات : ٦ ، وعلى الثاني : اُقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله : « والسماء بنيناها بأيد » الآية ٤٧ من السورة و على الثالث اُقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » المؤمنون : ١٧ .

ولعلّ المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الّذي هو اختلاف الناس وتشتّت طرائقهم كما أنّ الأقسام السابقة : « والذاريات ذرواً » الخ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها : « إنّما توعدون » الخ المتضمّن لمعنى الرجوع إلى الله والسير إليه .

قوله تعالى : « إنّكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من اُفك » القول المختلف ما يتناقض و يدفع بعضه بعضا و حيث إنّ الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبيّ صلى الله عليه وآله فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف ـ على الأقرب ـ قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته فتارة يقولون : إنّه سحر والجائي به ساحر ، و تارة يقولون : زجر والجائي به مجنون ، و تارة يقولون : إلقاء شياطين الجنّ والجائي به كاهن ، و تارة يقولون : شعر والجائي به شاعر ، و تارة إنّه افتراء ، و تارة يقولون إنّما يعلّمه بشر و تارة يقولون : أساطير الأوّلين اكتتبها .

و قوله : « يؤفك عنه من اُفك » الإفك الصرف ، و ضمير « عنه » إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء ، والمعنى يصرف عن القرآن من صرف ، و

قيل : الضمير للنبيّ صلى الله عليه وآله والمعنى يُصرف عن الايمان به من صرف ، و قد عرفت أنّ المعنى السابق أوفق للسياق و إن كان مآل المعنيين واحداً .

و حكي عن بعضهم أنّ ضمير « عنه » لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أوّلاً بالذاريات و غيرها على أنّ البعث والجزاء حقّ ثمّ أقسم بالسماء على أنّهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاكّ و منهم جاحد ثمّ قال تعالى : يؤفك عن الاقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك . و هذا الوجه قريب من الوجه السابق .

و عن بعضهم أنّ الضمير لقول مختلف و « عن » للتعليل كما في قوله تعالى: «وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك» هود : ٥٣ فيكون الجملة صفة لقول والمعنى إنّكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من اُفك ، و هو وجه حسن .

و قيل : الضمير في « إنّكم » للمسلم والكافر جميعاً فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفّار بعدم الوقوع . ولعلّ السياق لايلائمه و قيل : بعض وجوه اُخر رديئة لا جدوى في التعرّض له .

قوله تعالى : « قتل الخرّاصون الّذين هم في غمرة ساهون يسألون أيّان يوم الدين » أصل الخرص القول بالظنّ والتخمين من غير علم ، و لكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمّى الكذّاب خرّاصا ، والأشبه أن يكون المراد بالخرّاصين في الآية القوّالين من غير علم و دليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم .

و في قوله : « قتل الخرّاصون » دعاء عليهم بالقتل و هو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح و إليه يؤل قول من فسّره باللعن .

و قوله : « الّذين هم في غمرة ساهون » الغمرة - كما ذكر الراغب - معظم الماء الساتر لمقرّها ، وجعل مثلا للجهالة الّتي تغمر صاحبها ، والمراد بالسهو - كما قيل - مطلق الغفلة .

و معنى الآية و هي تصف الخرّاصين : الّذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقّيّة ما اُخبروا به .

و قوله : « يسألون أيّان يوم الدين » ضمير الجمع للخرّاصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » يس : ٤٨ .

والسؤال بأيّان ـ الموضوعة للسؤال عن زمان مدخولها ـ عن يوم الدين و هو ظاهر في الزمان إنّما هو بعناية أنّ يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيّات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيّات بأيّان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ناشأن ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

و يمكن أن يكون من التوسّع في معنى الظرفيّة بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصّة به ظرفا توسّعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنّه بعد أيّ زمان أو قبل أيّ زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنّه بعد عشرة أيّام مثلاً أو قبل يوم كذا ، و هو توسّع جار في العرف غير مختصّ بكلام العرب ، و في القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » ضمير الجمع للخرّاصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثمّ استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب، والظرف متعلّق بفعل محذوف أو مبتدء ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أنّ وقته من الغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله قال تعالى : « لا يجلّيها لوقتها إلّا هو » .

و تقدير الآية و معناها : يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخرّاصون في النار يعذّبون أو يحرقون .

قوله تعالى : « ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون » حكاية خطاب منه تعالى أو من الملئكة بأمره للخرّاصين و هم يفتنون على النار يومئذ .

والمعنى يقال لهم ذوقوا العذاب الّذي يخصّكم . هذا العذاب هو الّذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالاً و استهزاءً : أيّان يوم الدين .

قوله تعالى : « إنّ المتّقين في جنّات و عيون » بيان لحال المتّقين يوم الدين بعد وصف حال اُولئك الخرّاصين .

و تنكير جنّات و عيون للإشارة إلى عظم قدرها كأنّها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها ، و قد اُلحقت العيون بالجنّات في ظرفيّتها توسّعا .

قوله تعالى : « آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين » أي قابلين ما أعطاهم ربّهم الرؤف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيده خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء و نسبة الإيتاء إلى ربّهم .

و قوله : « إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين » تعليل لما تقدّمه أي إنّ حالهم تلك الحال لأنّهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة.

قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » الآيات تفسير لإحسانهم ، و الهجوع النوم في الليل و قيل : النوم القليل .

و يمكن أن تكون : ما زائدة و « يهجعون » خبر كانوا ، و « قليلا » ظرفاً متعلّقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعا قليلا « و من الليل» متعلّقا بقليلا والمعنى كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوماً قليلاً .

وأن تكون موصولة والضمير العائد إليها محذوفا و« قليلاً » خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى كانوا قليلاً من الليل الّذي يهجعون فيه .

و أن تكون مصدريّة والمصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلاً لقوله:«قليلا» و هو خبر « كانوا » .

و على أيّ حال فالقليل من الليل إمّا مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كلّ ليلة فيفيد أنّهم يهجعون كلّ ليلة زمانا قليلاً منها و يصلّون أكثرها ، و إمّا مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي فيفيد أنّهم يهجعون في قليل من الليالي و يقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلّا في قليل من الليالي .

قوله تعالى : « و بالأسحارهم يستغفرون » أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم ، و قيل : المراد بالاستغفار الصلاة و هو كما ترى .

قوله تعالى : « و في أموالهم حقّ للسائل و المحروم» الآيتان السابقتان تبيّنان خاصّة سيرتهم في جنب الله سبحانه و هي قيام اللّيل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآية

تبيّن خاصّة سيرتهم في جنب الناس و هي إيتاء السائل و المحروم .

و تخصيص حقّ السائل و المحروم بأنّه في أموالهم ـ مع أنّه لو ثبت فإنّما يثبت في كلّ مال ـ دليل على أنّ المراد أنّهم يرون بصفاء فطرتهم أنّ في أموالهم حقّاً لهما فيعملون بما يعملون نشراً للرحمة و إيثاراً للحسنة .

و السائل هو الّذي يسأل العطيّة بإظهار الفاقة و المحروم هو الّذي حرم الرزق فلم ينجح سعيه في طلبه و لا يسأل تعفّفاً .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبدالله عليه‌السلام في قوله تعالى : « و الذاريات ذرواً » فقال : إنّ ابن الكوّا سأل أمير المؤمنين عليه‌السلام عن « الذاريات ذرواً » قال : الريح ، و عن « فالحاملات وقراً » فقال : هي السحاب ، و عن « فالجاريات يسرا » فقال : هي السفن ، وعن «فالمقسّمات أمرا » فقال : الملائكة .

أقول : و الحديث مرويّ من طرق أهل السنّة أيضا كما في روح المعاني .

و في الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق و الفاريابيّ و سعيد بن منصور و الحارث ابن أبي اُسامة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الأنباريّ في المصاحف و الحاكم و صحّحه و البيهقيّ في شعب الإيمان من طرق عن عليّ بن أبي طالب في قوله : « و الذاريات ذروا » قال : الرياح « فالحاملات وقراً» قال : السحاب «فالجاريات يسرا » قال : السفن «فالمقسّمات أمرا » قال : الملائكة .

و في المجمع قال أبو جعفر و أبوعبدالله عليهما‌السلام : لا يجوز لأحد أن يقسم إلّا بالله تعالى ، و الله يقسم بماشاء من خلقه .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن منيع عن عليّ بن أبي طالب أنّه سئل عن قوله : « و السماء ذات الحبك » قال : ذات الخلق الحسن .

أقول : و روى مثله في المجمع ولفظه : وقيل : ذات الحسن و الزينة عن عليّ

عليه السلام ، و في جوامع الجامع و لفظه : و عن علي عليه السلام حسنها و زينتها .

و في بعض الأخبار في قوله تعالى : «إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك» تطبيقه على الولاية .

و في المجمع في قوله تعالى : «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون» و قيل معناه : كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها و هو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .

و فيه في قوله تعالى : « و في الأسحارهم يستغفرون » و قال أبوعبدالله عليه السلام : كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله لأن الله يقول : « و بالأسحار هم يستغفرون » .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : «وبالأسحارهم يستغفرون» قال : يصلون .

اقول : لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتمال الوتر عليه كإرادة الصلاة من القرآن في قوله : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجركان مشهودا » أسرى : ٧٨ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » قال : السائل الذي يسأل ، والمحروم الذي قد منع كده .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال : المحروم المحارف الذي قد حرم كد يده في الشراء والبيع .

قال : وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قال : المحروم الرجل ليس بعقله بأس ولا يبسط له في الرزق وهو محارف .

✩ ✩ ✩

وفي الارض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١)
وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والارض انه
لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣) هل أتيك حديث ضيف ابراهيم
المكرمين (٢٤) اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم
منكرون (٢٥) فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربه اليهم
قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشروه
بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز
عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم (٣٠) قال
فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا انا ارسلنا الى قوم
مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك
للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا
فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون
العذاب الأليم (٣٧) وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان
مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه
وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد اذ أرسلنا

عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى عدّة من آيات الله الدالّة على وحدانيّته في الربوبيّة ورجوع أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم إليه ، ولازمه إمكان نزول الدين الإلهي من طريق الرسالة بل وجوبه ، ولازمه صدق الدعوة النبويّة فيما تضمّنته من وعد البعث والجزاء وأنّ مايوعدون لصادق وأنّ الدين لواقع ، وقد مرّت إشارة إلى خصوصيّة سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق .

قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله : « ففرّوا إلى الله ـ إلى أن قال ـ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » الآية يشهد على أنّ سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيّته تعالى في الربوبيّة لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه ونحو ذلك .

و في الآية إشارة إلى ما تتضمّنه الأرض من عجائب الآيات الدالّة على وحدة التدبير القائمة بوحدانيّة مدبّره من برّ و بحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن ومنافعها المتّصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بهاما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمرّ من غير اتّفاق و صدفة ، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دالّ على أنّ خلقها و تدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبّر قادر عليم حكيم .

فأىّ جانب قصدمن جوانبها وأيّة وجهة ولّيت من جهات التدبير العامّ الجاري فيها كانت آية بيّنة و برهانا ساطعاً على وحدانيّة ربّها لا شريك له ينجلي فيه الحقّ لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين .

قوله تعالى : « و في أنفسكم أفلا تبصرون » معطوف على قوله : « في الأرض » أي و في أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها و ركز النظر فيها أفلاتبصرون .

والآيات الّتي في النفوس منها ماهي في تركّب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتّى ينتهي إلى البسائط و مالها من عجائب الأفعال والآثار المتّحدة في عين تكثّرها المدبّرة جميعاً لمدبّر واحد ، و ما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينيّة والطفوليّة والرهاق والشباب والشيب .

و منها ما هي من حيث تعلّق النفوس أعني الأرواح بها كالحواسّ من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس الّتي هي الطرق الأوّليّة لاطّلاع النفوس على الخارج لتميّز بذلك الخير من الشرّ والنافع من الضارّ لتسعى إلى ما فيه كمالها و تهرب ممّا لا يلائمها ، و في كلّ منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لاخبرعنده عمّا يعمله السمع بنظامه الجاري فيه و هكذا ، والجميع مع هذا الانفصال والتقطّع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبّر واحد هو النفس المدبّرة والله من ورائهم محيط .

و من هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوّة الغضبيّة والقوّة الشهويّة و مالها من اللواحق والفروع فإنّها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة و انفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبّر واحد تتعاضد جميع شعبها و تأتلف لخدمته .

و نظام التدبير الّذي لكلّ من هذه المدبّرات إنّما وجد له حينما وجد وأوّل ما ظهر من غير فصل فليس ممّا عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر ورويّة أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبيره .

ومنها الآيات الروحانيّة الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله الّتي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلّع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأنعام: ٧٥.

قوله تعالى : « و في السماء رزقكم و ما توعدون » قيل : المراد بالسماء جهة العلو فإنّ كلّ ما علاك و أظلّك فهو سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر الّذي ينزّله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى :« و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » الجاثية : ٥ فسمّى المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم .

و قيل : المراد أسباب الرزق السماويّة من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة و توالي الليل والنهار و هي جميعا أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوّز بدعوى أنّ وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب .

و قيل : المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها ، أو أنّ الأرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها .

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإنّ الأشياء و منها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرّح بذلك في أشياء كقوله تعالى : « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» الزمر : ٦ و قوله : « و أنزلنا الحديد فيه بأس شديد» الحديد : ٢١ ، و قوله على نحو العموم : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢٥ والمراد بالرزق كلّ ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل و مشرب و ملبس و مسكن و منكح و ولد و علم و قوّة و غير ذلك .

و قوله : « و ما توعدون » عطف على « رزقكم » الظاهر أنّ المراد به الجنّة لقوله تعالى : « عندها جنّة المأوى » النجم : ١٥ ، و قول بعضهم : إنّ المراد به الجنّة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى : « إنّ الّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط » الأعراف : ٤٠ .

نعم تكرّر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيويّ إلى السماء كقوله : «فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السماء » البقرة : ٥٩ و غير ذلك .

و عن بعضهم أنّ قوله : « و ما توعدون » مبتدء خبره قوله : « فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ » والواو للاستئناف و هو معنى بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون » النطق التكلّم وضمير « إنّه » راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحقّ هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهيّ دون أن يكون أمراً تبعيّاً أو اتّفاقيّاً .

والمعنى اُقسم بربّ السماء والأرض إنّ ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنّة ـ وهو أيضاً من الرزق فقد تكرّر في القرآن تسمية الجنّة رزقاً كقوله : « لهم مغفرة ورزق كريم » الأنفال : ٧٤ وغير ذلك ـ في السماء لثابت مقضيّ مثل نطقكم وتكلّمكم الّذي هو حقّ لا ترتابون فيه .

وجوّز بعضهم أن يكون ضمير « إنّه » راجعاً إلى « ما توعدون » فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله : « وإنّ الدين لواقع » أو إلى اليوم في قوله : « أيّان يوم الدين » أو إلى جميع ما تقدّم من أوّل السورة إلى ههنا ، ولعلّ الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » كما قدّمنا .

﴿ كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق ﴾

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمدّ شيأ آخر في بقائه بانضمامه إليه أو لحوقه به بأيّ معنى كان كالغذاء الّذي يمدّ الإنسان في حياته وبقائه بصيرورته جزءً من بدنه وكالزوج يمدّ زوجه في إرضاء غريزته وبقاء نسله وعلى هذا القياس .

ومن البيّن أنّ الأشياء المادّيّة يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلا فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنّها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة إليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة إليه وإن كان ربّما تغيّرت الأسماء فكما أنّ الإنسان يصير بالتغذّي ذا أجزاء جديدة في بدنه كذلك الغذاء يصير جزءً جديدا من بدنه اسمه كذا .

ومن البيّن أيضاً أنّ القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعيّن به ما يجري على كلّ شيء في نفسه وأطوار وجوده ، وبعبارة اُخرى سلسلة الحوادث بما لها من النظام الجاري مؤلّفة من علل تامّة ومعلولات ضروريّة .

ومن هنا يظهر أنّ الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلا معنى لموجود يطرء عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أو لحوقه إلّا مع وجود الشيء المنضمّ أو اللّاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمدّ في بقائه ولا رزق له ، ولا معنى لرزق متحقّق ولا مرزوق له كما لا معنى لزياده الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق ، وكذا لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولا أوّليّا لا بالعرض ولا بالتبع وهو المعنيّ بكون الرزق حقّا .

☆ ☆ ☆

قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » إشارة إلى قصّة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجه ثمّ إهلاكهم قوم لوط ، وفيها آية على وحدانيّة الربوبيّة كما تقدّمت الإشارة إليه .

وفي قوله : « هل أتاك حديث » تفخيم لأمر القصّة و «المكرمين» ـ وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم ـ صفة « ضيف » وإفراده لكونه في الأصل مصدرا لا يثنّى ولا يجمع .

قوله تعالى : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » الظرف متعلّق بقوله في الآية السابقة : « حديث » و « سلاماً » مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا : نسلّم عليك سلاماً .

وقوله : « قال سلام » قول ومقول و « سلام » مبتدء محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم ، وفي إتيانه بالجواب جملة اسميّة دالّة على الثبوت تحيّة منه عليه السلام بما هو أحسن من تحيّتهم بقولهم : سلاماً فانّه جملة فعليّة دالّة على الحدوث .

وقوله : « قوم منكرون » الظاهر أنّه حكاية قول إبراهيم في نفسه ، ومعناه أنّه لمّا رآهم استنكرهم وحدّث نفسه أنّ هؤلاء قوم منكرون ، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى : «فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » هود : ٧٠ حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ إليهم فإنّ ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد منه ذلك .

وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسّرين : إنّه حكاية قوله عليه السلام لهم و التقدير أنتم قوم منكرون .

قوله تعالى : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » الروغ الذهاب على سبيل الاحتيال على ما قاله الراغب و قال غيره : هو الذهاب إلى الشيء في خفية ، و المعنى الأوّل يرجع إلى الثاني .

و المراد بالعجل السمين المشويّ منه بدليل قوله : « فقرّبه إليهم » أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشوّاه وقرّبه إليهم .

قوله تعالى : « فقرّبه إليهم فقال ألا تأكلون » عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً .

قوله تعالى : « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف الخ » الفاء فصيحة و التقدير

فلم يمدّوا إليه أيديهم فلمّا رآى ذلك نكرهم و أوجس منهم خيفة ، و الإيجاس الإحساس في الضمير و الخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعاً من الخوف .

وقوله : « قالوا لا تخف » جيء بالفصل لا بالعطف لأنّه في معنى جواب سؤال مقدّر كأنّه قيل : فما ذا كان بعد إيجاس الخيفة فقيل : قالوا : لاتخف و بشّروه بغلام عليم فبدّلوا خوفه أمنة و سرورا و المراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق و قد تقدّم الخلاف فيه .

قوله تعالى : « فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها و قالت عجوز عقيم » في المجمع الصرّة شدّة الصياح وهو من صرير الباب و يقال للجماعة صرّة أيضاً . قال : والصكّ الضرب باعتماد شديد انتهى .

و المعنى فأقبلت امرأة إبراهيم عليه السلام - لمّا سمعت البشارة - في ضجّة و صياح فلطمت وجهها و قالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً ؟

وقيل : المراد بالصرّة الجماعة و أنّها جاءت إليهم في جماعة فصكّت وجهها وقالت ما قالت ، والمعنى الأوّل أوفق للسياق .

قوله تعالى : « قالواكذلك قال ربّك إنّه هوالحكيم العليم » الإشارة بكذلك إلى ما بشّروها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلها شيخ مسّه الكبر فربّها حكيم لايريد ما يريد إلّا بحكمة ، عليم لايخفى عليه وجه الأمر .

قوله تعالى : « قال فماخطبكم أيّها المرسلون - إلى قوله - للمسرفين» الخطب الأمر الخطير الهامّ ، والحجارة من الطين الطين المتحجّر ، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة .

والمعنى « قال » إبراهيم عليه السلام « فما خطبكم » والشأن الخطير الّذي لكم «أيّها المرسلون » من الملائكة « قالوا » أي الملائكة لإبراهيم «إنّا اُرسلنا إلى قوم مجرمين» وهم قوم لوط «لنرسل عليهم حجارة من طين» طيناً متحجّراً سمّاه الله سجّيلا «مسوّمة »

معلّمة « عند ربّك للمسرفين » تختصّ بهم لا بإهلاكهم ، والظاهر أنّ اللاّم في المسرفين للعهد .

قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ـ إلى قوله ـ العذاب الأليم » الفاء فصيحة وقد اُوجز بحذف ما في القصّة من ذهاب الملائكة إلى لوط و ورودهم عليه وهمّ القوم بهم حتّى إذا أخرجوا آل لوط من القرية ، وقد فصّلت القصّة في غير موضع من كلامه تعالى .

فقوله : « فأخرجنا » الخ بيان إهلاكهم بمقدّمته ، وضمير « فيها » للقرية المفهومة من السياق ، و « بيت من المسلمين » بيت لوط ، وقوله : « وتركنا فيها آية » إشارة إلى إهلاكهم و جعل أرضهم عاليها سافلها ، والمراد بالترك الإبقاء كناية و قد بيّنت هذه الخصوصيّات في سائر كلامه تعالى .

والمعنى : فلمّا ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان « أخرجنا من كان فيها » في القرية « من المؤمنين فما وجدنا غير بيت » واحد « من المسلمين » وهم آل لوط « و تركنا فيها » في أرضهم بقلبها وإهلاكهم « آية » دالّة على ربوبيّتنا وبطلان الشركاء « للّذين يخافون العذاب الأليم » من الناس .

قوله تعالى : « و في موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » عطف على قوله : « و تركنا فيها آية » و التقدير و في موسى آية ، و المراد بسلطان مبين الحجج الباهرة الّتي كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى : « فتولّى بركنه و قال ساحر أو مجنون » التولّي الإعراض والباء في قوله بركنه للمصاحبة ، و المراد بركنه جنوده كما يؤيّده الآية التالية ، و المعنى أعرض مع جنوده ، و قيل : الباء للتعدية و المعنى جعل ركنه متولّين معرضين .

و قوله : « و قال ساحر أو مجنون » أي قال تارة هو مجنون كقوله : « إنّ رسولكم الّذي اُرسل إليكم لمجنون » الشعراء : ٢٧ ، و قال اُخرى : هو ساحر كقوله : « إنّ هذا لساحر عليم » الشعراء : ٣٤ .

قوله تعالى : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ و هو مليم » النبذ طرح الشيء

من غير أن يعتدّ به ، و اليمّ البحر ، و المليم الآتي بما يلام عليه من ألامَ بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

و المعنى فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم في البحر و الحال أنّه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه ، و إنّما خصّ فرعون بالملامة مع أنّ الجميع يشاركونه فيها لأنّه إمامهم الّذي قادهم إلى الهلاك قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » هود : ٩٨ .

و في الكلام من الإيماء إلى عظمة القدرة و هول الأخذ و هوان أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى : « و في عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » عطف على ما تقدّمه أي و في عاد أيضا آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم .

و الريح العقيم هي الريح الّتي عقمت و امتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل و إنّما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « ما تذر من شيء أتت عليه إلّا جعلته كالرميم » « ما تذر » أي ما تترك ، و الرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و في ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين - إلى قوله - منتصرين » عطف على ما تقدّمه أي و في ثمود أيضا آية إذ قيل لهم : تمتّعوا حتّى حين ، و القائل نبيّهم صالح عليه السلام إذ قال لهم : « تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب » هود : ٦٥ قال لهم ذلك لمّا عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيّام ليرجعوا فيها عن كفرهم و عتوّهم لكن لم ينفعهم ذلك و حقّ عليهم كلمة العذاب .

و قوله : « فعتوا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون » العتوّ - على ما ذكره الراغب - النبوّ عن الطاعة فينطبق على التمرّد ، و المراد بهذا العتوّ العتوّ عن الأمر و الرجوع إلى الله أيّام المهلة فلا يستشكل بأنّ عتوّهم عن أمر الله كان مقدّماً على تمتّعهم - كما يظهر من تفصيل القصّة - و الآية تدلّ على العكس .

و قوله : « فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون » هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله : « و أخذ الّذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ لجواز تحقّقهما معافي عذابهم .

و قوله : « فمااستطاعوامن قيام و ماكانوامنتصرين » لايبعد أن يكون «استطاعوا» مضمّنا معنى تمكّنوا ، و « من قيام » مفعوله أي ما تمكّنوا من قيام من مجلسهم ليفرّوا من عذاب الله و هو كناية عن أنّهم لم يمهلوا حتّى بمقدارأن يقوموا من مجلسهم .

و قوله : « و ما كانوا منتصرين » عطف على «ما استطاعوا» أي ما كانوامنتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم ، ومحصّل الجملتين أنّهم لم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنّهم كانوا قوما فاسقين » عطف على القصص السابقة ، و « قوم نوح » منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنّهم كانوا فاسقين عن أمر الله .

فهناك أمر ونهي كلّف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربّهم وربّ كلّ شيء دعاهم إلى الدين الحقّ بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حقّ من عندالله وممّا جاؤا به الوعد بالبعث والجزاء .

قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدوإنّا لموسعون » رجوع إلى السياقالسابق في قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ ، والأيد القدرة والنعمة ، وعلى كلّ من المعنيين يتعيّن لقوله : « وإنّا لموسعون » ما يناسبه من المعنى .

فالمعنى على الأوّل : والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنّا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء ، وعلى الثاني : والسماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمة لاتقدّر بقدر وإنّا لذو واسعة وغنى لا تنفد خزائننا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسّع الرزق كيف نشاء .

ومن المحتمل أن يكون « موسعون » من أوسع في النفقة أى كثّرها فيكون

المراد توسعة خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضيّة اليوم .

قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطناها وسطّحناها لتستقرّوا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن ، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كريّة الأرض .

قوله تعالى : « ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون » الزوجان المتقابلان يتمّ أحدهما بالآخر : فاعل ومنفعل كالذكر والأُنثى ، وقيل : المراد مطلق المتقابلات كالذكر والأُنثى والسماء والأرض والليل والنهار والبرّ والبحر والإنس والجنّ وقيل : الذكر والأُنثى .

وقوله : « لعلّكم تذكّرون » أي تتذكّرون أنّ خالقها منزّه عن الزوج والشريك واحد موحّد .

قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله إنّي لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنّي لكم منه نذير مبين » في الآيتين تفريع على ما تقدّم من الحجج على وحدانيّته في الربوبيّة والأُلوهيّة ، وفيها قصص عدّة من الأُمم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال .

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر والعقاب الّذي يستتبعه ، بالإيمان به تعالى وحده واتّخاذه إلهاً معبوداً لا شريك له .

وقوله : « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » كالتفسير لقوله : «ففرّوا إلى الله » أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الأُلوهيّة والمعبوديّة .

وقد كرّر قوله : « إنّي لكم منه نذير مبين » لتأكيد الإنذار ، والآيتان محكيّتان عن لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : خلقك سميعا بصيرا ، تغضب مرّة وترضى مرّة ، وتجوع مرّة وتشبع مرّة ، وذلك كلّه من آيات الله .

اقول : ونسبه في المجمع إلى الصادق عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى هشام بن سالم قال : سئل أبو عبدالله عليه السلام فقيل له : بما عرفت ربّك ؟ قال : بفسخ العزم ونقض الهمّ عزمت ففسخ عزمي ، وهممت فنقض همّي .

اقول : ورواه في الخصال عنه عن أبيه عن جدّه عن أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج الخرائطيّ في مساوي الأخلاق عن عليّ بن أبي طالب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : سبيل الغائط والبول .

اقول : الرواية كالروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفة .

وفيه أخرج ابن النقور والديلميّ عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : المطر .

اقول : وروى نحواً منه القمّيّ في تفسيره مرسلاً ومضمراً .

وفي إرشاد المفيد عن عليّ عليه السلام في حديث : اطلبوا الرزق فإنّه مضمون لطالبه .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي البختريّ قال : حدّثني جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : يا عليّ إنّ اليقين أن لا ترضى أحدا على سخط الله ، ولا تحمدنّ أحداً على ما آتاك الله ، ولا تذمّنّ أحداً على ما لم يؤتك الله فإنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص ، ولا يصرفه كره كاره . الحديث .

وفي المجمع « فأقبلت امرأته في صرّة » وقيل : في جماعة . عن الصادق عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج الفاريابيّ وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : الريح العقيم النكباء .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمّد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت : قول الله عزّ وجلّ « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ » ؟ فقال : اليد في كلام العرب القوّة والنعمة قال الله : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » وقال : « والسماء بنيناها بأيد» أي بقوّة وقال : « وأيّدهم بروح منه » أي بقوّة ويقال : لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام خطبة طويلة وفيها : بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له ، وبمضادّته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، واليبس بالبلل ، والخشن باللين ، والصرد بالحرور ، مؤلّفاً بين متعادياتها ، مفرّقاً بين متدانياتها ، دالّة بتفريقها على مفرّقها ، وبتأليفها على مؤلّفها وذلك قوله : « ومن كلّ شيء جعلنا زوجين لعلّكم تذكّرون » .

ففرّق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرّزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » وقيل : معناه حجّوا . عن الصادق عليه السلام .

اقول : ورواه في الكافي وفي المعاني بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ولعلّه من التطبيق .

✡ ✡ ✡

كَذٰلِكَ مٰا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ اِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوٰاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمٰا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكِّرْ فَاِنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلاّٰ لِيَعْبُدُونَ (٥٦) مٰا اُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مٰا اُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) اِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَاِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحٰابِهِمْ فَلاٰ يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠).

﴿بيان﴾

مختتم السورة و فيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتتحها من إنكارهم للبعث الموعود و مقابلتهم الرسالة بقول مختلف ثمّ إيعادهم باليوم الموعود.

قوله تعالى: «كذلك ما أتى الّذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحر أو مجنون» أي الأمر كذلك فقوله: «كذلك» كالتلخيص لمّا تقدّم من إنكارهم واختلافهم في القول.

و قوله: «ما أتى الّذين من قبلهم» الخ بيان للمشبّه.

قوله تعالى: «أتواصوا به بل هم قوم طاغون» التواصي إيصاء القوم بعضهم بعضاً بأمر، و ضمير «به» للقول، والاستفهام للتعجيب، والمعنى هل وصّى بعض هذه الاُمم بعضاً ـ هل السابق وصّى اللاّحق؟ ـ على هذا القول؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم

إلى هذا القول طغيانهم .

قوله تعالى : « فتولّ عنهم فما أنت بملوم » تفريع على طغيانهم و استكبارهم و إصرارهم على العناد واللجاج فالمعنى فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلّا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلّا عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحقّ فما أنت بملوم فقد أريت المحجّة و أتممت الحجّة .

قوله تعالى : « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين » تفريع على الأمر بالتولّي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدال معهم ، و المعنى و استمرّ على التذكير والعظة فذكّر كما كنت تذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع اُولئك الطاغين فإنّه لا ينفعهم شيأ ولا يزيدهم إلّا طغياناً و كفراً .

قوله تعالى : « وماخلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » فيه التفات من سياق التكلّم بالغير إلى التكلّم وحده لأنّ الأفعال المذكورة سابقا المنسوبة إليه تعالى كالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب كلّ ذلك ممّا يقبل توسيط الوسائط كالملائكة و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد فإنّه أمر يختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد

و قوله : « إلّا ليعبدون » استثناء من النفي لاريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضا و أنّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال : ليعبدون و لم يقل : لأعبد أولأكون معبوداً لهم .

على أنّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض و يرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتّى يستكمل به و يرتفع به حاجته ، ومن جهة اُخرى الفعل الّذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهيّ ويستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه ، و أنّ لفعله غرضا يعود إلى نفس الفعل (١) و هو كمال للفعل لا لفاعله ، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان و كمال عائد إليه هي و ما

(١) فالله تعالى خلق الانسان ليثيبه والثواب عائد الى الانسان وهوالمنتفع به والله غنى عنه ، و اما غرضه تعالى فهوذاته المتعالية وانما خلقه لانه الله عزاسمه . منه .

يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة و غير ذلك ، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسّطاً .

فإن قلت : ما ذكرته من حمل اللاّم في « ليعبدون » على الغرض يعارضه قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم » هود : ١١٩ ، وقوله: « ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ و الإنس » الأعراف : ١٧٩ فإنّ ظاهر الآية الأولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف ، و ظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجنّ والإنس دخول جهنّم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللاّم على الغرض و حملها على الغاية .

قلت : أمّا الآية الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف ، و أمّا الآية الثانية فاللاّم فيها للغرض لكنّه غرض تبعيّ و بالقصد الثاني لا غرض أصليّ و بالقصد الأوّل و قد تقدّم إشباع الكلام في تفسير الآيتين .

فإن قلت : لو كان اللاّم في « ليعبدون » للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقة ، و من المحال أن يتخلّف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عياناً أنّ كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى و هذا نعم الدليل على أنّ اللاّم في الآية ليست للغرض أو أنّها للغرض لكنّ المراد بالعبادة العبادة التكوينيّة كما في قوله : « و إن من شيء إلاّ يسبّح بحمده » أسرى : ٤٤ .

أو أنّ المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيار و عقل و استطاعة ، و تنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعليّة مجاز شائع كما يقال : خُلق البقر للحرث ، والدار للسكنى .

قلت : الإشكال مبنيّ على كون اللاّم في الجنّ والإنس للاستغراق فيكون تخلّف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتخلّفاً من الغرض ، والظاهر أنّ اللاّم فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقّق للغرض لا يضرّه تخلّفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلاناً للغرض ، ولله سبحانه في النوع غرض كما أنّ له في الفرد غرضاً .

وأمّا حمل العبادة على العبادة التكوينيّة فيضعّفه أنّها شأن عامّة المخلوقات لاموجب لتخصيصه بالجنّ والإنس مضافاً إلى أنّ السياق سياق توبيخ الكفّار على ترك عبادة الله التشريعيّة وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلّق بالعبادة التشريعيّة دون التكوينيّة .

وأمّا حمل العبادة على الصلوح و الاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجنّ و الإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدّان لها أولتعلّق الأمر والنهي العباديّين فيضعّفه أنّ من البيّن أنّ الصلوح و الاستعداد إنّما يتعلّق به الطلب لأجل الفعليّة الّتي يتعلّق بهالصلوح و الاستعداد فلوكان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلّق الأمر والنهي العباديّين فقد تعلّق الغرض أوّلاً بفعليّة عبادتهما ثمّ بالصلوح والاستعداد لمكان المقدّميّة .

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أوّلاً وبالذات نفس العبادة ثمّ الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لوكان هناك إشكال .

فالحقّ أنّ اللاّم في «الجنّ والإنس» للجنس دون الاستغراق ، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد ، ولوكان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أنّ نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي ربّ العالمين بذلّة العبوديّة وفقر المملوكيّة المحضة قبال العزّة المطلقة والغنى المحض كما ربّما استفيد من قوله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم » الفرقان : ٧٧ . حيث بدّل العبادة دعاءً .

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلّة والعبوديّة وتوجيه وجهه إلى مقام ربّه ، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة .

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كلّ شيء ويذكر ربّه .

هذا ما يعطيه التدبّر في قوله تعالى : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون »

ولعلّ تقديم الجنّ على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ ، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدّم .

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبده كما يفيده أيضاً قوله : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولا دعاؤكم » .

قوله تعالى : « ما اُريد منهم من رزق وما اُريد أن يطعمون » الإطعام إعطاء الطعام ليطعم و يؤكل قال تعالى : « والّذي هو يطعمني و يسقين » الشعراء : ٧٩ ، وقال : « الّذي أطعمهم من جوع » الإيلاف : ٤ فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لتعلّق عناية خاصّة به و هي أنّ التغذّي أوسع حوائج الإنسان و غيره و أخصّها لكونه مسبوقاً بالجوع وملحوقا بالدفع .

وقيل : المراد بالرزق رزق العباد و المعنى ما اُريد منهم أن يرزقوا عبادي الّذين أرزقهم وما اُريد أن يطعموني نفسي .

وقيل : المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدّم العبد الطعام إلى سيّده و الخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق و بالإطعام تقديم ما حصّلوه والمعنى ما اُريد منهم رزقا يحصّلونه لي فأرتزق به وما اُريد منهم أن يقدّموا إليّ ما أرتزق به وأطعمه .

قوله تعالى : « إنّ الله هو الرزّاق ذوالقوّة المتين » تعليل لقوله : « ما اُريد منهم من رزق » الخ والالتفات في الآية من التكلّم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الّذي منه يبتدىء كلّ شيء وإليه يرجع كأنّه قال : ما اُريد منهم رزقاً لأنّي أنا الرزّاق لأنّي أنا الله تبارك اسمه .

والتعبير بالرزّاق - اسم مبالغة - و كان الظاهر أن يقال : إنّ الله هو الرازق للإشارة إلى أنّه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزّاقا لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله : « وما أنا بظلاّم للعبيد » .

و ذوالقوّة من أسمائه تعالى بمعنى القويّ لكنّه أبلغ من القويّ ، والمتين أيضاً

من أسمائه تعالى بمعنى القويّ .

والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى و أنّه لايأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم .

قوله تعالى : « فإنّ للّذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلايستعجلون » الذنوب النصيب ، والاستعجال طلب العجلة والحثّ عليها ، والآية متفرّعة على قوله : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » بلازم معناه .

والمعنى فإذ كان هؤلاء الظالمون لايعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإنّ لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الاُمم الماضية الهالكة فلا يطلبوا منّي أن اُعجّل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وأيّان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلّم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الّذى في قوله : « إنّ الله هوالرزّاق » الخ إلى التكلّم وحده الذي في قوله : «وما خلقت » الخ لتفرّع الكلام عليه .

قوله تعالى : « فويل للّذين كفروا من يومهم الّذي يوعدون » تفريع على قوله: « فإنّ للّذين ظلموا ذنوباً » الخ وتنبيه على أنّ هذا الذنوب محقّق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يعجّل لهم بعضه ، وهو يوم ليس لهم فيه إلّا الويل والهلاك وهو يومهم الموعود .

وفي تبديل قوله في الآية السابقة للّذين ظلموا من قوله في هذه الآية : «للّذين كفروا» تنبيه على أنّ المراد بالظلم ظلم الكفر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع و روي بالإسناد عن مجاهد قال : خرج عليّ بن أبي طالب معتمّاً مشتملاً في قميصة فقال : لمّا نزلت « فتولّ عنهم فما أنت بملوم » لم يبق أحد منّا إلّا أيقن بالهلكة حين قيل للنبيّ : « فتولّ عنهم » فلمّا نزل « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع

المؤمنين » طابت نفوسنا ، ومعناه عظ بالقرآن من آمن من قومك فإنّ الذكرى تنفعهم عن الكلبي .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور و روى أيضاً ما في معناه عن ابن راهويه و ابن مردويه عنه عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن أبي عمير قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له ؟ فقال : إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه و ذلك قوله عزّ وجلّ : « وما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون » فيسّر كلاًّ لما خلق له فويل لمن استحبّ العمى على الهدى .

وفي العلل بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : خرج الحسين بن عليّ عليه السلام على أصحابه فقال : إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه .

وفيه بإسناده إلى أبي بصير قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » قال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة .

اقول : و روى القمّي في تفسيره مثله مرسلاً ومضمراً ، وقد مرّ في تفسير الآية ما يتّضح به معنى هذه الروايات ، و أنّ هناك أغراضاً مترتّبة : التكليف و العبادة والمعرفة .

وفي تفسير العيّاشيّ عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « وماخلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » قال : خلقهم للعبادة . قال : قلت : قوله : « ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربّك و لذلك خلقهم » فقال : نزلت هذه بعد ذلك .

اقول : أي نزلت « ولا يزالون » الخ بعد « وما خلقت» الخ يريد النسخ ، وفي تفسير القمّيّ : وفي حديث آخر هي منسوخة بقوله : « ولا يزالون مختلفين » و المراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح ، وكثيراً ما ورد بهذا المعنى في كلامهم

عليهم السلام كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » الآية البقرة : ١٠٦ .

والمراد أنّ الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصّة المترتّبة على العبادة وهي السعادة الخاصّة بالمعرفة .

و في التهذيب بإسناده إلى سدير قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام أيّ شيء على الرجل في طلب الرزق ؟ فقال : إذا فتحت بابك و بسطت بساطك فقد قضيت ما عليك .

تمّ والحمد لله

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفه
الاحقاف ١_١٤	بحث فلسفى و دفع شبهة	فلسفى	٢٠٧
الفتح ١_٧	كلام في الايمان وازدياده	قرآنى وغيره	٢٨١
الحجرات ١_١٠	كلام في معنى الاخوة	قرآنى واجتماعى	٣٤٣
الذاريات ٢٠_٥١	كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق	عقلى	٤٠٨

ص	س	الخطاء	الصواب
٧	٩	وهي واقعة	وهو واقع
١٧	٧	فريق في الجنة	فمنهم شقي و
		وفريق في السعير	وسعيد
	١٠	يحترزوا	يتحرّزوا
٢١	١٩	١٤٧	٦٠
٢٦	٢	وما	والّذي
٢٧	١	«	«
	١٠	«	«
	١٦	«	«
٢٨	٧	هناك	هناك غيرها
	١٣	شريعه	شريعة
٢٩	٢١	تدعوهم	ماتدعوهم
٣٤	٣١	الحجّة	المحجّة
٤٢	٢٣	النبيّ	زائد
٤٥	١٨	عامّه	عامّة
٤٨	٧	ابحاث	ايجاب
٥٢	١٦	تصلحوا	تصلوا
٥٣	٧	فال	قال
٥٧	٢	والله	الله
٥٨	١	بعباده	لعباده
٥٨	١٢	ستة	سنة
٦٢	١٠	آية	آياته

ص	س	الخطاء	الصواب
٦٣	١٣	كان	كاف
٧٠	٢	فيها	فيهما
٧٣	١٣	المعصية	المصيبة
	٢١	عنه ساعة	ساعة
٧٨	٢٢	١٩٤	١٩٣
٧٩	١٥	٨٣	٨٢
	١٦	اسرى	اسرى ٨٥
٨٥	١	الزخرف	الزخرف مكيّة
٨٧	٨	٢	١
	٢٠	٢	٢٢
٩٣	١١	الايات	الآية
٩٨	١٣	(٢٦)	(٣٦)
١٠٧	١٧	وقال	قال
١٠٨	١٧	تشركوا	تشتركوا
١٢٨	٩	يرتفع	يرفع
١٣٨	١٦	فرّقناه	فرقناه
	١٧	انزل	نزّل
١٤٧	٩	١٤	٢٤
١٤٨	١٥	٢٦	٤٦
١٥٠	٢٢	البقرة:١٤٣	آل عمران:١١٠
١٥٦	٥	قيل	وقيل
١٥٨	٢٢	لا اظن	ماأظنّ

ص	س	الخطاء	الصواب
١٦٤	١	ستّ	سبع
١٧٢	٢٠	السخرمة	السخرية
١٧٦	٢١	فذرنى	وذرني
١٧٦	٢٢	١٣	١٢
١٧٨	١٥	فضّلها	فضّلوا
١٨٣	٣	الصالحين اهل	الطالحين اهل
١٨٥	١٤	معارك	من معارك
١٨٦	٥	البيان	البيان يظهر
١٨٧	٢	٦٠	٦١
١٩١	١٩	القيامة	يوم القيامة
١٩٩	٣	والارض	والارض وما بينهما
	١٤	ارايتم	قل أرايتم
٢٠٣	٩	عن	من
٢٠٤	١٩	انزله عليك	انزل اليك
٢٠٦	١٣	٢٩	٣٩
٢٠٧	٢١	محترم	محرّم
٢١٠	١٧	كثمله	كمثله
٢١٤	١٩	لايخلو	لا تخلو
٢٢٣	٤	فتقول	وتقول
	١٤	فتارة	وتارة
	١٥	٢٦	٣٦
٢٢٦	٣	غناء	عناء

ص	س	الخطاء	الصواب
٢٢٦	١٥	خصفة	حفصة
٢٣٠	٩	١٠٣	١٠٢
٢٣٧	٢	وما	والّذي
٢٤٣	٥	القتل	القتل بالسيف
٢٤٤	٣	٤	٥
٢٤٨	٦	شجاعه	شجاعة
٢٥٥	١٥	وعلى	وهو على
٢٥٥	١٦	ماخوذة	ماخوذ
٢٥٧	١١	٢٣	٢٤
٢٥٩	٤	المتقلب	المتقلب هو التقلب
	٢٣	٣٢	٣٥
٢٦٩	٨	اولئك	اولئك الضعفاء الايمان المائلون الى النفاق
٢٧٠	١٦	هذا	هذه
	٢٠	فلا	ولا
٢٧٣	٦	عزيزا	عليما
٢٧٧	١٨	ان	لأن
٢٧٩	٢٢	قليل النصر	قليل النظير
٢٨٤	٦	تفيد	يفيد
٢٨٧	١٢	الفتح	الفتح العظيم
٢٩٢	٣	يرجع	ترجع
٢٩٨	٣	التعزيز	التعزير

ص	س	الخطاء	الصواب
٢٩٨	٢٣	ومن	من
	٢٣	٨	٨٠
٣٠٠	٥	عبدالله	عبدالسلام
٣٠٣	١١	للايملك	فلايملك
٣٠٦	١	اوّل	ادّل
٣١٣	١٨	٣١	٢١
٣١٩	٢٠	وفي الكافي	
٣٢٠	١٩	ينتهى	ان ينتهى
٣٣٢	١٨	٤	٤٠
٣٣٣	٢١	٢٠	٣١
٣٣٦	٩	للحرمة	للحومة
	١٩	لادغام	لادعام
٣٥٠	٢٠	ويترتب	ويرتب
٣٦٠	٢١	بسيبة	بسبيبة
٣٦٧	٢٢	تذكر	يذكر
٣٧١	٧	سورة الحجر	سورالحجر
٣٨٠	١٧	منقول	مغفول
٣٨٣	١٣	وانا	وما انا
٣٨٧	١٢	والله	بلى والله
٤٠٤	٧	تذكرون	تذكّرون
٤٠٦	٢١	٢١	٢٥
	٢٣	٢٥	٢١
٤٠٧	١٨	فقط	فقط او إلى الله

VETUS & TESTAMENTUM NOVUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY